«سلسلة الأقارب والطفل في المجتمع الشرقي المعاصر»

الإنسان والتاريخ

أثر التاريخ وتأثره بسيكولوجية الفرد

إعداد

كريستين نصار

جروس برس

الإنسان والتاريخ

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

جروس برس

طرابلس - لبنان

الإهداء

إلى من ربّتني

إلى من غرست بقلبي روح النضال والعمل الدؤوب والتضحية التي لا تعرف الملل.

إلى من زادتني ثقةً بنفسي بفضل تشجيعها لي.

إلى من بمساعدتها تجاوزت ذاتي واستمدّيت عزمي على المثابرة والعطاء

إلى من اعتبرها رمزاً للعطاء والتضحية

إلى والدتي البارّة

التي لن ترى، وللأسف، ثمرة جهودها

كريستين نصّار

«سلسلة الأقارب والطفل في المجتمع الشرقي المعاصر»

في وقت تغشّي فيه سماء الكون غمائم قاتمة تنذر بشرّ العواصف المهدِّدة للعالم بأسره وليس فقط للبلدان التي تعاني من ويلات الحروب، يأتي عملنا الحالي والمستقبلي كمحاولة علمية وعملية شئناها بمتناول الجميع (من حيث مستوى المفاهيم واللغة) للإجابة على العديد من التساؤلات الجادّة والملحّة التي يطرحها على نفسه كلّ إنسان معاصر بشكل عام والانسان العربي ـ الشرقي بشكل خاص.

تتبلور محاولتنا هذه عبر عدد من الأجزاء المتتابعة والمتكاملة التي تتناول الانسان بمجمل الابعاد والعوامل المؤثّرة والمتأثّرة بشخصيّته. يمكن اعتبار التاريخ والجغرافيا من أولى هذه العوامل؛ من هنا كان بدء عملنا هذا بكتابي:

١) ـ «الانسان والتاريخ» (أثر التاريخ وتأثّره بسيكولوجيّة الفرد)
٢) ـ «الانسان والجغرافيا» (أثر الجغرافيا وتأثرها بسيكولوجيّة الفرد)

تأتي بعدهما الكتب التالية:

٣) ـ «أيّها الطفل من أنت؟» دراسة سيكولوجية تتناول الطفولة بشكل عام)

٤) ـ «واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل» (حالة خاصّة: الطفل اللبناني)

٥) ـ «مواقف الأسرة العربية من اضطراب الطفل» (حالة خاصّة: الأسرة اللبنانية)

٦) ـ «موقف الطفل من والديه كثنائي «كوبل» يجمعهما معاً»
٧) ـ «عد يا أبي، الجزء الأوّل: «المشاكل المطروحة عن غياب الأب في الأسرة»، الجزء الثاني: «إمكانيّات تعويض هذا الغياب»
٨) ـ «أمّي أنا بحاجة اليكِ، لا تتركيني»
٩) ـ «رفيقي، تعالَ نكتشف العالم معاً»
١٠) ـ «إيه أيّها التلفزيون، كم تثيرني!»
١١) ـ «واقع التربية في المجتمع الشرقي المعاصر» (دور المعلّم في خفض حدّة الاضطراب النفسي عند الطفل)
١٢) ـ «الطفل المعاصر والدين»

بِشكلٍ موازٍ لهذه السلسلة، هناك سلسلة البحث العلمي وإمكانيّة تطبيقه على المجتمع الشرقي.

- منهجيّة البحث العلمي
- رائز (اختبار) الحرمان Test de frustration: الصور، كتيِّب التعليمات وكيفيّة التأويل
- رائز الحرب Test guerre: لوحات الرائز، كتيّب التعليمات وكيفيّة التأويل
- رائز الفيلم Test film: نسخة معدّلة على المجتمع اللبناني (مع كتيِّب التعليمات والتأويل)
- رائز العائلة Test famille: (تأويل مقنّن على المجتمع اللبناني)
- رائز الرجل السوداء (PN) test patte noire (تأويل مقنّن على المجتمع اللبناني)
- الطفل من خلال رسومه

إلى جانب ذلك، نحن بصدد إعداد موسوعة، في علم النفس، لقرّاء العالم العربي على غرار الموسوعة الغربية l'Univers de psychologie تحت

عنوان «استكشاف دنيا علـم النفس»، تتناول شتّى المسائل والظواهر المتنـوّعة الخاصّة بالانسان وذلك من خلال تطرّقنا لـ: ماضي علم النفس وتاريخه، لميادينه ومناهجه، لتداخل معطيات الجسد مع معطيات النفس في حياة الانسان وكل ذلك ضمن إطار دراسة: الكائن السويّ والمريض، أعمار الفرد، تأثيرات الوسط او بـالأحرى الأوسـاط (le Milieu) المحيـطة بـه، مفـاهيم: العـائلة وثنـائي الزوجين، التربية، السياسة، الاقتصاد الصناعة، الدين، السحر، . . . وبكلمة مختصرة، دراسة كل ظاهرة وواقع بشريّين.

د. كريستين نصّار

محتويات الكتاب

مقدّمة

لا تعرض هذه الفصول التي نتقدّم بها للقرّاء بحثاً مستفيضاً في التاريخ إنّما تدرس، كما يظهر من العنوان، «أثر وتأثر التاريخ بسيكولوجيّة الفرد» انطلاقاً من الواقع العالمي ومعاناته وطرق حلّه للمشكلات العامّة (الفكرية والسياسية والايديولوجية والنفسية والشخصيّة ـ الوطنية. . .) التي تجابهه.

لذا لا يقوم هذا الكتاب مقام الكتب التاريخية المتعدّدة، التي لا حصر لها والتي ظهرت ماضياً وحاضراً، بل يرتكز عليها كيما يستطيع تحليل العلاقة القائمه بين التاريخ والفرد، هذه العلاقة التي تشغل، بالواقع، مكانة هامّه جدّاً والتي لم يُفرَد لها، حتّى الآن، دراسة خاصّة منتظمة.

نرجو أن نوفّق في تحقيق هدفنا المنشود خاصّةً أن هذا الموضوع يستقي أهميّته القصوى من تنبه الإحساس التاريخي لدى الأمم ومن وعي الأفراد والشعوب لماضيهم وتأثرهم به، هذا من جهة. أمّا من جهة أخرى، فإن أهميّة هذا الموضوع تنتج عن دقّة الموقف الإنساني الحاضر، هذا الموقف الذي لخّصه الرئيس جون كندي[1] بقوله: «إنّنا نملك القدرة لجعل هذا الجيل البشري أفضل الأجيال في تاريخ العالم، أو آخر هذه الأجيال». يدل هذا القول على ما يواجه الإنسانيه اليوم من اختيارات رهيبة لم تعرف ما يوازيها في تاريخها المضطرب المديد. وهي اختيارات ناتجة، كما يقول قسطنطين زريق[2] عن «ضخامة القدرات التي ولّدها تقدّمها العلمي وتسلّطها على الطبيعة واستغلالها لطاقاتها.

(١) خطبه القاها الرئيس جون كنيدي أمام الهيئة العامّة للأمم المتّحدة في ٢٠ أيلول ١٩٦٣ وهو يتكلّم على الوضع العالمي الحاضر.

(٢) قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان. ص ٣٧٧.

وهذه القدرات إمكانيّات ثريّة ووسائل جليلة إذا حُسن استخدامها استطاعت أن تشفي البشرية من العلل المضنية التي أرهقتها خلال الأجيال وإذا ساء وفُسد أدّت إلى زوال الحضارة وفناء النوع البشري». فبوسع جيلنا الحاضر أن يكون، كما قال الرئيس كنيدي، إمّا آخر الأجيال وإمّا أفضلها.

يُستشفّ من هذا القول، أهميّة الفرد ووعيه الدور الرئيسي الذي عليه أن يؤديه، إلى جانب أمثاله من أفراد الجيل الحاضر، كي يرتفع إلى مستوى الحاضر الجليل الرهيب والمستقبل الأجلّ الأرهب.

فما هي، إذاً، الواجبات المترتبة على الأفراد والمجتمعات والأمم في هذه المرحلة الفريده من مراحل التاريخ؟ وما السلاح الذي على الفرد، بصفته ابناً من أبناء البشريه وصانعاً للتاريخ، أن يستخدمه للقيام بالدور المتوقّع منه القيام به؟

يتبيّن من هذا العرض تداخل مفهومين أساسيّين: «أثر التاريخ في سيكولوجيّة الفرد» و «أثر سيكولوجيّة الفرد في التاريخ» نظراً لكونهما وجهين لحقيقة واحدة تكمن في تفاعل «التاريخ والفرد» معاً؛ ذلك لأن كل أثر للتاريخ في الفرد ينطوي على أثر للفرد في التاريخ إذ أن المعنى العميق لتاريخيّة الإنسان يكمن في كون الشخص ـ الفرد كائناً حياً فاعلاً وبهذه الصفة لا يتأثر بالواقع فحسب بل يؤثر فيه. أكثر من ذلك، يمكن القول بأن التاريخ يشكّل أهم صفة تميّز الإنسان عن الحيوان ولقد قيل عن حق «لا إنسان بدون تاريخ ولا تاريخ بدون إنسان».

فمن هو هذا الإنسان ـ الفرد؟ وما التاريخ؟ وما هو كنه العلاقه القائمة بينهما؟

الإجابة على هذه الأسئلة البسيطة بظاهرها المعقّدة بجوهرها تتطلّب بحثاً مطوّلاً، بل ابحاثاً متعدّدة، في الإنسان (هذا الإنسان الذي شكّل المحور الرئيسي لمجمل الميادين العلميّة والفكريّة. . .) من جهة، وفي التاريخ (الذي ينبغي، لإيفائه حقّه من البحث، التطرّق إلى كل ما حملته ميادين العلم والفكر

من معرفة شاسعة حول الإنسان منذ أن وُجد على هذه الأرض حتّى يومنا هذا) من جهة أخرى.

لذا لن نغوص في أعماق هذه الميادين التي يتطلّب كلّ منها عدداً من الدراسات التخصّصية بل سنكتفي بما توفّره لنا من معلومات حول موضوع بحثنا الأساسي (أثر وتأثر التاريخ بسيكولوجيّة الفرد).

بالعودة إلى الواجبات المترتبة على الأفراد في هذه المرحلة الفريدة من مراحل التاريخ نقول بأن أي فرد لن يستطيع القيام بما يتوجّب عليه إذا لم يسترشد ماضيه، وماضي البشرية بشكل عام، عبر المحاولات الجليلة والمتعدّدة التي قام بها علماء التاريخ، كيما يتمكّن من النفاذ إلى لبّ حياة الأجداد فيدرك، بالتالي، قوانينها ويفهم الروابط التي تشدّه إلى الماضي وتشدّ الماضي إلى الحاضر؛ وهكذا يستطيع أن يستشف كنه المستقبل والمراحل المقبله فيتمكّن من مواجهة هذا المستقبل بثقة وعزم نظراً للوعي وللتهيّؤ العلمي والنفسي اللذين يكون قد حضّر نفسه من أجلهما.

من هنا يُفهَم إيثارنا بحث الموضوع الذي نحن بصدد دراسته انطلاقاً من مبدأ عدم إخضاعه لفكرة مسبقة مستمدّة من خارج الاختبار التاريخي، بل على العكس من ذلك، حاولنا استنطاق هذا الاختبار لاستكشاف ما ينطوي عليه من آثار متعدّدة، متنوّعه ومتباينة بالنسبة لموضوعنا الأساسي.

هوذا، إذاً، المصدر الذي نستمد منه أسس وجذور بحثنا اقتناعاً منّا بأن اعتماد هذا المصدر والتزامنا به هما أسلم عاقبة وأوفر عائدة من أي مسلك آخر لدى تناولنا لمثل هذه القضيّة (لا بل بالنسبة لأيّة قضيّة تاريخيّة) التي نحن بصدد دراستها.

هناك ملاحظة تجدر الإشارة إليها: لسنا من الذين ينكرون جدوى التأمّلات (فلسفيّة كانت أم نظريّة ـ تطبيقيّة في مختلف المجالات العلميّة) التي ظهرت في شتّى الميادين الفكريّة، خاصّةً أننا ننطلق منها ونعتمد عليها كمراجع أساسيّة تنبئنا عن مختلف آثار التاريخ في سيكولوجيّة الفرد، لكن اعتمادنا عليها

ينطلق بناءً على اتّجاه علمي يحاول الجمع بين مختلف النظريّات والتيّارات التي تتناقض حيناً وتتكامل حيناً آخر، لكن لا بد أن يتفاعل بعضها مع بعض إذ أن حقول المعرفة واتجاهاتها المتعدّدة تكوِّن، بنظرنا، وحدة مترابطة متداخلة.

على أنّنا إذ نتصدّى لدراسة هذا الموضوع تجبهنا مشاكل متعدّدة سنحاول معالجتها ضمن إطار بحثنا. من هذه المشاكل نذكر مثلاً مشكلة تعريف مختلف المفاهيم التي ستظهر خلال دراستنا إذ من حقّ القارىء علينا أن نوضح له مفهومنا لهذه المواضيع التي نتطرّق لها كي يدرك مقصودنا فيتمكّن بالتالي من معرفة المعاني التي يدور عليها بحثنا.

هناك أيضاً مشكلة تعدّد المفاهيم وتداخلها بعضها ببعض بحيث لا نستطيع استكمال بحثنا دون التعرّض لها؛ يعود ذلك لسعة وعسر وتعقّد هذه القضيّة «قضيّة التاريخ والفرد» بحيث يصعب حصرها وتبسيطها نظراً لكونها تعكس قضايا الحياة بكاملها: فهي لا تنحصر في الإطار الاجتماعي فحسب، بل إنّها تنفذ إلى عالم الطبيعة: طبيعة الكون (البيئة الجغرافية) والطبيعة البشريّة. فلا بد إذاً من أن تنفتح دراستها على مختلف النتائج التي توصّلت إليها مختلف العلوم (البيولوجيا، الفيزياء، علوم الاحياء، علم أصول الأجناس، . . .) كلٌّ حسب اختصاصه. كما أنّه لا غنى عن البحث الفلسفي الذي يمدّها بالمعرفة حول ماهيّة العلل وأنواعها وخواصّها وحدودها وطبيعة ارتباطها بالنتائج والأحداث ولا عن الأبحاث في الدين وفي الآداب بمختلف فروعها. . . ؛ ففي تاريخ الفكر الإنساني تراثٌ ضخم تكوّن من مجمل المعالجات التي تمّت ضمن هذه الأطر.

كل ذلك يدعونا إلى التريّث والتحوّط والشك في أي قول مطلق أو أيّة عقيدة جامدة لا تأخذ البراهين والاثباتات العلميّة قاعدة لها وخصوصاً إذا كانت تستند إلى عامل معيّن مهملةً العوامل الأخرى التي لها، بلا شك، حيويّتها وفعلها في تكوين الفرد والتاريخ.

هذا إلى جانب اقتناعنا بوجوب التعديل على ضوء الحقائق المستجدّة إذا ما أظهرت الوقائع ضرورة تعديل ما نقول.

هذا هو «الأسلوب العلمي» الذي سنتّبعه والـذي لا يؤهّلنا لأكـثر من افتراضات نظراً لسعة الموضوع وتعقّده وشموله الحياة بـأكملها ونـظراً لتجدّد الحياة وسيرها إلى الأمام مع الاكتشافات والاستنتاجـات الجديـدة التي تظهـر باستمرار.

هذا طموحٌ منّا نرجو أن نحقّق ولو النزر اليسير منه خاصّةً أنّه يجمع بين حصيلة القراءات الواسعة والتأمّـلات الجديّـة للمسائـل التي تبرز في حقـول التاريخ وعلم النفس من جهة وبين النتائج العملية ـ العياديّة التي حصلنا عليها عبر الدراسات العلميّة التي قمنا بها في مضمار علم النفس العيادي من جهة أخرى. يُضاف إلى ذلك خبرة سنوات في حقل التعليم الجامعي (وقبله في حقل التعليم الإبتدائي والتكميلي والثانوي) وفي حقل الممارسة المهنيّة التي أثارت في ذهننا تساؤلات عدّة سنحاول الإجابة عليها، علميّاً، في أجزاء متعدّدة ستكون دراسة «أثر وتأثر التاريخ بسيكولوجيّة الفرد» أوّل جزءٍ منها، تليها دراسة «أثر وتأثر الجغرافية بسيكولوجيّـة الفرد» ومن ثمَّ نتنـاول ميادين الـطفولـة والعائلة بالدرس والتمحيص بعد أن نكون قد هيّأنا في الكتابين الأوّلين، الأرضيّة الأساسيّة واللازمة لفهم تأثيرات وتأثّرات الطفولة التي لا تنمو وتتطوّر بشكلٍ سليم إذا لم تتهيّأ لها الأجواء الملائمة لتطوّرها.

قد يتساءل بعضنا عن جدوى الدراسات التي نقوم بها في الوقت الحاضر حيث تغشّي سماء العالم غمائم قائمة جدّاً تنذر بشرّ العواصف التي تهدّد العالم بأسره بالمزيد من الحروب المثيرة للقلق والاضطراب والخوف من المجهول الذي يترقبه في ظل الوقائع الحاضرة.

في الحقيقة، إن الاضطراب الشـامل الـذي يشهده العـالم اليوم ليهـدِّد الإنسانيّة بأخطار تتجاوز بعمقها، كما سبق أن قلنا، كل ما عرفته حتّى الآن. وهذا الاضطراب لا يُعالج معالجةً صحيحة، من شأنها إبعـاد كابـوس الخطر الجاثم على صدور معظم الناس، إلاّ بالنفاذ إلى جذوره العميقة لمعرفة أسبابه البعيدة والمتأصّلة.

تفرض هذه المعالجه الجذريّة تبيّن العلل والأسباب الأصيلة الفاعلة في تكوين مشاكل البشريّة الحاضرة، فيسهل بالتالي كشف طبيعتها ومدى تأثيرها خاصّةً أن الإنسان، فرداً كان أم عضواً داخل بنية اجتماعيّة معيّنة، هو، بمقدارٍ كبير، نتاج الماضي. أضف إلى ذلك كون كل مشكلة تعترض الإنسان، أثناء نموّه، لها جذورها في التراث الذي يتسلّمه من الأجيال السابقة الذي يفعل فيه كما يفعل هو أيضاً فيه عبر عمليّة تفاعل (أخذ وعطاء) متبادلة بينهما.

من هنا نرى أن أيّة معالجة صحيحة لابدّ أن تستند إلى معرفة تاريخية للماضي. وبما أنّنا نودّ معالجة العلاقة القائمة بين التاريخ والسيكولوجيا الفرديّة لابدّ لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار بعض الثوابت التي يؤكّد بعض المؤرّخين (أمثال جواد بولس وغيره) وجودها وأثرها الفاعل في تكوين الأفراد، بينما يقف بعضهم الآخر منها (أمثال قسطنطين زريق وغيره) موقف التريّث والحذر. يكمن أهم هذه الثوابت في القول بأن «الطبائع البشريّة النفسيّة وأحياناً الجسميّة التي تطبعها في كل شعب من شعوب العالم العوامل الطبيعيّة والإرثيّة، أي البيئة الجغرافية التي يعيشون فيها بصورة متواصلة، هي طباع دائمة، نسبّياً، عبر العصور. وهذه الطباع هي التي تحرّك الناس فتسيّر تصرّفاتهم العادية وغير العادية وتوجّهها أكثر ممّا يفعله، في هذا المجال، المنطق العقلي أي الرأي المبني على التفكير».

«إن الأنانية والحب والبغض والخوف... وهي طباع غريزية، هي المحرّكات الرئيسيّة للنشاطات البشريّة»[1] وهذه حقيقة راهنة اقرّتها العلوم الحديثة: علم النفس، علم التاريخ والفلسفة، علم الجغرافية البشريّة، علم الانتروبولوجيا والعلوم الإنسانيّة على أنواعها.

يُمكن القول بأن الخصائص والشمائل النفسيّة التي وصف بها القائد الروماني يوليوس قيصر، في مذكّراته، شعوب بلاد الغول (فرنسا القديمة) في القرن الأوّل قبل الميلاد، لا تزال هي هي التي يتّصف بها الشعب الفرنسي

(١) جواد بولس، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عوّاد للطباعة والنشر، بيروت، ص ٤٠١-٤٠٢.

بالزمن الحاضر حسبما يؤكّده المؤرّخون بالرغم من تغيّر اللغة والدين والثقافة والمؤسّسات السياسيّة الذي طرأ، منذ ذلك العهد، على هذا البلد الأوروبّي.

كذلك القول في ما يختص بطباع البابليين والأشوريّين في العراق والأموريّين ثم الآراميّين في سوريا، والفينيقيّين في لبنان والكنعانيين في فلسطين والمصريّن الفرعونيين في مصر والعرب الرحّالين أو البدو في قلب الجزيرة العربية والبوادي السوريّة العراقيّة هي كلّها شعوب لم تتغيّر في جوهرها برغم التغييرات المتعدّدة التي طرأت عليها في مختلف مجالات اللغة والدين والسياسة طوال قرون وجودها منذ أزمنة ما قبل الميلاد حتى أيّامنا الحاضرة. نجد البرهان على ذلك في النقوش والكتابات القديمة والاكتشافات الأثريّة... (جواد بولس، سبق ذكره، ص ٣، ٤).

لذلك قيل: «إن السياسة هي بنت التاريخ والتاريخ هو ابن الجغرافية والجغرافية لا تتغيّر في الزمن المنظور إلاّ نسبيّاً».

وفي هذا الصّدد، يقول الدكتور جواد علي في موسوعته المعنونه «المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام» عن طبيعة عرب الجزيرة قبل الإسلام والمستمرّة حتّى اليوم بأن «لكل أمّة عقلية خاصّة بها... كما أن لكل أمّة نفسيّة تميّزها عن نفسيّات الأمم الأخرى وشخصيّة تمثّل تلك الأمّة وملامح تكون غالبة على أكثر أفرادها، تجعلها سمة لتلك الأمة تميّزها عن سمات الأمم الأخرى. والعرب، مثل غيرهم من الناس، لهم ملامح امتازوا بها عن غيرهم وعقليّة خاصّة بهم. لهم شمائل اشتهروا بها بين أمم العالم...».

يمكن إدراج نظريّة أحمد أمين ضمن الإطار نفسه تقريباً إذ يتكلّم عن العقليّة العربيّة كخلاصة لعاملين:... البيئة الطبيعيّة والبيئة البشريّة؛ عنى بالبيئة الطبيعية ما يحيط بالشعب، طبيعيّاً، من جبال وأنهار وصحراء...، وبالبيئة البشريّة ما يحيط بالأمّة من نظم اجتماعية كنظام حكم ودين وأسرة... وهما معاً، مجتمعين غير منفصلين، أثّرا في تلك العقلية.

يُستفاد، ممّا تقدّم، بأن الشعوب والأمم يتميّز كلٌّ منها بنفسيّة وشخصيّة

خاصّة تميّزها عن نفسيّة وشخصيّة غيرها من الشعوب والأمم. . . وإن كانوا من دينٍ واحد وينطقون بلسانٍ واحد.

هناك إلى جانب ذلك ثابتةconstante أخرى تتفرّع عن الأولى وتكمن في عدم قدرة توحيد البلدان ذات النفسيّة والشخصيّة الخاصّة، سياسيّاً وحتّى اجتماعيّاً نظراً للحاجز الذي يضعه التكوين الجغرافي في طريقها. فالصّحاري والذهنيّة الخاصّة التي تطبعها البيئة الجغرافيّة بشعبٍ معيّن تشكل كلّها عقبات وحواجز، لا سبل مواصلات بين البلدان المجاورة. هذه العوامل وما يرتبط بها بشكل مباشر أو غير مباشر، هي من أهم الأسباب التي حالت دون قيام الوحدة بين مختلف البلدان الخاضعة للإمبراطوريّات التي تشكّلت عبر التاريخ والبلدان التي تمّت محاولاتٍ عدّة لضمّها ضمن وحدات سياسيّة ـ عسكرية معيّنة. . .

كل ذلك يدعو للبحث عن عناصر أساسيّة (ثوابت Constantes) للوحدة التي يمكن أن تجمع بين شعوب متعدّدة خارج إطار اللغة والدين والعرق. . . والتي تسهم فقط في إعداد جو ملائم لنضج التجمّعات الاجتماعية وتماسكها. لذا بحثت الأمم الحديثة المهتمّة ببناء وحدات اجتماعية متناسقة، وقد استفادت من تجربة العصور، عن التناسق والتماسك في عناصر طبيعيّة أكثر فاعليّة وقابلة لأن تُوجد، لدى أفراد التجمّع الاجتماعي الواحد، المصلحة والإرادة في مجتمع واحد مثل: الشعور بالانتماء إلى بقعة مشتركة، تشابه في الشكل الخارجي، تقارب معنوي، أخلاق وعادات وتقاليد اجتماعيّة متشابهة، . . .

لإيضاح مختلف المسائل التي ورد ذكرها في المقدمة ينبغي علينا: دراسة كنه التاريخ، وفهم الجغرافية كعامل جوهري في التاريخ (من حيث تأمين الثوابت عند الكائن البشري)، وفهم الطبائع البشريّة: الوراثيّة منها والمكتسبة. . . كيما نتمكّن من فهم علاقة التاريخ بالفرد والمجتمع وتحديد مفهوم المعادلة: فرد ـ مجتمع التي تتطلّب بدورها: تحديد موضوع الفرديّة وتحديد علاقة الفرد بالثقافة والبيئة المحيطتين به ثم تطوّر كلٍّ من الفرد والمجتمع بشكلٍ متفاعل ووثيق كيما ننتهي بفهم البعد التاريخي كعاملٍ يضفي على الشخصيّة

الفرديّة فرادتها وأصالتها ويؤدّي، بدوره، إلى بلورة التأثيرات والتأثرات المتبادلة القائمة بين التاريخ والسيكولوجيا الفرديّة.

قبل إنهاء مقدّمتنا هذه نودّ تحديد الأسباب التي دفعتنا لتقديم هذا الجزء «أثر وتأثر التاريخ بسيكولوجيّة الفرد» على سائر الأجزاء التي ننوي تقديمها للقرّاء الكرام. هذه الأسباب هي، في الحقيقة، متعدّدة سنورد أهمّها:

ـ أوّلاً، تُعتبر معرفة تاريخ المجتمع الذي ينحدر منه الفرد ضرورة ماسّة لا يمكنه، بدونها، عيش الحاضر ولا رسم خطط مستقبليّة تشكّل، بحد ذاتها، الخطوط العريضة لسير حياته وحياة عائلته (أطفاله بشكل خاص) كما وحياة المجتمع الذي يضمّه، إلى جانب غيره من الأفراد، ضمن إطار بنية اجتماعيّة structure sociale موحّدة لها قوانينها ومبادئها الخاصّة بها...

ـ أمّا السبب الثاني فيعود لحاجة المجتمع، ومن ضمنه الفرد، إلى تكوين رؤية واضحة للأحداث التاريخية التي مرّ بها والتي تمكّنه من تبيان الخطوط والمعالم الحضاريّة والمجتمعيّة الصحيحة... التي رافقت صيرورتهson devemir كمجتمع كبير منذ آلاف السنين حتّى العصر الحديث... إذ هناك ثوابت نسبيّة ينبغي على كل إنسان إدراكها ووعيها إذا ما شاء مساعدة مجتمعه على السّير قِدماً نحو مستقبلٍ زاهر.

صحيح أن الشعوب عديدة متعدّدة، لكن ليست كميّة البشر، مهما عدّت من ملايين، هي التي تساعدها على خلق إنسانها الجديد ذي الفضائل الاجتماعيّة الجديدة والمفاهيم القوميّة والسياسية والإنسانية الجديدة بل، على العكس من ذلك، فإن تكوين الرؤية الواضحة لحقيقة ما هي فيه هو الذي يساعدها على هذا الخلق.

ولكي تتكوّن عند الشعوب هذه الرؤية الواضحة لحقيقة ما هي فيه يجب أن تسبقها رؤية أولى لأحداث تاريخها بشكلٍ خاص وتاريخ العالم بشكلٍ عام...

ـ يكمن السبب الثالث في حاجتنا لبلورة الإطار التاريخي الذي يشكّل في الحقيقة، القاعدة الأساسية التي لا بدّ من معرفتها معرفةً معمّقة إذا ما شئنا إدراك نمو الطفل وتطوّره، فنتمكّن، بالتالي، من تأمين الإطار الصحيح لهما.

لا يسعنا إنهاء مقدّمتنا هذه دون التعبير عن شكرنا العميق لمن قدّموا لنا مساعدة دائمة بفضل نصائحهم وانتقاداتهم العلمية واقتراحاتهم العمليّة ونخص بالذكر: الدكتور كاميلاّري(١)، الدكتور ميشال ديفايول(٢) والدكتور جان غيّومين.

نوجّه شكراً خاصّاً ممزوجاً بالأسف الصادق للمرحوم الدكتور ريمون بيشوpéchoux الذي لن يرى، وللأسف، عملنا هذا. لقد غيّبه الموت وبغيابه هذا حرمنا القدر من المساعدة (المعنويّة والفكريّة) والتشجيع الدائم اللذين كان يرفع بهما معنويّاتنا كلّما اعترانا ضعف ناتج عن معايشتنا للأحداث المؤلمة التي عملنا ولا نزال نعمل في ظلّها.

ولا ننسى، في هذا المجال، السيّد جوزف عبّود، ذا الفكر الثاقب والنظرة الموضوعيّة اللذين نجلّهما عنده: فهو الذي لفت انتباهنا إلى ضرورة معالجة أثر التاريخ والجغرافيا في كتابين مفردين لا ضمّهما ضمن إطار الأجزاء الأخرى كما كنّا ننوي القيام به؛ كما أنّه قدّم لنا معلومات وافرة ساعدتنا كثيراً على مواجهة صعوبات عملنا... كما أنّنا لا ننسى أخانا العزيز نجم الذي زوّدنا بالعديد من المراجع المتوفّرة في مكتبته الخاصة والذي أفادنا من آرائه ونقاشه في مسائل هذا الكتاب وفي غيرها من القضايا التي نفكّر بها ونحياها.

نتوجّه أيضاً بالشكر لأختنا سيدة لمساعدتها القيّمة لنا كما نتوجّه بشكرٍ

---

(١) نرجو من الدكتور Camilleri بأن يتقبّل امتناننا الخاص لموقف الصداقة والود الذي أظهره لنا طوال فترة عملنا معه (كمشرف على أطروحة الدكتوراه الدولية Doctorat d'Etat) وفيما بعد، خلال عملنا في تحضير الأجزاء التي نحن بصدد تقديمها للقرّاء.

(٢) نشكر الدكتور Defayolle شكراً خاصّاً لتطوّعه الدائم على مساعدتنا بدون مُقابل.

خاص للسيّد إيلي طربية للمساعدة الخاصّة التي قدّمها لنا والتي طالما شجّعتنا كلّما اعترانا التعب والضعف...

نتوجّه، أخيراً، بالشكر إلى كل من ساهم، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في إيصال عملنا للهدف المُتوخّى منه.

مدخل

يعتري شعوب اليوم كافةً خوفٌ وقلق ملحّان: إنّها تخشى أن يكون مصير البشريّة بدأ بالأفول نظراً لكون مآثر المدنيّة الحديثة (من: فتوحات باهرة رفع العلم لواءها وخيراتٍ متدفقه فجرّتها الآلة من بطون الطبيعة ونتاجٍ ضخم يندفع كالسيل الغامر من المعامل والمصانع) تبدو كأنها تقود العالم إلى شفير هاويةٍ لا يعلم إلاّ الله قرارها، لا سبيل أمنٍ وصفاء وسعاده مرجوّة بالنسبة للبشريّة.

إن القلق والاضطراب ليفعلان فعلهما اليوم في تنبيه الوعي التاريخي عند الأمم المعاصرة (في الشرق كما في الغرب) السائره في الطريق المرسومة لها من قِبَل المدنيّة الحديثة. وهما يهيبان بالمفكّرين والعلماء للتطلّع إلى الماضي واستكشاف ما يكمن فيه من عناصر من شأنها تأمين الاستقرار المنشود في خضمّ هذا الاضطراب الشامل، ومن عوامل تقدّم ورقي تمكّنهم من التمسّك بها والاستفادة منها.

لا عجب في ذلك، فلقد لاحظ المفكّر الروسي نيقولا برديائف N.Berdyaev[1] وسواه من المفكّرين المحدثين، أن عهود النكبات في التاريخ الإنساني كانت دائماً حافزة إلى التفكير في الماضي وفي المصير ومثيرة للاهتمام في تفسير التاريخ وتعليله؛ والأمثلة على ذلك متعدّدة: لقد وضع أوغسطينوس الأول أوّل مذهبٍ شامل في التاريخ في عهد نكبة تداعي العالم القديم وسقوط روما، كما كان عصر الثورة الفرنسيّة والحروب النابوليونيّة حافزاً للكثير من المحاولات التي تمّت بقصد فهم التطوّر التاريخي واستكناه جوهره ومعناه. وكذلك الحال في التراث العربي مع ابن خلدون الذي وضع مقدّمته الشهيرة في ظل تداعي العالم الإسلامي المترامي الأطراف الذي انقسم إلى دولٍ متناحرة

(1) Nivolas Berdyaev, *The Meaning of history*, London, 1945, P 1...

فكانت هذه المقدّمة من أبرز آثار التفكير الاجتماعي والتاريخي.

مهما يكن من أمر، وسواء كان العالم يمر بأزمة خانقة أم لا، فحريٌّ بإنسان اليوم أن لا يشيح بوجهه عن الماضي إذ لا بدّ له، إذا أراد أن يحيا، من مجابهة التاريخ وإدراكه إدراكاً نيّراً كيما يتمكّن من الاستفادة مما ينطوي عليه من قوّة وغنى فيستطيع، بالتالي، التغلّب على ما يشوبه من ضعفٍ وفساد بفضل فهمه الصحيح للأصول والأسباب الموروثة الذي يمكّنه من القيام بحكمٍ صادق عليها فيتمكّن، عندها، من نشدان السلامة والاستقرار.

على كل إنسانٍ وعي واقعه الخاص حيث يطلّ عليه التاريخ من نوافذ متعدّدة تدفعه إلى تنظيم نمطٍ جديد من الحياة يستلهم فيه الماضي ليستمد منه الركائز الأساسيّة لهذه الحياة الجديدة على ضوء مقوّمات الحياة الماضية وتقاليدها وأمجادها وبطولاتها فيتقوّى بها كعضدٍ معنوي وروحي في نهضته وسعيه لبناء مجتمعه الحاضر مستنيراً بهدي العقل والفهم الصادق لعلاقة ماضيه بحاضره وبمستقبله، فالتذكّر والإحساس هما عنصران من العناصر الأساسيّة التي تميّز الإنسان عن الحيوان إذ «لا إنسان بلا تاريخ ولا تاريخ بلا إنسان».

تجدر الإشارة إلى ناحية هامّة جدّاً تكمن في حاجة هذا الإنسان إلى التمييز بين عناصر تراثه المختلفة تمييزاً دقيقاً إذ هناك ما يجب أن يحرص عليه ليبني على أساسه مدماك حياته الجديدة كما أن هناك ما ينبغي عليه طرحه جانباً وتخطّيه إلى ما هو أفضل وأجدى نظراً لعدم تلاؤمه مع متطلّبات الحياة الجديدة.

هناك، في الحقيقة، وجوه وأشكال متعدّدة في التاريخ: هناك الخبرات المؤلمة والمريرة مثل النكبات والمآسي التي عرفها الأسلاف والجدود خصوصاً في ما يتعلّق بالأنانية والنزاعات والتخاصمات الداخلية... المتوارثة جيلاً بعد جيل والتي كانت، وستبقى (إن لم يعِ الإنسان خطورة أبعادها) سبباً لسفك الكثير من الدماء والتشريد والقلق والاضطراب...

وهناك، إلى جانب ذلك، الوجوه المضيئة التي من شأنها، إذا ما تشبّث

بهـا الإنسان، تكـوين مصدر قـوّة دائمة وعـامل من عـوامل البنـاء والانتاج والإبداع.

على الإنسان في الواقع أن يتساءل عن أسباب الأحداث التي توالت ولا تزال تتوالى عليه وعن أصل العلل التي أضعفته ولا تزال تضعفه وتفكّك وحدته مع الآخرين فتعود به إلى الوراء كما تحول بينه وبين تحقيق ما يبتغي من تقدّم ثابت وانطلاقٍ خيّر متطوِّر. لا يتوافر له كل ذلك إلاّ عن طريق مجابهته للتاريخ مجابهة واعية وموضوعيّة من شأنها تقدير ما هو صالح فيأخذ به، وما هو فاسد فيطرحه جانباً، من الإرث الذي يحمله من الماضي الذي لا يستطيع الانفصال عنه نظراً لأثره البالغ في حياة الأفراد وفي حياة الأمم.

منطلق كل مـا سبق ذكره يعـود للتناقض الهـائل الـذي يعتري الإرث البشري في ما يختص بالميادين التي استكشفها: إرثٌ جبّار في ميادين المعرفة والعلـم إلى جانب إرثٍ هشّ في ميدان إدراك الذات والغيريّة: فما يطلع علينا من تصفّحنا الدقيق لما حمله الماضي يذهلنا بمقدار ما توصّل إليه الدماغ البشري في ميدان القدرة على **التحكّم بالطبيعة** وبالتكوين الفيزيولوجي للإنسان، وهو في الوقت نفسه، يجعلنا نأسف للتأخر الذي لا يزال يعاني منه في ميـدان إدراك الذات **والتحكّم بطبيعة الإنسان** وما يميّزها من أنانيّة وحب للذات... جعل من هذا التراث ناقصاً غير مكتمل...

هذا وغيره من المظاهر البـادية للعيـان في ما يختص بتحكّم الكبـار في الصغار في هذا العالم الحديث الذي يترجرج بتناقضاته: اكتشافات هـائلة في ميادين العلم لم تستطع الكـرة الأرضيّة احتـواءها فـانتقلت إلى عالم الفضـاء تستكمل فيه انطلاقتها الباهرة إلى جانب اكتشاف ضئيل للذات لا تزال الطبيعة النفسيّة هي السائدة، وبالتالي، لا يزال حب الذات هو الممسك بأطراف هذه الاكتشافات المسخّرة، ليس لخدمة البشريّة جمعاء بل، على العكس، للتحكّم بها واستغلالها والسيطرة عليها..، كل ذلك دفعنا إلى استطلاع التاريـخ عبر مختلف مؤرّخيه وذلك بهدف المساهمة في وضع اليد على الجرح الدامي في هذه البشريّة المتألّمة كيما نساعد، ضمن إطار تخصّصنا كعالمة نفس عياديّة، في إيضاح

وبلورة بعض الثوابت constantes والمتغيّرات Variables النفسية ـ التاريخية.

فنحن نجد أن علينا المساهمة، من خلال عملنا ووظيفتنا، في تعزيز الفهم الصحيح ودعم العمل البنّاء، علينا وضع الحجر الذي يخصّنا في «الصرح الإنساني» خاصّةً أن الإنسانيّة تمر في زمن عواصف وثورات والحاجة إلى فهم التأثيرات والتأثّرات المتبادلة ما بين التاريخ والإنسان تغدو، في هذه الأزمنة والأوقات، أبلغ منها في سواها وأثرها يكون أعظم واضخم.

فلربّما ساعد ذلك في إدراك الإنسان ـ وخاصةً الجبابرة الذين يتحكّمون اليوم بمصير الشعوب والأمم ـ لذاته فنساهم، بدورنا، في بلورة الأطر الحقيقيّة التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار في حكم الأفراد على سواهم من أفراد الشعوب والأمم فيتعزّز، عندها، شعورهم الإنساني ويؤدّي إلى ازدياد فرص التفاهم الملائمة لتدعيم التضامن مع الآخرين أكان ذلك بين أفراد الشعب الواحد أم بين أفراد الشعوب المتعدّدة.

لن يتمكّنوا من ذلك، طبعاً، إلاّ إذا فهموا الابعاد التاريخية الكامنة في شخصيّتهم كما في شخصيّة الآخرين.

لذا آثرنا معالجة موضوعنا الأساسي «أثر التاريخ في سيكولوجيّة الفرد» على ضوء معالجة العلاقة القائمة بين التاريخ والفرد التي هي علاقة مميّزة ذات وجهين ينتجان عن أثرين متكاملين ومتفاعلين (أثر التاريخ في الفرد وأثر الفرد في التاريخ) توضح، بحد ذاتها، العامل الأبرز في دراستنا، ألا وهو موضوع: البعد التاريخي وأثره في نمو شخصيّة الفرد وتطوّرها.

تجدر الإشارة هنا إلى ملاحظة هامّة جدّاً تشكّل نقطة الارتكاز في بحثنا الحاضر. تكمن هذا الملاحظة في التذكير بأن «تاريخيّة» الإنسان لا تقتصر على معرفته للماضي وتسجيله له بل تتم، قبل كل شيء، في حقيقته وجوهره كإنسان. بمعنى آخر، إن الإنسان ـ الفرد كائن حيّ وفاعل وبهذه الصفة لا يتأثر بالواقع فحسب بل يؤثر فيه؛ فهو لا يكتفي بأن يكون نتيجة التاريخ وعبده

الخاضع له، بل يطمح لأن يكون سببا فاعلاً فيه أي أنّه يطمح لصنع التاريخ، على الأقل، تاريخه الخاص به.

وبالواقع، إن اهتمام الإنسان وقلقه وفكره وتطلّعه إلى المستقبل ليدفعه إلى الإحساس بأنّه يقف وسط مجرى الحياة المتدفقه: فهو مدفوع ودافع، مُوجَّه وموجِّه، هو ابن التاريخ وأبو التاريخ في وقتٍ واحد وتاريخيّته تتضمّن هذين المعنيين: هناك تفاعل وتأثير متبادلان بينه وبين التاريخ، فكلّما ارتفع في مراتب الإنسانية ارتقت نظرته التاريخية وغزُر فعله التاريخي، كذلك، كلما كان وعيه للماضي أصفى ومجابهته له أصدق وأعمق، اغتنى كيانه الإنساني وغدا أقدر على الإنتاج والإبداع[1].

من هنا يُفهم سبب تركيز بحثنا على نقاط رئيسية ثلاث: أثر التاريخ في الفرد، أثر الفرد في التاريخ والبعد التاريخي في شخصيّة الفرد.

---

(١) قسطنطين زريق، نحن والتاريخ (مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصُنع التاريخ)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤، ص ٢١-٢٢.

الفَصْـل الأوّل

أثر التاريخ في الفرد

يُمكن تلخيص هذا الأثر بالتساؤل الذي يطرحه المؤرّخ على نفسه: ابن من أنا؟ وما التراث الذي يفعل في فكري وعملي وحياتي؟

في الواقع، يتجلّى أثر التاريخ في الفرد (أو الأمّة) عبر مظاهر متعدّدة لا حصر لها نظراً لكونه يرافقه (أي الفرد) منذ ما قبل ولادته عبر الإرث الذي يحمله من الماضي وحتّى ما بعد مماته عبر الأثر الذي يتركه في سير المجتمع وتطوّره. . . لذا سنركّز على أهم هذه المظاهر التي تمكّننا، بشكلٍ خاص، من دراسة المفاهيم المتعدّدة والفعّالة في تكوين التاريخ. أهم هذه المظاهر هي:

ـ البيئة الطبيعيّة (الجغرافيّة) والوراثة نظراً للثوابت الناتجة عن أثرهما في تكوين التاريخ. يقودنا ذلك إلى البحث في الطبائع البشريّة: الثابتة عبر العصور، والمكتسبة أي المتبدلة والمتغيّرة عند الإنسان.

ـ تركيب البنية الاجتماعيّة structure sociale ومفاهيم الجماعات وسلوكها الاجتماعي وأثرها في تكوين الفرد وقدرته على التأقلم الاجتماعي adaptation sociale؛ كذلك، ذهنيّة الفرد المرتبطة، بمقدار كبير، بذهنيّة المجتمع الذي ينتمي إليه والناتجة عن التراكم التاريخي للأفكار والعادات والتقاليد.

ـ أهمّية التاريخ في تكوين جوهر الإنسان وثقافته (فرداً ومجموعاً) ومساعدته على التحرّر.

ـ أهمّية التاريخ في صنع جبابرة ينتمون لمختلف الميادين (العسكرية والسياسية والفنيّة والاجتماعية. . .) من حيث بناء أمجادهم.

يتجلّى أثر التاريخ في كل مظهر من مظاهر الحضارة الإنسانيّة (التي تشكّل الحضارة الفرديّة حلقة من حلقاتها المترابطة: في الحياة السياسيّة وفي الحياة

النفسية والاجتماعية والعقليّة (علميّةً كانت أم ادبيّة أم فنيّة...) كما في الحياة الخلقية... فبفضله تتبلور قابليّات وقدرات الفرد التي تمكّنه من سلوك سبيل التقدّم في مراحل حياته المتتابعة.

باختصار، يمكن القول بأن أثر التاريخ يتجلّى عبر حياة الفرد المتكاملة: إنّه قبل كل شيء تاريخ فردٍ أو أمةٍ أو شعب معيّن «لا تاريخ بلا إنسان». وهو أداة تحرير تساعد الفرد على التحرّر من الوهم... ورفع مستواه -الذاتي والكياني، الذي يساعده على إدراك ذاته والتحرّر من أنانيته ونرجسيّته فيستطيع، بالتالي، التوجّه نحو الغيريّةautrui أي نحو حب الغير والإتجاه في الطريق التي تؤدّي إلى التضامن والتعاضد مع الآخرين... يتم كل ذلك بفضل توسيع التاريخ لاختبار الفرد وتعميقه له.

البيئة الطبيعيّة (الجغرافيّة): عامل جوهري في تاريخ الشعب

١ ـ الطبائع الثابتة:

يجتمع علماء البيولوجيا اليوم على القول بأن «كل كائن حيّ (إنسان أو حيوان أو نبات) هو وليد عنصرين أساسيّين: التراث الإرثي والبيئة الطبيعيّة». فالبيئة الطبيعيّة تؤثّر بلا انقطاع في مختلف مراحل حياة الكائن الحي منذ ولادته حتّى مماته ليس فقط بيولوجيّاً وفيزيولوجيّاً بل نفسيّاً.

من هنا عدم الحاجة إلى تأكيد وجود وأهميّة دور البيئة الفعّال في نمو الكائن الحيّ عامة والكائن البشري خاصّةً: فللمناخ والأرض والتربة والأغذية التي يتفاعل بعضها مع بعض أثر فيزيائي ـ نفساني مباشر في طبيعة الإنسان.

كما أن طريقة الحياة التي تفرضها البيئة الجغرافية: من موقع جغرافي يساعد الجماعات البشرية على التحرّك والانتقال، إلى موقعٍ يقف، على العكس من ذلك، حائلاً دون تلاقي الجماعات البشريّة وتواصلها، تؤثّر في تكوين الطبائع البشريّة من حيث قدرتها على «طبع ملامح الوجه بطبائع تميّز الأجناس البشريّة والأقوام والشعوب... وميزة المنظر الطبيعي تصهر روح الشعوب. فهو

الذي يصنع خصائصها القوميّة الثابتة»[1] وذلك تبعاً لأسباب عامة أظهر التاريخ بأنّها تؤثّر في تطوّر المجتمعات البشريّة. ويمكن تلخيصها بالعناصر التالية: البيئة الطبيعيّة، الطبائع الاثنيّة، الثقافة العقلية ومقتضيات الصراع من أجل الوجود.

فالبيئة الطبيعية كالمناخ وطبيعة الأرض ونوع الغذاء والموقع الجغرافي، هي عامل جوهري في تكوين الأحداث التاريخيّة وتطوّرها ممّا ينعكس على تكوين الطبائع الإنسانية بمعنى أن اختلاف الطبائع بين الشعوب ناتج، بالدرجة الأولى، عن اختلاف العوامل الجغرافية بين بلدانها:

أ ـ المناخ:

للمناخ تأثير فعّال في تعزيز نشاط الإنسان أو إضعافه: فالبرد مثلاً ينميّ النشاط والاستعداد للعمل والميل إلى الاستقلال..، أمّا الحرّ فيساعد على الكسل وإثارة الأهواء النفسيّة العنيفة...

كذلك يمكن القول بأن طبيعة الأرض تؤثّر في غذاء الإنسان وفي إنتاج الثروات وتوزيعها، وبالتالي، في تكوين طبقات المجتمع والمؤسّسات السياسيّة.

أمّا الموقع الجغرافي لمنطقه معيّنة فيحدّد إطار نشاط الشعب الذي يقيم فيها كما يرسم توجّهه واتجاهه[2].

وهكذا تتميّز الأجناس البشريّة والمجتمعات الكبيرة بعضها عن بعض بعددٍ من الطبائع التي تنقلها الوراثة إلى أفراد المجموعة الواحدة وذلك بتأثير البيئة الطبيعيّة والثقافة العقلية ومقتضيات الصراع من أجل الوجود... ولقد قال نابوليون «إن سياسة الدّول هي في جغرافيّتها».

ثم إن الطبائع النفسانية الثابتة أو الفطريّة، وهي صنيعة الوراثة والبيئة الطبيعيّة، هي التي تميّز الشعوب وتحرّك تطوّراتها التاريخية لا اللغة ولا الدين ولا

---

(1) W.Schubart, *L'Europe et l'âme de l'orient*, P.13.

(2) Ch et V. Mortet, *Histoire*, La Gr. Encycl. T.20, P.145.

الشرائع أو القوانين التي يفرضها الحكّام (ج. بولس، «التحولات الكبيرة...» سبق ذكره، ص ٢٢).

يقـول بول ڤاليري P.Valéry بهذا الصدد: «إن الشعب الفرنسي، سواء نـظرنا إلى تكـوينه الإثني أو النفسـاني، هو الصنيعـة القديمـة العهـد لمعـطى جغرافي»(١). ويقول المؤرّخ الفرنسي ش. سينيوباس Ch. Seignobas: «الأمّة الفرنسيّة تأثّرت بطبيعة أرض البلد الذي تكوّنت فيه، وهذه الطبيعة هي التي حددت نوع معيشة السكّان كما أنها تأثـرت بموقـع البلد الجغرافي الـذي أقرّ علاقات شعبه بالشعوب الأخرى».

بالمقابل، يمكن القول إن الشعوب العربية، برغم انتمائها إلى لغة واحدة وديانة واحدة يتميّز بعضها عن بعض، وهذا التميّز ناتج عن اختلاف الطبائع الاثنية التي كوّنتها العوامل الجغرافية المختلفة والخاصّة ببلدانها. يمكن وصف الطبائع الإرثيّة أو الفطريّة والثابتة مثل: قوة الشكيمة، النشاط، الشجـاعة، الكرم، الأهواء...، بكونها طبائع اثنية أو عرقية أو قوميّة تطبع الشعب بطابع خاص وتقود تطوّره وتميّزه عن سائر الشعوب (ج. بولس، سبق ذكـره، ص ٢٢).

يُمكن إدراج آراء ابن المقفّع والفارابي والمسعـودي وابن خلدون ضمن الإطار نفسه: فابن المقفّع، في حديثه عن العرب، يتحدّث عن سجاياهم وأثر البيئة الطبيعية في طبائعهم وإن ركّـز على دور اللغـة وما تتميّـز به؛ كـذلك، للفارابي اتجاه مماثل: فهو يرى أن مقوّمات الأمّة تكمن في تشابه الخلق والشيم الطبيعية؛ تعود الشيم الطبيعية، بنظره، لأثر البيئة الطبيعية والموقع الجغـرافي (والفلكي) ومـا يتصل بـذلك من مميّـزات في الهواء والحيـاة وأنـواع النبـات والحيوان، ومن الواضح أن اللغة واللسان هما من صنع الإنسان أما السمات الطبيعية فهي نسبية.

أما المسعودي فقد لاحظ أهميّة العوامل الجغرافية في التـاريخ بمعنى أن

(1) Paul Valéry, *Regards sur le monde actuel*, p.120.

السمات الطبيعية والإمكانات الفكرية تتأثّر بالأوضاع الجغرافية والظروف المناخية: إنه يرى أن الأمم الرئيسية في التاريخ تتميّز بمقوّمات ثلاث: الشيم (الطبيعية) والخلق (الطبيعي) واللسان، إنما يبقى للبيئة الجغرافية، بنظره، الدور الرئيسي بالنسبة للميزتين الأوليين.

ينطبق هذا القول، نسبيّاً، على نظرة ابن خلدون الذي يرى أن هناك أكثر من عامل لتحديد أساس الأمة لكن يبقى أثر البيئة الطبيعية مهمّاً جدّاً نظراً لقدرته على تحديد: نوع المعاش والوان البشر وسماتهم وأخلاقهم...؛ لا بل يمتد أثر البيئة، بنظره، إلى أحوالهم الدينية...[1].

يُستنتج ممّا سبق قوله، من وجهه عامّة ومن زاوية التاريخ، أن ما يميّز شعباً أو أمةً عن غيرها ويُساهم في إعطائها شخصيّة جماعيّة خاصّة ووحدة عضويّة اجتماعيّة وقوميّة هو اتّحاد هذا الشعب الوثيق بالبيئة الجغرافيّة التي يعيش فيها.

بهذا المعنى تُفهَم «الأمة الجغرافية» أو التاريخيّة بطبائعها الأساسيّة الخاصّة بها كونها تلك الفرديّة الذاتيّة المؤلفة من بيئة جغرافيّة ومن مجموعة بشريّة مستقرة ومتجانسة إلى حدّ ما بحيث تؤلّف وحدة نفسانية حقيقيّة؛ من هنا يُفهم الفارق الكبير بين البيت الذي يقيم فيه الفرد والذي هو مجرّد مأوى، وأرض الوطن التي لا تشكّل فقط إطاراً يعيش فيه الشعب وتمارس فيه الدولة سيادتها بل تشكّل أيضاً، قالباً تتقولب فيه الطبائع المميِّزة للشعب الذي يعيش في هذا الوطن.

فالتجمّعات البشريّة، شأنها شأن الأفراد، هي حصيلة الوراثة والبيئة الجغرافيّة، أمّا العرق الخالص فهو مجرّد مفهوم نظري واعتباطي غير موجود في الواقع إذ أن ضرورة تنقّل الإنسان واختلاطه مع غيره منذ عصور ما قبل التاريخ قضت على نقاء الأعراق الأولى. ليس هناك سوى مزيجٌ ثابت من أجناس وأعراق مختلفة أدّى اختلاطها إلى تكوين مجموعات جديدة تقولب

---

(١) عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية، والوعي))، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٤، ص ١٠٥.

بعضها مع بعض، عبر العصور، بفعل البيئة الجغرافيّة التي تمركزت فيها. . ؛ فعن إتّحاد الإنسان بالأرض يتولّـد الأفراد ومختلف الفئـات الاجتماعيّـة الذين يحملون دائماً سمة أصول المناطق الاثنية والجغرافيّة.

أمّا دور الوراثة (سنفرد لهـا، لاحقاً، مكـاناً خـاصّاً) والبيئـة في صنع المجتمعات البشريّة فيختلف باختلاف وتيرة تنقلاتها المتعدّدة واختلاطها المتكرّر، لكن، يمكن القول إن تأثير البيئة الجغرافية، إذا مـا أخذنـاه في حقبة زمنيّـة طويلة، يبقى الأقوى بسبب طابعه الثابت نسبيّاً (سنتكلّم فيها بعد عن النسبيّة وأهميتها التاريخيّة). نأخذ مثالاً على ذلك الأرض الأميركيّة التي تـدفقت إليها أعراقٌ متنوّعة تنوّعاً كبيراً (من فرنسيين وانكليز واسبان و. . . هاجروا جماعاتٍ في الماضي، إلى كندا وأميركا الشمالية وأميركا الجنوبية)، تمكّنت هذه الأرض من تحويل هذا المزيج من الأعراق إلى نوعٍ جديد يختلف اختلافاً بيّناً عن الشعوب التي تحدّر منها (شوبارSchubert سبق ذكره، ص ١٤ ـ ١٥). فبرغم احتفاظها بلغة البلدان الأصليّة وديانتهم، فإن هذه الأمم الجغرافيّة المختلفة، في القارّة الأميركية، هي، من وجهة التاريخ والسياسة، متميّزة بـوضوح الـواحدة عن سواها كما هي متميّزة عن الأمم الأوروبية التي منها تحدّر المهاجرون.

وفي بلدان الشرق الأدنى نلحظ التطوّر نفسه في الهجرة والتغيير والتبديل الإثني وقد تكرّر مرّاتٍ عديدة خلال الأزمنة الماضية.

وإذا ما نظرنا إلى التوزيـع العام لـلأعراق المختلفـة التي تؤلّف الجنس البشري اليوم، رأينا أنّه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجغرافيا الحاليّة[1].

ثم إن البوتقة التي تنتج عن تأثير البيئة الطبيعيّة أمرٌ يُقرّ به علم الآثار القديمة ويؤكّده «فالهياكل البشريّة التي اكتشفت في افريقيا تشبه إلى حدّ بعيد سكّان الشرق الافريقي الحاليين الذين ينتمون إلى العرق الحبشي. . . ؛ كما أن العرق الاوسترالي الذي يعود إلى زمنٍ بعيد يحمل ملامح الاوستراليين الأصليّين الحاليّين إلى حدّ كبير. . .

(1) E.Cavaignac, *Histoire du monde*, prolémogènes, p. 277.

وفي اميركا الشمالية لم يُستخرَج أي هيكل بشري يختلف في شكله عن السكّان الأصليين قبل غزو القارّة الأميركيّة. . . ، وكذلك الأشكال البشرية في منحوتات الأبنية المصريّة القديمة أو الآشورية ورسومها يعطي انطباعاً دقيقاً عن الشكل العام للشعوب التي عاشت في تلك البقاع في الحقب القديمة، هذا الشكل الذي مازلنا نجد له شبهاً بعيداً لدى السكّان الحاليّين(1).

ومن جهة أخرى، نعرف أن مجموعات بشريّة انتقلت إلى بيئات جديدة ما لبثت أن تغيّرت، تدريجياً، حتى اصبحت نسخة عن سكّان هذه البيئات الأصليين وهذا ما ينطبق على الطوارق في أفريقيا الشمالية إذ يُعتقد أنّهم جاؤوا من الشمال واستوطنوا فيها. وكذلك الأتراك الذين توافدوا من بلاد المغول واستوطنوا الأناضول منذ قرون، فهم يمثّلون الحثّيين أكثر ممّا يمثلون أجدادهم الآسيويين الشرقيين. أمّا آريو الهند الذين تغيّروا منذ زمن بعيد بفعل المناخ وتأقلموا مع السكّان الأصليّين، فلم تعد لهم تلك الملامح الجسديّة والطبائع النفسيّة التي اتّصف بها العرق الشمالي الذي تحدّروا منه.

إلى جانب ذلك، هناك بعض المتحدّرين من تمازج أعراق مختلفة بفعل الاختلاط والذين تركّزوا منذ عهد بعيد، ما زالوا يتمتّعون بطبائع أقرب إلى طبائع العناصر البشريّة التي تحدّروا منها. إلاّ أنّ هذا الثبات في العرق هو، في حقيقته، ظاهري ونسبي لأن قصر الحياة البشريّة يحجب التغيّرات والتحوّلات البطيئة التي تخلّفها العصور. فما الأشكال الحالية سوى مرحلة محدّدة من مراحل تطوّرها نحو الشكل النهائي الذي تحدّده البيئة. ينطبق القول نفسه على بعض الصفات الجسديّة مثل لون البشرة الذي يتحوّل ببطء كبير(2).

إنطلاقاً من هذه القاعدة يمكن التحدّث عن شعب متجانس أي شعب ناتج عن تأثير بيئة طبيعيّة متجانسة وبقعة تسمّى طبيعيّة. والتجانس الجغرافي يفضي، مع مرّ الزمن، إلى تجانس اثني وثقافي حقيقي.

---

(1) P.Lester et J.Millot, *Les Races Humaines*, p.64, 67 et 69.

(2) جواد بولس، الأسس الحقيقيّة للبنان المعاصر، مؤسّسة جواد بولس، لبنان، ص ٣١.

تجدر الإشارة هنا للتمييز بين نوعين من المناطق: المناطق الجغرافية (الطبيعية) والمناطق التاريخيّة.

فالمناطق الجغرافية (أبسط البلدان مثلاً) هي وحدات متفاوتة من حيث المساحة لكن أجزاءها تتميّز بعدد من الملامح ذاتها أو الشبيهة بها: جيولوجيّاً، توبوغرافياً أو مناخياً تميل هذه المناطق، بمجملها، إلى أن تكون متجانسة، لذا فهي تُعتبر وحدات طبيعية(1).

لكل وحدة جغرافية طبيعيّة نفسانيّة خاصّة بها تنبع من تكوينها الجغرافي ومن تطوّرها التاريخي وكما يقول كيسرلنج، إذا كانت البيئة الجغرافيّة تتعاون مع الجماعات البشريّة المختلفة في تكوين شعبٍ يحمل طابعاً معيّناً فإن العناصر الأساسية التي تطبع هذا الشعب وتميّزه عن غيره مؤلفة من الطبائع النفسانية التي، هي بدورها، وليدة الوراثة والبيئة الطبيعيّة. فهذه الطبائع النفسانية وهي، مبدئياً، ثابتة ودائمة، تطبع بطبائعها المجموعات الاثنيّة وهي «المحرّك» الرئيسي لنشاطاتها. إن النظريّة الأساسيّة للنفسانيّة التاريخيّة عند غوستاف لوبون والتي تعتبر الشعوب محكومة بطبائعها وليس بمؤسّساتها، تعبّر عن حقيقة أساسية عالميّة شاملة(2).

ولقد تكوّنت المناطق الجغرافية، أصلاً، من ميل الإنسان، منذ عصور ما قبل التاريخ، إلى تأليف مجموعات اجتماعية مستقرّة نوعاً ما في مناطق طبيعيّة وذلك بحكم كونه مخلوقاً اجتماعيّاً.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار درجة التطوّر الاجتماعي لهذه المجموعات وتنظيمها السياسي و. . .، نجدها: عشائر، قبائل، مدن، شعوب وأمم وقد جعلتها الملامح الوراثية التقليديّة والبيئية، فضلاً عن الحاجات الضرورية المتشابهة، متجانسة كل التجانس. إن مجتمعات ضيّقة تتكوّن وتنتظم فعلاً فيما تميل مؤسّساتها وتفضي، على نطاقٍ واسع، إلى تحسين وسائل عيشها(3).

---

(1) H.De Keyserling, *Journal de voyage d'un philosophe.* II, p. 103.

(2) H.Berr, *En marge de l'histoire*, p. 80.

(3) Brunhes, *La géographie humaine*, Ed. abrégée. p.262.

الأمّة الجغرافية هي، إذاً، مزيج بشري مركّز، يؤلّف وحدة نفسانية حقيقيّة. لذا يمكن القول إن الأجناس البشريّة، الغريب بعضها عن بعض، إذا عاشت طويلاً في أرضٍ واحدة تنتهي بالاختلاط بينها أجناس متجانسة متقاربة تصبح مختلفة إذا ما عاشت في أراضٍ مختلفة (شوبار، سبق ذكره، ص ١٣).

لكن، إذا تجمّعت بضع مناطق طبيعيّة وهي متناقضة لا تجانس بينها في وحدة إداريّة وسياسيّة فإنّها تؤلّف منطقة تاريخية.

المناطق التاريخية: هي، على عكس المناطق الجغرافيّة، مؤلّفة من عدّة مناطق جغرافيّة مبعثرة وغير متجانسة حكماً؛ وإذا ما تكوّنت فيها وحدات سياسيّة فبفضل إرادات بشريّة (برون Brunhesسبق ذكره، ص ٢٦٢)، وأحياناً كثيرة بنتيجة الضغط وممارسة القوّة.

إذا كانت الوحدة السياسية «للمنطقة التاريخيّة» وحدة مقبولة، فإن البلد الذي يمثّلها يكون، بحسب الظروف، بلداً موحّداً (كمصر وإيطاليا وفرنسا والعراق. . .) أو بلداً اتّحادياً (كالولايات المتّحدة الأميركيّة وسويسرا وكندا و. . .). لكن، على العكس من ذلك، إذا لم تتحول الوحدة المفروضة بالقوّة لصالح أمة أو بلد إلى وحدة مقبولة، فإن التكوين التاريخي (أو لنقل الامبراطورية) الذي ينشأ عنها يبقى عرضةً للزوال عندما تزول القوّة التي فرضت اتّحادها؛ الأمثلة التي يقدّمها التاريخ، القديم والحديث، اكثر من أن تُحصى نذكر منها على سبيل المثال الامبراطوريّات: الآشورية والفارسية والكلدانية والفينيقية واليونانية والرومانية والبيزنطية والعربية والعثمانية والنمساوية ـ الهنغارية. . .، فانهيار هذه الدول الكبيرة وبالتالي تفكّكها كان إشارة لتفرّق الشعوب المختلفة التي اكتنفتها الامبراطوريات زمناً طويلاً: عندما انهارت أسرة هبسبورغ في النمسا انشطرت الامبراطورية إلى عدّة بلدان أهمّها البلدان المنخفضة pays bas التي لم تقبل أبداً بما فُرِض عليها: وفي آسيا، انشطرت الامبراطورية الهندية المتحرّرة من الوصاية البريطانية إلى دولتين حديثتين: الهند وباكستان بعد قرون من العيش المشترك، كذلك، في الشرق الأدنى ولدى انهيار الامبراطورية العثمانية العام ١٩١٨، كان التركي واليوناني

والأرمني والكردي والإيراني والسوري واللبناني والمصري... ما يزالون مميّزين تماماً بعضهم عن بعض كما كانوا يوم وقوعهم تحت الاحتلال قبل اربعة قرون. ظاهرة الانفصال لا تزال تتكرّر في عدد من بلدان العالم...

تفسير ذلك يعود أساساً لكون الاتّحادات السياسية أو التاريخية لا تلد دوماً وحدات عضوية قابلة للحياة، إذ أن تجمّعات اجتماعية مختلفة تبقى مميّزة بعضها عن بعض عندما تُجمَع بالقوّة وعندما لا تحلّ المصلحة والإرادة المشتركة محل الضغط والإكراه.

هناك نوعٌ آخر من المناطق يُدعى: الحضارة الاقليمية أو **الوحدة الثقافية**، تنتج عن تمتّع عدد من المناطق الطبيعيّة بصفات طبيعية عامّة ومتشابهة وبتكامل اقتصادي دون أن تكون مجتمعةً في وحدة سياسيّة؛ إن وحدتها المناخية والاقتصادية تؤدّي، غالباً، إلى وحدة روحية وثقافية «ومجتمع» و«حضارة». تشكّل هذه التجمّعات الجغرافيّة ما اصطلح على تسميته بـ «عالم» مثل: اوروبا الغربية، عالم البحر المتوسط، الشرق العربي،...

لكن يجب التمييز بين البلدان الحضارية والبلدان الاجتماعية. فـ «مجتمع الحضارة» لا يعني بالضرورة وحدة سياسية ولا حتّى تنظيماً اجتماعياً محدّداً...» (برّ Berr سبق ذكره، ص ٧٩).

ينتج عن ذلك أن الوحدة السياسية والاجتماعية الأكثر تجانساً ومتانةً ودواماً هي «الأمة الجغرافية» باعتبارها وحدة عضويّة تكوّنها المنطقة الطبيعية مع مرور الزمن.

خلاصة ما سبق ذكره حول أثر الجغرافيا كعامل جوهري في تكوين التاريخ يمكن اختصاره بالقول بوجود طبائع بشريّة غريزيّة نفسانية هي وراثية وثابته تشكّل أساساً لهويّة الأمم وشخصيّتها عبر العصور يتم ذلك بمعزل عن الطبائع المكتسبة والخارجية التي هي ثانوية ومتغيّرة تتشكّل نتيجة لأثر: اللغة والدين والعرق والثقافة... التي هي قابلة للتطوّر والتغيّر (سندرس، لاحقاً، هذه المعطيات وأثرها في تكوين التاريخ).

لذا قيل: «إن السياسة هي بنت التاريخ والتاريخ هو ابن الجغرافيا والجغرافيا لا تتغيّر في الزمن المنظور إلاّ نسبّياً» (جواد بولس، التحولات الكبيرة في. . .، سبق ذكره، ص ٤٠٢).

قلنا، أعلاه، إن كل كائن حيّ هو، في الأساس، وليد عنصرين: البيئة الطبيعيّة (الجغرافية) والتراث الإرثي. فما الوراثة؟ ما مقوّماتها؟ وما دورها في صنع التاريخ؟. . .

ب ـ الوراثة:

لقد أصبح من المألوف لدى الكلام عن الوراثة الإنسانية ذكر هذا المقطع من محاولات مونتانيه Les Essais, Montaigne (المجلّد الثاني): «أي شيء رهيب هي تلك القطرة من البذار التي خرجنا منها وتحمل في داخلها لا انطباعات الشكل الجسماني لآبائنا وحسب بل انطباعات افكارهم وميولهم. أين تخبّىء هذه القطره من الماء هذا العدد الذي لا يُحصى من الأشكال وكيف تحمل أوجه الشبه هذه المدهشة في جرأتها وعدم انتظامها بحيث يشبه الحفيد جدّه وابن الأخ عمّه؟. . .»

هذا المقطع الذي يعود إلى اكثر من أربعة قرون والذي لا يزال يسترعي الإنتباه من جميع نواحيه، لا يطرح مسألة الوراثة الجسديّة فحسب بل، أيضاً، مسألة الوراثة النفسيّة. فنحن، بالرغم من التقدّم الهائل الذي أحرزه العلم اليوم، لا نزال نعجب كيف أن الجرثومة الصغيرة التي يخرج منها الكائن الإنساني تحمل في طيّاتها هذا الإرث الجسدي والنفسي الكبير:

نحن نعلم أن الكائن البشري يخرج من خليّة تشكّل صلة الوصل الوحيدة بين الأجيال ويتعاون في تكوينها مصدران مختلفان: خليّة (بويضة) تصدر عن الأم وأخرى (نطفة) تصدر عن الأب. . .؛ لن نعالج هنا تفاصيل تركيب بنية هذه الخليّة وكل ما ينتج عنها إذ يخرج ذلك عن إطار بحثنا، لذا نعيد القارىء إلى المصادر المتخصّصة بهذا المجال. لكنّنا سنركّز على ما يعنينا في

هذا المضمار أي على موضوع الملامح والصفات المكوّنه للتراث الإرثي ذي الأثر الفعّال في خلق هويّة الأفراد والأمم وتكوين شخصيّتها عبر العصور؛ بمعنى آخر، سنتوقّف فقط عند مفهوم «الحتميّة الوراثية» التي يتخذها بعض المؤرّخين كتعليل موحّد وجوهري في تكوين الطبائع البشريّة.

يخضع مفهوم الوراثة، بشكلٍ عام، لقانون الوراثة «النوعيّة» و «العرقية» بمعنى أن الإنسان لا يلد إلاّ إنساناً؛ الزنجي يلد زنجيّاً بينما يلد الأبيض ولداً ابيض. إنّما ليست الوراثة نوعية أو عرقيّه فحسب بل فردية أيضاً بمعنى أنها تتناول بعض الصفات وبعض الملامح الخاصّة ببعض الأفراد إذ لا نجد أنفسنا أبداً أمام قواعد مطلقة تخضع لها الوراثة الفرديّة كما هي الحال في الوراثة النوعيّة أو العرقيّة: «لا يكمن بالقوّة en puissance في بيضة إنسانية كائنٌ إنساني وحسب بل يكمن فيها أيضاً كائن إنساني معيّن»(1) اتّخذ، منذ تكوينه، ملامح وصفات تكوّن شخصيّته وفرديّته المستقبليّتين.

من هنا، نستطيع القول إن الكائن لا يوجد في الجرثومة إلاّ في حالة «القوّة». . . إذ تتدخّل، خلال مدّة التكوين (أو مدّة النمو) التي تمتد بين مرحلة الامكانات الجرثوميّة والمرحلة التي يتم فيها تكوّن الصفات الجسديّة، عوامل خارجيّة (البيئية) فتؤثّر قليلاً أو كثيراً في تكوين الفرد. وفي حال الكائن الإنساني، تتكوّن البيئة، في الدرجة الأولى، من بيئة الأم التي ينمو فيها الجنين ثم من البيئة الخارجيّة (الطبيعية ـ الجغرافية والاجتماعيّة) بعد الولادة.

تجدر الإشارة إلى أن الدور الذي تقوم به البيئة بـ «تفعيل» الصفات يختلف اختلافاً كلّياً بالنسبة إلى الملامح والصفات البشريّة: فهي تبدو شبه عاجزة عن التأثير في بعض الحالات مثل لون العينين و. . . إذ تظهر الوراثة محدَّدة تحديداً دقيقاً في هذا المجال؛ لكنّها (أي البيئة الداخلية والخارجيّة) تؤثّر في حالاتٍ أخرى تأثيراً لا يُستهان به: فلون الجلد يتأثّر بالأشعّة الشمسيّة والمناخ

---

(1) Jean Rostand, *L'hérédité humaine* (الوراثة الانسانية) , Que Sais-je? ترجمة الدكتور خليل الجر، المنشورات العربيّة، ص ١٠.

الذي يعيش فيه الإنسان. وطول القامة أو قصرها لا يتعلّق بالعوامل الوراثيّة وحدها بل بكميّة ونوعيّة الأغذية التي يتلقّاها الفرد في حداثته وخلال نمـوّه، وكذلك بالهرمونات التي تفرزها الغدّة الدرقية والغدّة النخاعية وبالأمراض التي تصيب إفراز الهرمونات (ذات الإفراز الداخلي منها بشكلٍ خاص)... (جان روستان، سبق ذكره، ص ١٥).

وإذا انتقلنا من الناحية المادّية إلى الناحية العقليّة أو الخلقية التي لا يتم تكوينها إلاّ ببطءٍ شديد وتحت تأثيرٍ مستمر لعوامل متعدّدة نذكر أهمّها: العوامل التربويّة والاجتماعية... يصبح لدور البيئة أهميّة تفوق بكثير تلك التي ذكرناها بالنسبة للناحية المادّية من الجسم.

لهذا نجد أن طرح مسألة تأثير الوراثة والبيئة عن طريق المقارنة هو طرحٌ خاطىء أصلاً نظراً لما للعـاملين من تأثـير فعّال في تكـوين الكائن البشري: فالاثنان يساهمان اسهاماً جوهرياً في نمو الفرد كما أنهما يتعـاونان تعـاوناً وثيقـاً ويتداخلان لدرجة أنّه يصعب التمييز بين ما يعود لهذا العامل أو لذاك من أثر في خلق نموّه وتكوين شخصيّته الفريده خاصّةً وأن تمايز أي كائن بشري عن الآخر يعود لاختلاف أصلها الجرثومي وتطوّرهما الفردي إذ ينشأ كل إنسان من بويضة خاصّة كما أنّه ينمو في بيئة خاصّة، فـأفراد البشر يختلفـون من حيث تـاريخهم كما يختلفـون من حيث أصلهم. ينطبق هـذا القول، وإن بـدرجـة منخفضة جدّاً، عـلى التوائم الحقيقيّـة التي تتمتع بـوراثة واحـدة إذ أظهرت الدراسات المتعدّدة التي حُقِّقت في هذا المجال وجود فروق بين هـذه التوائم تتراوح ما بين العشرة والخمسة عشر بالمئة، فالتشابه لم يبلغ أبداً حدود المئة بالمئة (١٠٠٪)، أضف إلى ذلك ازدياد هذه الفروق لـدى عيش التوائم في بيئتـين مختلفتين...

مهما يكن من أمر تأثير الوراثة والبيئة فإنّهما تبقيان غير كافيتين لتفسـير طبيعة السلوك الإنساني بكل ابعاده، لذا ترك عددٌ كبير من المفكـرين المجال لعاملٍ مجهول في تفسيرها وفي تفسير الفروق الإنسانية التي لا تنجم عن البيئة أو عن الوراثة.

تظهر الصعوبة الكبرى في تمييز ما يعود لدور الوراثة وما يعود لدور البيئة خصوصاً على مستوى الوراثة النفسيّة: لا شك في أن هناك فوارق وراثية في المواهب (وجود بعض الأسر الموهوبة بمجالات الموسيقى والرياضة والأدب و. . . ينطق بهذا المعنى)، إنّما إعادة المواهب للوراثة أمرٌ يحمل لاتخاذ الكثير من الحيطة والحذر قبل البتّ به نظراً لكون التطوّر العقلي يخضع للتطوّر العاطفي الذي قد ينشط أو يتأخّر وفاقاً للظروف المحيطية والتربويّة ولحوادث الطفولة ولغيرها من العوامل التي لا يُمكن التكهّن بحدوثها مُسبقاً.

لكن تجدر الإشارة إلى التمييز بين مختلف الاستعدادات والميول النفسيّة نظراً لكون بعضها يبدو وراثياً إلى حدّ ما (كالسلوك الإجرامي. .) وإن كان لظروف البيئتين: العائليّة والاجتماعية نصيبٌ كبير في خفض درجة ظهورها أو رفعها. . .، بينما يبدو بعضها الآخر غير وراثي: كالخجل والغيرة و. . .).

أمّا في ما يختص بوراثة العاهات، فلقد أثبت العلم أن عدداً كبيراً من الأمراض وحالات الشذوذ التي تصيب الإنسان ينتقل إليه عن طريق الوراثة. نحن نعلم اليوم بأن الزواج بين الأقارب لا يؤدّي إلى عواقب وخيمة فقط لأنّه يزيد في احتمال التقاء المورّثات gènes الرديئة. ولو كانت المورّثات جميعها من الصنف الجيّد لأصبح من الممكن انتقالها بدون ضرر في السّلالة الواحدة. . .؛ لكن لعلم الوراثة الطبيّ أهميّةٌ كبرى من الناحية العمليّة إذ يؤمّن للطبيب معلومات قيّمة تمكّنه، في أحيانٍ كثيرة، من توجيه التشخيص diagnostic ومن تطبيق العلاج المناسب نظراً لكون عددٍ كبير من الأمراض الوراثية (كالسكرّي وفقر الدم و. . .) قابل للشفاء عن طريق المعالجة.

ينبغي التذكير هنا بظاهرة عامّة في الكائنات الحيّة تكمن في التحوّل، أي تحوّل مورّثة إلى مورّثة أخرى قد تُحدِث امراضاً وعاهات كالمنغوليّة التي تنجم عن وجود صبغيّة chromosome زائدة في الخلايا. . .، وأعراض تورنر التي تتميّز بمظهر طفلي وانثوي مع توقّف مبكر في نمو المبيض ناجم عن فقد صبغيّة تناسليّة. . . : كل شذوذ وكل تحوّل في الصبغيّات يحدث نتيجة حوادث تعرض خلال انقسامها، كما يمكن أن يُحدث استعمال العوامل الفيزيائية (كالأشعّة) أو

الكيميائيّة (كالفينول) بعض التحوّلات أو يزيد في كثرتها (أي كثرة الصبغيّات وتجاوزها العدد المحدّد في تكوين الكائن البشري).

قد يحدث، أيضاً، ظهور فجائي لصفة لم تكن موجودة (كظهور فجائي لشعر متجعّد في أسرة اوروبيّة...).

قد يحدث كل ذلك حتّى وإن كانت المادّة الوراثية ثابتة عادةً دون أن يكون بالإمكان معرفة سبب هذا التحوّل فتصبح هذه المورّثة ثابتة كالمورّثات الأصليّة، منذ ظهورها.

ينطبق هذا القول على الجهاز العصبي (الذي يشتمل على الدماغ ذي الوظائف والنشاطات المتعدّدة التي يؤثّر بعضها على بعض، كما يقول أ. شريدر[1]، على الجهاز النفسي المسؤول عن تكيّف الإنسان مع مجتمعه وعلى جميع المستويات الثقافية خاصّةً أن الإنسان مدين للمجتمع بشروط حياته الحسنة والسيّئة وبقسمٍ كبير من محتوى حياته الفكريّة التي يلفت تباينها انتباهنا: فمن المجتمع يحصل الإنسان على لغته ومعارفه...، كما أن مواقفه معزوّة، جزئيّاً، إلى الضغوط الجماعية المتناقضة لا بل إلى التمزّقات الناجمة عن التنازع بين بيئتين أو بين جيلين؛ وقد تُفسَّر أيضاً بالتصادم بين حاجات الجسم ومتطلبات المجتمع القاسية، بمقدار ما يرمي سلوك الإنسان إلى تلبية الحاجات الجسديّة فهو يظهر بمظهر بيولوجي... لكن، كلّما تحسّنت الشروط الحياتيّة يصبح دور البيولوجية أقل وضوحاً في الحركات الاجتماعيّة.

من هذه الناحية نلاحظ في البلدان المتقدّمة تغيّرات كبيرة ترتبط، إجمالاً، بتحوّلات اقتصاديّة عميقة: فقبل نهاية القرن الماضي كان الإنتاج يرمي، في الدرجة الأولى، إلى تلبية حاجات النوع الأساسيّة. أمّا اليوم فهو يسعى إلى خلق حاجاتٍ جديدة، مفتعله إلى حدّ بعيد، لكنها سرعان ما تستقر وتصبح ملحّة.

---

(1) Eugène schreider, Que sais-je *La biologie humaine* (البيولوجية الإنسانية) ترجمة الدكتور خليل الجر، المنشورات العربية، ص ٦٥...

فالبنيات الاجتماعيّة الحديثة تُكثِر من الحاجات لكنّها لا تؤمّن تلبيتها بسهولة، ممّا يخلق التوتّر tension داخل الإنسان. . . وإذا أصبح عدم الارتياح جماعيّاً فبإمكانه أن يؤدّي إلى نزاع كثيراً ما يُسهِّل «التقدّم» لأن الناحية السيّئة من الأمور هي التي تنتج الحركة.

بالعودة إلى الوراثة الفرديّة يمكن القول إن كل فرد يحمل تركيبة وراثيّة معيّنة ينفرد بها، فبفضل آليّة توزيع الصبغيّات، يحصل الفرد، منذ تكوّنه، على تراث أساسي خاصّ به لا يمكن أن يعود إلى سواه. من هنا إمكانيّة تأكيد أن «كل واحد منّا فريد من نوعه إذ لا يخرج العدد ذاته مرّتين في سحب يانصيب الوراثة» كما يقول ج. روستان (سبق ذكره، ص ٨٨).

لذا تبقى «مشكلة الأجناس البشريّة» أصعب المشكلات التي تعترضنا لأنّنا لا نعرف مجموعة إنسانية واحدة يمكننا اعتبارها جنساً «صافياً» أي مؤلّفاً من أفراد لا يحملون إلاّ هذه أو تلك من المورّثات التي تميّزهم عن أفراد مجموعة أخرى. كل ما بوسع عالِم الانسانيّات فعله هو تقرير اختلاف نسبة بعض المورّثات في صبغيّاتها عند بعض المجموعات البشريّة، وذلك بمعاونة عالِم الوراثة طبعاً.

من هنا عدم الأخذ، إلا بكثيرٍ من الحذر، بمختلف المحاولات التي جرت لتصنيف العروق الإنسانيّة إذ لا يمكن البرهان على وجود فوارق بين الأجناس المختلفة: جميع الناس، إلى أي عرقٍ انتموا، يتشابهون بوفرة مورّثاتهم. يقول بويد بهذا الصّدد: «يستحيل التأكيد بأن عرقاً من العروق البشريّة الموجودة يختلف حقيقةً عن عرق آخر بصفات لها أهميّة الذكاء أو القدرة على التكيّف».

يمكن إدراج قول أ. شريدر ضمن الإطار نفسه «. . . وبوجهٍ عام يمكننا القول إن التزاوج قد ترك أثره في جميع الشعوب والعناصر التي تشكّل مزيجاً ليس واحداً في جميع أنحاء العالم، لكنّنا نستطيع التسليم بأنّنا جميعنا خلاسيون» (سبق ذكره، ص ٤٤).

ينبغي التذكير بوجوب عدم إنكار وجود فوارق عرقيّة معيّنة إنّما، في

الوقت نفسه، عدم المبالغة بوجودها، هذا من جهة؛ أمّا من جهة أخرى، فينبغي التفريق بين الدراسة العلميّة للفوارق العرقية التي تهدف فقط لتوفير المعرفة المعمّقة والشاملة للإنسان أينما كان وحيثما وُجِد وبين النزعة السياسيّة لأصحاب التمييز العنصري.

هناك قضيّة كبرى تواجهنا ضمن هذا الإطار وهي قضيّة انتقال الصفات المكتسبة: لقد سبق أن أشرنا، أكثر من مرّة، إلى ارتباط صفات الكائن الإنساني بالمجموعة الوراثية التي يتلقاها من والديه عن طريق الخلايا التناسلية من ناحية، وبظروف المحيط التي يخضع لها أثناء نموّه، من ناحية أخرى. كما أنّنا أشرنا، أيضاً، إلى مرونة الجسم الإنساني وقدرته على التأقلم مع تأثيرات العوامل الخارجيّة (من نور وغذاء وحرارة وشروط ثقافية و. . .) بفضل جهازه العصبي؛ هذا، بالإضافة إلى العوامل الخلقيّة والاجتماعيّة ودورها البارز في تكوين الشخصيّة الفرديّة. . .

هنا يتبادر إلى ذهننا سؤال هام: هل تتأثّر مورّثات الفرد بعوامل البيئة الخارجيّة بمعنى أنها تستطيع أن تتعدّاه، إلى حدّ ما، إلى نسله عن طريق تعديلٍ تحدثه في خلاياه التناسليّة؟

الجواب على هذا التساؤل يكمن في النفي لأن تاريخ الأصل الفردي، من حيث الصفات المكتسبة، لا يترك أي أثر في شخصيّة الولد الوراثية إذ على هذا الأخير القيام بالتمارين اللازمة لتقوية استعداداته الفطريّة وتنميتها (إن من حيث النشاط الفكري أم من حيث النشاط الرياضي أو العملي أو. . .). لكن، ممّا لا شك فيه أن التربية والتقليد قد يقومان بدورٍ بارز في اكتساب مواهب الوالدين، غير أن تمتّع الولد بموهبة الوالد لا يعني إلاّ أنّه تلقّى، بالوراثة، الشروط الوراثية لهذه الموهبة. فالوالد، في هذه الحالة، ينقل إلى الولد جميع مؤهّلاته الفطريّة أو جزءاً منها؛ لكنه لا ينقل إليه شيئاً ممّا آلت إليه هذه المواهب بفضل التمرين والممارسة» (ج، روستان، سبق ذكره، ص ٩٨).

ينبغي التنويه، بعد أن تكرّر ذكر «فرادة» الكائن الإنساني من حيث إرثه

البيولوجي، بالطابع الشامل والمتشابه للوراثة البيولوجيّة البشريّة بشكلٍ عام، نظراً لعدم تكامل الصورة إلاّ بضمّها معاً. في الواقع، يتّفق علماء البيولوجيا على فكرة كون المادة (البويضة) التي تحتوي بالقوّة en puissance جميع الكائنات البشريّة هي بنية «معممة» أي بدائيّة. ينجم عن ذلك أن **تكوين النوع البشري الخلوي لا يختلف اختلافاً جذريّاً من نوعٍ لآخر** (بدائياً كان أم معاصراً)؛ يبيّن هذا أن جسمنا، في الأساس، يحمل آثار ماضٍ أقدم من كل حضارة وكل تنظيم اجتماعي وكل نطق رمزي وكل بوادر فكر. هذا بالإضافة إلى أن الأساس الكيميائي للحياة هو متشابه عند جميع الكائنات العضوية organiques والآليّات الخلويّة تبدو، أيضاً، ذات أوجه شبه جوهريّة أينما وُجِدت كما أن عمليّة الإخصاب تحتفظ بكيفيّات في غاية القدم... هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يُمكن القول إن التطوّر يولّد، كما سبق أن قلنا، أوجه اختلاف كما أن اختلاط السّلالات يكثّر، في الأنواع التي تتوالد توالداً جنسيّاً، الفروق بين الأفراد إلى حدّ أنه يصعب العثور على كائنين متشابهين تشابهاً تامّاً. وهذا ما يفسّر القول المأثور في علم النفس «يشبه الإنسان كل إنسان ولا يشبه أي إنسان».

صحيح أن الصورة، المعطاة أعلاه، تحمل في طيّاتها الطرح الكامل للمشكلات العامّة التي غذّت وتغذّي مناقشات مختلف المؤرّخين والعلماء باختلاف وجهات نظرهم، لكنّها تحمل، في الوقت نفسه، بذور الحل. أهم المشكلات المطروحة وبعض وجوه حلّها يكمن في التطوّر الذي تحاول بعض العقول العلميّة نفيه نظراً لما في تصاعد السلالة البشريّة من مصادفة لذا فهي تثق (أي العقول) بقوانين الطبيعة التي لا تتغيّر ليتحقّق مصير النوع وهو مصير يتغيّر وفاقاً لنظرتها الخاصّة.

هناك أيضاً قضيّة العلاقة المتبادلة بين البيولوجيا والثقافة التي لا تزال شبه مجهولة والتي تتضارب الآراء إزاءها بين «نزعةٍ بيولوجيّة» تعطي الأوّليّة للأسباب العضوية و «نزعةٍ اجتماعيّة» تتجاهل، في مظاهرها المتطرّفة، ماديّة الكائن البشري مع أن الصفة المميّزة للبيولوجيّة البشريّة تكمن في ازدواجيّة العوامل

البيولوجيّة والثقافية، وهي صفة تتنافى مع فكرة إرجاعها إلى مجرّد تعداد للظاهرات الوراثية والتشريحيّة والفيسيولوجية.

لا تشكّل هذه القضايا، الواردة أعلاه، سوى غيض من فيض من القضايا المطروحة من قِبَل مختلف العلماء والمفكّرين والمؤرّخين الذين حاولوا بحث التطوّر الحضاري عبر العصور.

الإجابة المتكاملة على مختلف هذه الطروحات تتطلّب دراساتٍ متعدّده في مختلف الميادين العلميّة والفكريّة إنّما سنحاول إعطاء لمحة شاملة عنها، وإن سريعة، ضمن طيّات كتابنا الحاضر.

جوابنا الأوّلي على هذه الطروحات يشتمل على ناحيتين: الناحية الأولى تتضمّن موضوع العلاقات التي تربط الإنسان بالعالم الذي يحيط به، هذه العلاقات التي لايبرز أثرها، كما سبق أن ذكرنا ضمن إطار حديثنا حول الجغرافية والوراثة، في بنية جسده وحسب بل في نشاطاته الفكريّة. هذه العلاقات هي، بالحقيقة، معقّدة جدّاً خاصّةً أن بعض وجوهها ما يزال غامضاً نظراً للتداخل القائم بين ما هو بيولوجي وما هو اجتماعي، لكنّها تُعتبَر مصدراً للتقدّم والتطوّر البشري بحيث لا يمكن إعطاء التاريخ تفسيراً وافياً إلاّ إذا استطعنا كشف كل وجوهها.

عرضنا للجغرافية والوراثة كعاملين جوهريّين في التاريخ ساهم في تقديم صورةٍ شاملة وإن سريعة حول أثرهما الفعّال في تكوين الكائن البشري من حيث تأمين الطبائع الثابتة عند البشريّة بشكلٍ عام أو عند الفرد بشكلٍ خاص.

أمّا الناحية الثانية فتركّز على موضوع الطبائع المتبدّلة بعد أن تحدّثنا عن الطبائع الثابتة التي تبقى وحدها عاجزةً عن إيضاح معنى حياة الفرد (أو المجتمع). هذه الطبائع الثابتة هي وراثية ودائمة نسبياً، أمّا الطبائع المتبدّلة فهي ثانويّة ومتغيّرة نظراً لكونها طبائع مكتسبة وخارجيّة (مثل اللغة، الدين، الحضارة، . . .).

٢ ـ الطبائع المتبدّلة (المكتسبة):

من العبث تفسير السّلوك الإنساني على ضوء اعتباراتٍ نفس ـ فيزيولوجيّة ثابتة وحسب (مهما كان أثرها فاعلاً في حياة الفرد أو الجماعة أو الأمـة) نظراً لكون الإنسان يشكّل ذلك الكائن العضوي الوحيد القادر على تحقيق الإنسجام والتآلف بين متطلّباته البيولوجيّة ـ النفسيـة من جهة، المفـروضات والمحـرّمات الاجتماعيّة ـ الثقافية من جهة أخرى. ويمكن القول إن سعة التمثّلات الثقافية تمكّن الفرد من إغناء حيـاته الفكـريّة عن طـريق تجربـة الغير فتسهّـل عنده إمكانيّات التغيير المؤدّية للتقدّم والتطوّر.

بـالتمثّلات الثقـافيّة نعني مجمـل العناصر المكتسبـة أو الاجتماعيّـة التي تندرج: اللغة والدين والحضارة والمؤسّسات الاجتماعيـة. . .، ضمن إطارهـا والتي تشكّل عادات وأعرافاً اجتماعية وكفاءات خاصّة ونوع حياة ونمطها و. . . بمعنى آخر نقول: إنها تشمل، بشكلٍ عام، مجمل مظاهر النشـاط البشري: الماديّة والفكرية (من غذاء وملبس ومسكن و. . .) إلى جانب الفنون والآداب واختراع مختلف الآلات المسهّلة للصناعـة والزراعـة. . .، كل هـذه المظاهـر الخارجيّة للحياة النفسية هي عناصر مكتسبة لا تنتقل بالوراثة وقابلة للتغيّر:

أ ـ اللغة:

تشكّل اللغة عامل توحيد بين الأفراد والمجتمعات قابل لخلق قرابة روحيّة وتقارب ثقافي بمعنى أن من شأن لغةٍ مشتركة المساعدة على خلق طريقة تفكير وثقافة فكريّة أو ايديولوجية واحدة. قلنا من شأنها ذلك إذ كما يقول رينان: تدعو اللغة إلى التوحيد لكنها لا تجبر عليه، فكم من الأمم هي متعدّدة اللغات ومع ذلك نراها متّحدة بقوّة مثل: سويسرا، بلجيكا، كندا، . . .

وعلى العكس من ذلك هناك العديد من الشعوب المتّحدة اللغة ومع ذلك لا تؤلّف أمّة واحدة: البريطانيّون والاميركيّون الشماليّـون، الاسبان وامـيركيّو الوسط والجنوب البرتغاليّـون والبرازيليّـون، الفرنسيّـون والبلجيكيون، العـالم

العربي بدوله المتعدّدة التي تُظهِر، يوماً بعد يوم، روحها الوطنيّة وشخصيّتها الخاصّة بها بالرغم من أنها تتخاطب بلغة واحدة، . . . .

لكن، ممّا لا شك فيه أنّه «من الأسهل على الشعوب تبنّي لغات قريبة من لغتها من تبنّي لغات لا علاقة لها البتّة بحياتها النفسيّة» (ج. بولس، «التحوّلات الكبيرة. . .»، ص ٣٠) وذلك لكون اللغة تشكّل الوسيلة الأساسية، ولكن ليس بطريقة حصريّة، للتعبير عن الفكر.

موضوع اللّغة وقواعدها وكيفيّة تطبيقها وأهميّتها كوسيلة اتّصال moyen de conmunication موضوع شاسع جدّاً لن نتطرّق إليه إذ يتطلّب تخصّصاً يخرج عن إطار امكانيّاتنا كما أنّه يحتاج للعديد من الدراسات المتخصّصة. . . ؛ ما يعنينا منه يكمن في وظيفته العمليّة كوسيلة (شفهيّة أو كتابيّة) تُستخدَم للتعبير عن تواصل الأفراد والمجتمعات والحضارات بعضهم مع بعض بحيث لا نجد فرداً أو مجتمعاً أو حضارةً ما (بدائيين كانوا أم معاصرين) إلاّ ولجأوا إلى اللغة كأداة تمكّنهم من التفاهم. . .

ومن المؤكّد أن لغة مشتركة هي أفضل من عدّة لغات متقاربة للوصول إلى وحدة روحيّة: من هنا محاولة فرض الدولة لطريقة تعبير واحدة تساعد على التجانس والفهم والتفهّم بين مختلف المواطنين. إنّما لا يعني ذلك ضرورة تحديد كل بلد بلغة واحدة فقط إذ أن لغة أو أكثر إلى جانب اللغة ـ الأم (اللغة الوطنيّة) تشكّل رأسمالاً لا يُستهان بحسناته: فكم وكم من الأفراد والشعوب تمكّنوا، بفضل تعدّد لغاتهم، من تحقيق مكانةٍ مرموقة في تاريخ الفكر والحضارة؟ . . .

ومهما يكن من أمر اللغة فإنّها تبقى وحدها غير قادرة على التغلّب على العصبيّات ولا على توحيد العناصر المكوِّنة للطبائع البشريّة إذ «أنّه لأسهل على الشعوب أن تغيّر لسانها من أن تغيّر تقاليدها وأخلاقها» كما يقول أمين الريحاني(١). يعودّ ذلك لكونها ترتكز على اصطلاحات تقنيّة وُضِعَت أساساً

(١) أمين الريحاني، النكبات، ص ٥٧، ٥٨، ٥٩.

لمعالجة المشكلات القائمة على مستوى المتخاطبين، لذا تبقى خاضعة للتغيّر كيما تتلاءم مع الحاجات والمتطلّبات المتزايدة مع تطوّر ثقافة الأفراد؛ أبلغ مثال على ذلك نحصل عليه من مقارنة لغات «البدائية» التي لم تكن تمكّن من الكلام إلاّ في الأشياء المعروفة مع لغات «المتحضّرين» التي تمكّن من المحادثة في أي موضوع كان. بمعنى آخر، لقد تغيّر دور النشاطات اللغويّة تغيّراً كبيراً ولا عجب في ذلك نظراً لكون اللغة وقواعدها وقوانينها هي، بالإجمال، عناصر مكتسبة منذ الولادة تحت تأثير: العائلة والطبقة الاجتماعية والتقاليد (العائلية والدينية والثقافية و. . .) والمجتمع القومي و. . .، وهي عناصر لا تنتقل بالوراثة، لذا قيل: على كل فرد أن يجهد ويكدّ لاكتساب ما توصّل إليه أجداده وآباؤه من معرفة في مختلف الميادين الفكريّة. . .، إذ أن ما يعرفه الأجداد لا ينتقل، بالوراثة، إلى الأحفاد والأبناء. . .

بما أن اللغة تبقى عاجزة عن تأمين التجانس الضروري لتوحيد الأفراد والجماعات، هل بإمكان الدين تحقيق ما تعجز عنه اللغة؟

ب ـ الدين(١):

يشكّل الدين محكّاً من المحكّات الهامّة المعتبرة كمعايير للقومية ولتوحيد أفراد مجتمع أو أمّة معيّنين، لذا يشكّل إغفال أي بحث موضوعي لتأثيره (تأثير العامل الديني) في التكوين السياسي للمجموعات البشريّة وتطويره خلال دورها التاريخي تجاهلاً مخطئاً وضارّاً.

(١) ما قيل عن اللغة ينطبق على مفهوم الدين: يشكّل الدين موضوعاً شاسعاً جدّاً تفلت إمكانيّة إيفائه حقّه من البحث والتمحيص من إطار تخصّصنا؛ هذا إلى جانب كونه يتطلّب دراسات تخصّصية متعدّدة. لذا لن نتطرّق إلاّ إلى ما يعنينا منه في هذا الإطار ويكمن في وظيفته العمليّة كوسيلة ربط واتّصال بين مختلف الشعوب أو الأفراد. . .

إنّما ينبغي التمييز بين العاطفة الدينية وهي طابع وراثي وعنصر أساسي وثابت وبين العقائد والممارسات والشعائر الدينية وهي مظاهر خارجيّة للعاطفة الدينية، خاضعة للتغيّر، إجمالاً، لكونها عناصر مكتسبة، اجتماعية وثقافية ووليدة البيئة الجغرافية والاقتصاديّة والاجتماعية والثقافية وحتّى السياسيّة.

كما اللغة، كذلك الدين فإنّهما لا يشكّلان عنصراً مقرِّراً للوحدة الوطنيّة. لا بل يبدو تأثير الدين في هذا المضمار أقل من تأثير اللغة إذ نادراً ما قامت حروب من أجل اختلافاتٍ في النظر إلى قواعد اللغة بينما سالت الدماء بغزارة (ولا تزال) من أجل خصومات دينية وفي بعض الأحيان من أجل اختلافات على عقائد ديانة واحدة (أبلغ مثال على ذلك الحروب التي قامت في اوروبّا خلال القرون الوسطى بين البروتستانت والكاثوليك المنتمين لنفس الديانة: المسيحيّة، وكذلك القول بالنسبة للديانة الإسلامية...).

لكن، يمكن القول إن الطابع الديني طبع (ويطبع إجمالاً)، بصورة عامّة، الشعور الجماعي أو روح التضامن في الصراع من أجل الحياة، في كل المجتمعات التي يغلب فيها الرابط الاثني على رابط التجمّع الجغرافي والاجتماعي...

إنما ليس البشر آلات مصبوبة أو مصنوعة على نمطٍ واحد إذ تختلف المفاهيم والآراء، في غالب الأحيان، بين فرد وفرد وأحياناً بين أخ وأخ على صعيد المعتقدات وأيضاً في مجالات الفكر.

فضلاً عن ذلك، يُمكن القول إن من شأن فرض «الوحدة الدينية» من أجل تدعيم «وحدة الدولة»، خلق الاختلال في التوازن الاجتماعي إذ تتحوّل الطوائف الدينية غير الملتزمة بالدين المفروض إلى جماعات معادية للحكم فتكوّن تجمّعات منشقّة تحرّكها روح البغضاء والثورة. وهكذا، يصبح الدين الموحّد، المفروض فرضاً، عنصر تفتيت لا عنصر توحيد وطني نظراً لعدم قدرة أيٍّ كان إجبار الضمير البشري على أي شيء: باستطاعته تقييد الأجسام لا الأرواح ولا العقول لأن الضغط يؤدّي، في هذا المجال، إلى ردّات فعل عنيفة طبقاً لقواعد

تاريخيّة عامّة تقول «لكل فعل ردّة فعل» و«لكل طرح، طرح مضاد» (ج. بولس، الأسس الحقيقية. . .، ص ٦٩).

ويمكن القول إن التضامن الذي يفرضه توحيد الدين هو مؤقّت، لا يدوم إلاّ بدوام الصراع أو المقاومة التي آزرته، لذا فهو يزول بزوال هذه المقاومة. وإثر تحرّر الشعوب تُنقل الروابط إلى مفاهيم أخرى غير الدين: ففي الشرق الأدنى وفي اسبانيا والبلقان وايرلندا، سقط الرابط الديني الراجح إبّان الصراع إلى المرتبة الثانية؛ يقول رينان بهذا الصدّد «إن الدين الذي كان عنصراً ذا أهميّة في تكوين بلجيكا يحتفظ بمكانته في أعماق كل فرد إلاّ أنّه خرج تماماً من العوامل التي ترسم حدود الشعب». كذلك القول بالنسبة للشعوب الإسلاميّة التي كانت تتكلّم اللغة العربية في أوائل القرن العشرين عندما حاولت التحرّر من وصاية الأتراك وهم من الدين نفسه (الدين الإسلامي)؛ لم يكن باستطاعة هذه الشعوب استخدام المفهوم الديني نفسه فاستبدلته بعنصر اللغة لجمع الإرادات المشتّتة عند شعوب الشرق الأدنى العربي ضد الخليفة التركي ـ العثماني.

من هنا، نشأت حوالي هذا العصر فكرة العروبة كفكرة ـ قوّة idée en puissance هي، في أساسها، لغويّة ما زالت حتى يومنا هذا تحرّك ردّة فعل العالم العربي ضد سيطرة أو أطماع الامبرياليات السياسية أو الاقتصاديّة غير العربية (ج. بولس، الأسس الحقيقية. . .، ص ٧٤).

لكنّنا نشهد اليوم حركةً فكرية عالمية تميل إلى التمييز بين الدين والدولة: لقد قطع هذا التمييز شوطاً كبيراً في العالم الغربي إنّما لا يزال حديث العهد ومتعثّراً في باقي أرجاء العالم، العالم الثالث بشكلٍ خاص. أساس هذه الحركة يعود لحاجة أي تجمّع متنوّع، كي لا يتفكّك، إلى عنصر توحيد وإلى ضغط على اعضائه حسب القاعدة الآلية القائلة إنّه «كلّما كبرُ التجمّع كان أو وجب أن يكون التحامه قويّاً كي يحافظ على وحدته». إلاّ أن هذا الضغط لا يمكن أن يُمارَس دون ضرر على التفكير والمعتقدات الدينية التي هي، نوعاً ما، ناتجة عن هذا التفكير والتي تنفلت، إجمالاً، من قيود الضاغط مهما بلغ من القوّة والبطش. . . إن ردّة الفعل في هذا المجال تكون أعنف كلّما كان الضغط

أقوى: الأمثلة المتّخذة من التاريخ اكثر من أن تُحصى وهي تعلّمنا بأن ردّة الفعل على فرض دينٍ رسمي فرضاً على شعبٍ معيّن تؤدّي، إجمالاً، إلى بروز شيع منشقّة في كل مكان؛ ثم إن من شأن الاضطهادات الدينيّة تأجيج مشاعر الطوائف المنشقّة وجعلها أكثر تضامناً وحيويّةً وعدائيّة (تاريخ الدينين: المسيحي والإسلامي ومختلف الشيع التي انشقّت عنهما أبرز دليل على ذلك).

على كل حال، لقد وعت الأديان السماوية ذلك وأدركته، فها هو القرآن نفسه ينصح بعدم الضغط على الوجدان «لاَ إِكْرَاْهَ، في الدِّينِ» حسب آية كريمة...

لمّا كان الدين واللغة لا يشكّلان محكّات critères كفيلة بتأمين التوحيد بين أفراد مجتمع أو أمة معيّنة فربما كان هناك أمل بإمكانيّة إحداث رابطة ثابتة بين مختلف الأفراد والشعوب عن طريق رابطة الدم التي تقرّب الناس المتحدّرين من جدّ واحد في المجتمعات المركّبة والتجّمعات الواسعة، ونعني بذلك «العرق»:

ج ـ العرق:

شكّل مفهوم «العرق»، ولا يزال، التباساً حتى لدى الجمهور المثقّف الذي يخلط، غالباً بين مفاهيم: عرق، شعب، أمّة، لغة، ثقافة، حضارة وحتّى أحياناً دين. يقول مارسلان بول Marcellin Boule في هذا الصّدد: «ثمّة كتّاب بارزون، وحتى اكاديميّون، في أيامنا هذه يستعملون كلمة «عرق» بمعنى خاطىء تماماً عندما يعالجون مسألة التجمّعات البشريّة... إن العرق، باعتباره يمثّل تواصل جنس أو نوع طبيعي، يمثّل بالضرورة مجموعة طبيعيّة... وعليه لا يوجد عرق آري بل لغات آرية ولا يوجد عرق لاتيني بل حضارة لاتينية»(1).

يعني العرق، بالمعنى العلمي للكلمة، تجمّعاً طبيعيّاً جوهريّاً مؤلّفاً من «أفراد متشابهين» يتحدّرون من دم واحد تجمعهم الصفات الخارجية التالية:

(1) Marcellin Boule, *Les hommes fossiles*, p. 320.

طول الجسم، لون العينين والشعر، شكل الجمجمة والوجه؛ إنّه العرق الانتروبولوجي أو بمعنى آخر العرق الطبيعي الخالص. ولا وجود لهذا العرق، كما سبق أن قلنا، إلاّ نظرياً لأن الضرورة التي حتّمت على الإنسان الانتقال والتواصل والاختلاط مع غيره، حتّى منذ عصور ما قبل التاريخ، قضت على نقاء العرق وأدّت إلى مزيج معقّد من أعراق تبوتقت، عبر العصور، بفضل البيئة الجغرافية وانصقلت بفعل الوراثة والطبيعة البشريّة، هذا الاختلاط الذي فرضته الضرورة على إنسان ما قبل التاريخ لم يتوقّف بل ازداد فعلاً نتيجة تعقيد متطلّبات المدنيّة الحديثة.

لذا تبقى الطبائع العامّة المميّزة لتجمّعات جغرافية واجتماعية (قبائل، شعوب، أمم)، قابلة للتغيّر بالرغم من ثباتها النسبي نتيجة حاجة الإنسان للاختلاط بأعراق أخرى والتنقّل إلى مناطق جغرافية أخرى؛ لابد أن يطبعه ذلك بطابعه الخاص ممّا يؤثّر، مع الوقت، على المظاهر والخصائص الخارجية والنفسية تأثيراً حاسماً إلى حدٍّ ما.

لكن حتى وإن توافرت القرابة العرقية في المجموعات المحصورة (أسرة، عشيرة) فإنّها تبقى عاجزة عن تكوين رابطٍ اجتماعي من شأنه مقاومة المحن بصلابته. يكفي، لإثبات ذلك، ذكر بغض الأقارب بعضهم لبعض ومنافسة وعداوة الأخوة التي هي مضرب الأمثال...

مجمل هذه التمثّلات الثقافية من دين ولغة وعرق...، تشكّل، كما سبق أن قلنا، طبائع اجتماعية مكتسبة، منذ الولادة، بفعل تأثيرات متعدّدة ومتنوّعة تحدثها التقاليد: العائلية والدينية والاجتماعيّة و...، وهي طبائع لا تنتقل بالوراثة.

د ـ أمّا العادات والتقاليد والأعراف:

فنعني بها سبل السلوك الاجتماعي التي توصّل إليها ابناء المجتمع بالتجربة والاختبار فأقرّوها واطمأنّوا إليها وتناقلوها قوماً عن قوم وجيلاً عن جيل

وحرصوا على المحافظة عليها إذ وجدوا فيها ما يعزّز روابطهم ويُبرز خصائصهم، ومميّزاتهم. فما من جماعة أو حضارة بشرية إلاّ ولأفرادها عادات وتقاليد فيها يختص بالمأكل والملبس وتأثيث البيوت وتصرّفات الأفراد بعضهم تجاه بعض (كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً).

يتلقى الأفراد هذه العادات والتقاليد منذ مولدهم كما يتلقّون الغذاء الذي به يتغذّون والهواء الذي يتنشّقون، كما أنهم ينشأون على ممارستها والتطبّع بها...

إنها باختصار تلك الخصال الإنسانية الناتجة عن تراكمات ماضية ألفها الإنسان ومارسها خلال زمنٍ طويل حتّى أصبحت تشكّل «تراثاً» توارثه عن آبائه وأجداده يصعب عليه التنازل عنه. غالباً ما يغيب أصل هذه العادات في غياهب الماضي ولا يبقى منها سوى المظاهر (الخالية من الروح) التي يمارسها الفرد أو المجموعة.

سبب رسوخ وازدهار العادات يعود إلى ميلٍ طبيعي عند الإنسان إلى تصديقها وسهولة الأخذ بها ومجاراتها بدلاً من نقدها والبحث فيها للتحقّق فيما إذا كانت لا تزال متلائمة وصالحة فيحافظ عليها، أم على العكس، يجب نبذها والتخلّي عنها، وهذا النقد يتطلّب تطوّراً فكريّاً سبيله التدرّب والممارسة والجهد المستمر، هذا من جهة.

أمّا من جهة أخرى فيمكن القول إن رسوخ العادات بذهن الإنسان يرتبط بالمحرّمات والقوانين التي ترافقها والتي يشكّل مجرّد فكرة انتهاكها شيئاً لا يخطر ببال وإذا ما أشير إليه فالإشارة تثير الرعب أو الاشمئزاز. ففي كل زمان ومكان (في كل المجتمعات القديمة والحديثة) يوجد ميل قوي لاعتبار القواعد المعمول بها قوانين طبيعية مع أنها، في الواقع، لا تشكّل حدوداً طبيعيّة أكثر ممّا هي القواعد اللغوية المعمول بها من قِبَل أي مجموعة بشريّة: فهي تتغيّر مع البلدان والعصور تمشّياً مع التطوّر الفكري والعلمي وتعكس، ضرورةً، نظاماً ثم ضمانات للمؤمنين بها.

تتناول هذه العادات، إجمالاً، مجمل شؤون الحياة الإنسانية (من غذاء وكساء وأذواق فنية و. . .). أخطر ما فيها يكمن في انعكاسها على بيولوجيّة الإنسان نظراً لارتباطها، كما سبق أن قلنا، بواقع التحريم وإن اختلفت درجة تأثير هذا التحريم من شأنٍ حياتي (كالغذاء مثلاً) إلى آخر (كالجنس). يقول أ. شريدر (سبق ذكره، ص ٦٨) في هذا الصّدد: «من غرائب الأمور أن التحريمات الغذائية أقوى من المحرّمات الجنسية. فامرأة تقيّة قد تقترف خطيئة الزنى لكنّها تفضّل معاناة الجوع على قبول غذاء غير مألوف يثير اشمئزازها في حين أنّه شائع الاستعمال في بيئة ثقافية أخرى» لذا تستحق دراسة هذه العادات والتحريمات التي ترافقها بشكل خاص، عنايةً خاصّة من الناحية العملية حيث يبدو رأي السلالي الذي يدرس العادات أكثر أهميّة من رأي عالم البيولوجيا في هذا المضمار.

تغور بعض هذه العادات والتقاليد إلى أعماق نفوس الشعب وتختلط بمشاعره وتسري في أشعاره وقصصه وأمثاله وأغانيه ورقصه وأزيائه. . . وتقترن بحياته اليوميّة فيتألّف من هذا كله ما يسمّى بالفنون الشعبية وما يتصل بـ «الفولكلور» وهو ذخيرة من العادات والفنون تنبع من أعمق مصادر الحياة الاجتماعية ومن أقدم المراحل الحضارية وما تزال تنتقل من جيل إلى جيل وتزداد وتغزر حتى تغدو قسماً مهماً من التراث ومرآةً تعكس صورة حضارة الجماعة (أو المجتمع) وألوانها.

من هنا تُفهَم عودة أبناء حضارة معيّنة إلى هذه الذخيرة من العادات والفنون لدى تنبّههم إلى ضرورة المحافظة على شخصيّتهم وإحياء تراثهم وخصائصهم. . .

يمكن تلخيص أثر العادات والتقاليد في تكوين الفرد بالخصائص التالية: إنها تضبط السلوك الاجتماعي وتكوّن جزءاً هاماً وأصيلاً في التراث الذي يحمله من جدوده، تغور إلى أعماق نفوس الأفراد (الشعب) وتقترن بحياتهم اليوميّة. العادات والتقاليد هي إذاً من الروابط التي ينتظم بها المجتمع.

لكن، كما اللغة والـدين والعرق كـذلك العـادات والتقاليـد من شأنها المساهمة في توحيد العناصر المكوِّنة للطبائع البشريّة إنّما تبقى عاجزة عن تأمين رابطة ثابتة بين مختلف الأفراد والشعوب وذلـك لكونها قـابلة للتغيّر والتـطوّر بالرغم من رسوخها في أذهان الناس وارتباطها بواقع التحريم ولكونها أيضـاً خاصّة ببيئة اجتماعيّة معيّنة وتشكّل طبائع مكتسبة (لكل مجتمع عاداته وتقاليده الخاصّة به. . .).

تجدر الإشارة هنا إلى عدم قدرة الطبائع المكتسبة (المكوِّنة عبر تأثير الدين واللغة والعرق والعادات و. . .) تحويل الطبائع الاثنية والوراثية التي هي روح الشعوب وثابتة نسبيّاً:

نقول نسبيّاً لأن تقييم أي عمل من الأعمال الإنسانية لا يمكن أن يتم موضوعيّاً إلاّ إذا وضعناه ضمن الظروف التي كانت قائمة في زمنه والأحوال التي كانت سائدة في هذا الزمن أي إذا وضعناه ضمن إطاره الصحيح كي نتمكّن من فهم منشئه والمرحلة التي يمثّلها. فليس هناك شيء ثابت بشكلٍ مطلق: لا يوجد حقيقة ثابتة ولا أيّة عناصر إنسانية غير خاضعة للتحوّل والتغيّر، بل إن كل ما لدينا أشياء وأحداث وأحكام نسبيّة تصـح في زمن ولا تصح في زمن آخر، تقوم في مرحلة وتختفي في مرحلة أخرى.

إنما ينبغي تجنّب التجريد حتى فيما يختص بالنسبية كي لا نهرب من بعض الوانه فنقع في ألوان أخرى منه، بمعنى أن علينا أن لا نمعن في النسبية بحيث تصبح هي مطلقة أو بحيث تختبىء وراءها مـطلقات نؤمن بهـا إيمانـاً ضمنيّاً متسلّطاً.

يمكن القول في الواقع إن الإنسان الحـديث وإن اختلف في أشياء عن الإنسان القديم في عصور الفراعنة أو عمّا كان عليه أبنـاء المدنيّـة الصينية أو الهندية في فجر تاريخهم أو عن الإنسان اليوناني أو الروماني في العصور القديمة أو العربي في القرون الوسطى فـإنّه يشبهـه، في أشياء لا تتبـدّل بتبدّل الأزمـان والبيئات. فهو مثله يأمل وييأس ويحب ويكره ويغتبط ويتألّم ويضحّي ويطمع

ويوقن ويشك ويؤمن ويكفر ويتسامى إلى الخير ويهوي إلى الشر. وهو، أيضاً مثله ذو عقلٍ منتظم في تدرّجه وتفتحه، متماسك في سعيه إلى الحقيقة وتطبيعها. . . ولولا هذا الانتظام والتماسك لما كان هناك تقليد حضاري إيجابي متراكم عبر العصور. ثم إن لجوهر هذه الصفات المستمر خلال التاريخ أهميّة المظاهر المختلفة التي تبدو فيها أو التطوّرات التي تعتريها.

لكن، ينبغي النظر إلى الحوادث على أنها وليدة عصرها وبيئتها إذ لا يمكن أن تكون إلاّ ما كانت عليه؛ لم يكن ممكناً لأرسطو، مثلاً، أن يرى في الرق غير ما رآه لأن تطوّر المجتمع أو تطوّر العقل كان، حينذاك، في مرحلة لم تكن تسمح له بغير ذلك؛ فكل حدث هو نتاج القوى المتفاعلة فيه في حالة ومرحلة معيّنة أي، بمعنى آخر، هو أمر نسبي يجب أن يُنظَر إليه بالنسبة إلى الحال أو الأحوال التي تحيط به إذ لكل عصر من العصور أو مرحلة من المراحل أو بيئة من البيئات مقاييسها ومعاييرها: الديمقراطية، مثلاً، قد تكون خيراً في بيئة وشراً في بيئة أخرى وما يُعتبر عدلاً في مجتمعٍ ما يُمكن أن يُعتبر ظلماً في مجتمع آخر؛ كما أن ما يُعتبر طبيعيّاً وواجباً في مرحلة تاريخية معيّنة (كالأخذ بالثأر الذي كان سائداً في القرون الوسطى) يمكن أن يُعتبر جريمة في مرحلة تاريخيّة أخرى (في المدنيّة الحديثة مثلاً).

بمعنى آخر، لابد من استخدام مقياس زمني نسبي للحكم على الأحداث أو الأشخاص فمثلاً لا نستطيع الحكم على أرسطو انطلاقاً من مفاهيمنا الحاضرة، لكن في الوقت نفسه، لا يكفي أن نحكم عليه بمقياس زمنه فحسب: لكي يكون حكمنا على أي إنتاجٍ ماضٍ أوضح وأوفى ينبغي بناؤه انطلاقاً من مفاهيم العصر والبيئة المعيّنة من جهة، ومن قدرة صاحبه (أو أصحابه) على تخطّي هذه المفاهيم المرحليّة وخلق إمكانات جديدة تسهم في الكسب الإنساني المتراكم فيندرج ضمن إطار مآثر الشعوب التي تتعدّى الزمان والمكان اللذين تنشأ فيهما إذ هناك الزمني العابر إلى جانب الأصيل الباقي عبر الأجيال، من جهة أخرى.

هناك إذاً مقياس مزدوج: المقياس الزمني النسبي والمقياس المتراكم خلال العصور، للحكم على النسبية وإلاّ غرقت هي نفسها، في خطأ التعميم المطلق الذي تحاول نفيه... كما حدث مثلاً مع بعض المؤرّخين أمثال شبنجلر الذي رأى أن كل ما في حضارة من الحضارات هو نسبي لها ولا يتعدّى نطاقها.

يقول شبنجلر(1) بهذا الصدد: ليس ثمة نظام سياسي واحد ولا اقتصاد واحد ولا اجتماع واحد ولا عقائد أو سنن أو أخلاق إنسانية واحدة ولا فنون وآداب واحدة. حتى العلوم تكون تابعة للحضارات ومختلفة باختلافها، فلا يمكننا أن نقول بنظام عددي واحد وإنما نجد نظاماً عددياً وعلماً رياضياً مطابقاً لكل من الحضارات ومنبثقاً، ككل نتاج من انتاجاتها، عن رمزها الأولي والأصيل Prime Symbol. كل شيء نسبي، والحقيقة كذلك نسبية: فما يبدو لي حقاً، بصفتي ابن حضارة معيّنة، يخالف ما يبدو حقاً لأبناء حضارة أخرى. وكل حضارة تتكلّم لغتها الخاصة أو لها عقليتها الخاصة التي لا تفهمها غيرها من الحضارات ولا يمكن نقلها إليها. فلسنا نجد، إذاً، تراثاً إنسانياً متصلاً، بل اختبارات وإنجازات منفصلة تخص كل منها حضارة معيّنة تبقى ما بقيت تلك الحضارة وتتبدّل بتبدّلها وتزول بزوالها.

لا يمكن، في الواقع، الأخذ بهذا الرأي لأن الحضارات العالمية (بدائية كانت أم حديثة) بعضها متّصل ببعض: فالإنجازات الأولية التي تحققت في الأطوار البدائية ذات أهمّية خاصّة خليقة بأن تُذكر وبأن تُقدَّر حقّها. إنها الأساس الذي أقيم عليه البناء فيما بعد، فمن منّا يستطيع إنكار أهمّية اكتشاف النار... أو اختراع الدولاب... أو رسم الصور الكتابيّة الأولى...؟ فهل كان للإنجازات التي تلتها أن تحدث لولاها؟...

ثم إن كل حضارة تستمد من سابقاتها وتصب في لاحقاتها فتمثّل مرحلة من مراحل التقدّم البشري وجميعها تؤلّف مجرىً واحداً أو تنتظم في سلك واحد

(1) اوزوالد شبنجلر Spengler، **انحطاط الغرب** (The decline of the west)، ١٩١٨، عن ق. زريق، «في معركة الحضارة»، سبق ذكره، ص ٦٣.

هو التطوّر البشري الشامل. فالحضارات التاريخية، على اختلاف ميزاتها ومظاهرها، تتشابه في بعض وجوهها تشابهاً أصيلاً وذلك بسبب انبثاقها جميعاً من طبيعة إنسانية واحدة وتكوّنها نتيجة لمشكلات أساسيّة جابهت الشعوب حيثما وُجدت ومهما كانت ظروفها وأحوالها. وهذا التشابه هو الذي يسّر إمكانية التقاء الشعوب والحضارات وتفاهمها بعضها مع بعض ممّا مكّنها من الأخذ والعطاء والتفاعل والتبادل تبادلاً لا مجال لإنكاره خلال التاريخ. أبرز دليل على ذلك يكمن في التبادل الحضاري الذي تمّ بين مختلف حضارات العالم منذ أقدم عصورها حتّى اليوم. ثم إن إمكانيّة أي فرد - وهو ابن شعبٍ معيّن يتميّز بحضارة خاصّة به - إذا ما بذل الجهد المطلوب، لفهم منجزات أي شعب أو حضارة أخرى بحيث لا يستحيل عليه النفاذ إلى اعماقها وكشف أسرارها ستبرز كدليل آخر على ذلك.

من هنا نجد أن النسبية التي يتكلّم عنها شبنجلر وأمثاله هي نسبيّة مطلقة تتنافى مع الواقع التاريخي الملموس.

عطفاً على كل ما سبق ذكره نقول إن تغيير الطبائع المكتسبة في شعب ما وفي بيئة جغرافية واحدة يظهر، حسب الأزمنة، تحت مظاهر مختلفة. فالتغييرات الظاهرة التي تطرأ غالباً على الدين واللغة ومختلف المؤسّسات تُشعِر المراقب السطحي بأنّه يرى شعباً جديداً أو أسرة إثنية جديدة في البلد نفسه وخلال فترة تاريخية معيّنة. لكن المجموعة الجغرافية الواحدة (كشعب أو أمة) تبقى، إجمالاً، محتفظةً بطبائعها الأصيلة التي كوّنتها البيئة الجغرافية بالرغم من قدرة هذه المجموعة على التأقلم مع التمثّلات الثقافية (الدينية واللغوية والمؤسسيّة...) التي اكتسبتها والتي تبقى، بحكم كونها طبائع مكتسبة وبالتالي عناصر خارجيّة، قابلة لأن تتغيّر وتتبدّل.

يقول ج. بولس (التحوّلات الكبيرة...، سبق ذكره، ص ٣٢) بهذا الصدد: «إن تحوّل شعب أو فرد إلى ديانة جديدة لا يغيّر من طبيعته... في الإنسان تتراكم المعتقدات، الواحد فوق الآخر، كطبقاتٍ من دهان لا تختلط ولا تزول».

مجمل القول، إن البيئة الطبيعيّة و الجغرافية حيث يعيش شعبٌ ما والوراثة الإنسانية التي تميّزه هما عاملان جوهريان و «دعامتان» لتاريخ هذا الشعب ولا يمكن إنكار أهمّية تأثيرهما الثابت والمؤكّد بالبرهان العلمي في تكوين الفرد، إنّما لا تجوز المبالغة في تأكيد حتميّة هذه الثوابت بالرغم من أهمّيتها القصوى وفعاليتها نظراً لكونها تشكّل تعليلاً موحَّداً يُفرض على التاريخ فرضاً يُقسر الحوادث لتدخل في نطاقه وتنصب في قالبه.

في الواقع يُعتبر هذا التعليل القائل إن التاريخ هو وليد المؤثّرات الجغرافية والوراثية، بالرغم من استقائه المعتقدات الأساسية من العلم الاختباري وحكّه للتعليلات التي يُقدّمها بمحك الاختبار وامتحانه لها بواقع الحوادث كما تكشّفت وتتكشّف، غير كافٍ لأن التاريخ يدلّنا على عدم وجود عامل واحد أو عوامل محتّمة تفعل فعلها النافذ المحتّم ذاته في كل ظرف وزمان ومكان. هناك، في الحقيقة، عوامل متعدّدة ومتنوّعة في طبيعة الإنسان وفي طبيعة العالم الذي يحيط به؛ ثم إن بعض هذه العوامل هي في وقتٍ معيّن أشدّ فعلاً من سواها، كما أن أثرها ونفاذها يختلفان باختلاف الأحوال.

يقول ق. زريق («نحن والتاريخ»، سبق ذكره، ص ١٤٧) في هذا الصّدد: «لعلّنا لا نستطيع أكثر من أن نعيّن العوامل الفاعلة ومدى فعلها في فترة محدودة من الزمن وفي حالٍ معيّنة. أمّا أن نقرّر هذه العوامل ونعيّن مدى أثرها في خلال التاريخ بكامله فأمرٌ أوسع وأعمق من أن نحيط به أو تنفذ إليه معرفتنا في الوقت الحاضر وقد لا تقدر عليه معرفتنا المقبلة. فليس ما يدلّ على أن العقل الإنساني قادر على حل أسرار الكون والحياة الإنسانية كلّها وعلى تفتيح جميع مغالقها...».

في الحقيقة، يمكن القول إن مختلف المؤرّخين والعلماء استخدموا التعليل التأريخي في سبيل هدفٍ خاص يفرضونه على الماضي فرضاً يخرج به عن غايته ويخل بوظيفته وينافي التجرّد الذي هو شرطه الأساسي؛ فمنهم من يجعل الإنسان وبالتالي التاريخ وليد المؤثّرات الجغرافية وحدها ومنهم من يعتبرونها نتيجة لقوى الإنتاج المادّي وللعلاقات الاقتصاديّة وآخرون يرون أن الإنسان هو في جوهره

عقل وأن التاريخ ليس سوى تفتّح هذا العقل وتجسّده في شتّى المظاهر الحضارية والاجتماعية والسياسية والدينية والايديولوجية والنفسيّة و. . . ؛ كل منهم يعتقد بأنّه قبض على ناصية الحقيقة النهائية.

إنّنا، في الواقع، نشك في كل تعليل يجعل سلوك الإنسان مسيّراً محتّماً: فالعوامل الطبيعية أو البيئية: كالجنس والوراثة ونوع المحيط الجغرافي والنظام الاقتصادي والأحوال الاجتماعيّة والعقلية والخلقيّة. . . ليست سوى إمكانات أو قيود والقيود لا تصنع الحياة. أمّا الذي يصنعها فهو الإنسان الذي يعي هذه القيود فيسعى إلى تخطّيها والذي يدرك الإمكانات فيجهد في تحقيقها. بهذا الوعي والسعي يصنع الفرد تاريخه الخاص به ومن ثم تاريخ البشريّة جمعاء إذ أن تاريخ الفرد يشكّل حلقة من حلقات التاريخ البشري المترابطة والمتّصلة بعضها ببعض.

يُستشف من هذا أن العناصر المكوِّنة للتاريخ تكمن في صميم الإنسان وفي فعل قواه الإيجابية وتغلّبه على قواه السلبيّة.

ولا نعني بالإنسان ذلك الفرد المستقل بحياته تمام الاستقلال فقط بل ذلك الفرد المرتبط بأمثاله من الأفراد الذين يكوّنون المجموعة البشريّة فيكوِّن معهم وحدةً شاملة مترابطة تتميّز، بدورها، بوحدة شاملة من حيث العناصر التي تكوّنها، بمعنى أن العوامل الطبيعيّة (الجغرافية والوراثية. . .) والنظم السياسية والأوضاع الاقتصادية والأعراف والتقاليد والأحوال العقلية. . . تشكّل كلٌّ منها قطاعاً من قطاعات الحياة لا يصحّ الاكتفاء به. وما يصدق على هذه القطاعات الرئيسيّة يصدق، بالطبع، على اجزائها ووحداتها الصغرى: فاجزاء كل قطاع مترابطة فيما بينها والقطاعات مترابطة كذلك والوحدات الصغرى تجتمع في «وحدة» حياة المجتمع الكبرى، هذه الوحدة الكبرى هي التي يتوجّه إليها التاريخ.

يعنينا التاريخ من وجهتين أساسيّتين (فكريّة وعملية) في إدراك كل من هذه القطاعات إدراكاً أوفى وأصح. إنّه يعنينا، من الوجهة الفكرية، على إدراك

واقع هام جدّاً يكمن في كون حقيقة الجزء لا تبين إلاّ من ضمن الكل والوحدة الصغرى لا تتجلّى معانيها إلاّ بعلاقاتها بسواها من الوحدات التي تؤلّف بمجموعها الوحدة الكبرى. أمّا من الوجهة العمليّة، فإنّه يذكّرنا بأنّ أي تبديل في قطاع من هذه القطاعات له حتماً ملابساته وآثاره في القطاعات الأخرى.

ثم إن هذه القطاعات أو العناصر متعدّدة، ومتداخلة في حياة المجتمع الواحد وهي تؤلّف بمجموعها كياناً كثير التشابك شديد التعقّد.

لقد تباينت، كما رأينا أعلاه، آراء العلماء وكل المعنيّين بهذا المضمار نظراً لاختلافهم في تقدير كل من هذه القطاعات وفي اختيار العامل (الداخلي أو الخارجي) الذي يضفي على المجموعة البشريّة سمتها البارزة وطابعها الخاص: منهم من آمن بحتميّة تأثير العوامل الجغرافيّة من حيث تكوين الطبائع الثابتة عند الإنسان ومنهم من اختار العامل الديني وأصالته أو العامل اللغوي ومنهم من تمسّك بالقدرة التقنيّة أو بسيادة الأفكار والاتجاهات العقلية ومنهم من أكدّ خصائص الجنس والعرق ومنهم من اتّجه إلى صفات الطبيعة البشريّة كالوراثة والتكوين البيولوجي والفيزيولوجي...

كما أنهم اختلفوا، أيضاً، في مبلغ تمسّكهم بالعامل الذي اختاروه، وتأكيدهم أيّاه: فبعضهم ذهب في التأكيد مدى بعيداً فتشدّدوا في إفراد عاملهم المختار وفي إبراز حتميّته، في حين أن، آخرين أوسعوا المجال لعوامل متعدّدة تنأى عندهم عن الحصر والتحديد وغيرهم توزّعوا في مواقف مختلفة بين هؤلاء وأولئك... (ق. زريق، في معركة الحضارة، سبق ذكره. ص ٣٣٠ - ٣٣٢).

يعود هذا الاختلاف، كما سبق أن ذكرنا، إلى تعقّد حياة الفرد والمجتمع وتداخل عناصرها وتفاعل عواملها بمعنى أن الحياة البشريّة هي نتاج مركّب لفعل جميع العوامل التي تكيّفها (الطبائع الثابتة نسبيّاً) من الداخل أو تؤثّر فيها من الخارج (الطبائع المكتسبة). ثم إن هذه العوامل المختلفة تتباين شدّةً وأثراً بتباين الأزمنة والأوضاع: لقد كان للبيئة الطبيعيّة من الأثر ما ليس لها اليوم وكذلك

كان شأن الدين بمعناه التقليدي في حين تعاظم أثر القدرة التقنيّة وتضخّم في القرنين الأخيرين وهو الآن في تعاظم متزايد.

لذا، لا يمكننا القول إن أي عامل من العوامل كان في كل زمان ومكان سبباً وأصلاً وسواه نتاجاً وفرعاً، بل نكتفي بالقول إن العوامل المختلفة تشترك، بأقدار متباينة، حسب الظروف والأحوال، في تكوين الحضارة البشريّة وفي إعداد المرحلة المعيّنة التي تمرّ بها، بمعنى أن موقف الحضارة أو طابعها أو سمتها المميّزة يتحدّد من خلال تكامل المفاهيم الأساسيّة للطبيعة وما وراءها وللحياة الإنسانية والأسلوب المتخذ لبلوغ هذه المفاهيم والاتجاه المتّبع لتطبيقها.

من هنا تُفهَم ضرورة التوجّه إلى القوام (١) الذي تنتظم به جميع عناصر الحضارة البشريّة خلال مرحلة معيّنة إذا أردنا أن نفهمها على حقيقتها وبتمامها.

موقفنا من البيئة الطبيعيّة ـ الجغرافية والوراثة (طبائع ثابتة نسبيّاً)، ومن اللغة والدين والعرق والعادات والتقاليد... (طبائع مكتسبة) كمظاهر تمكّننا من معرفة أثر التاريخ في تكوين الفرد يقودنا إلى الحديث عن المجتمع وتركيبة البنية الاجتماعية كمظهر آخر معبِّر عن أثر التاريخ في تكوين هذا الفرد.

أثر التاريخ في تكوين الفرد وتركيب البنية الاجتماعية

١ ـ الفرد والمجتمع(٢):

أ ـ معطيات عامّة: لطالما طُرِحت مسألة علاقة الفرد بالمجتمع طرحاً

(١) نقصد بكلمة «القوام» ذلك الطابع أو السمة التي تتميّز بها كل حضارة من الحضارات حيث تترابط مختلف المفاهيم فيما بينها بنظرة وإدراك شاملين.

(٢) عديده ومتنوعة هي الأبحاث التخصّصية التي تناولت الفرد والمجتمع بالدرس والتحليل أكان ذلك في ميادين علم: النفس والاجتماع والانتروبولوجيا، أم في الميادين العلميه الأخرى التي تناولت الإنسان (بيولوجيّاً ـ تشريحيّاً أم وظائفيّاً ام.ـ): لذا لن نغوص بها، بالرغم من أهميّتها القصوى، بل سنكتفي بعرض ما يعنينا في هذا المضمار أي في ما يتعلّق بالعلاقة التاريخيّة القائمة بين الفرد والمجتمع التي تمكّننا من كشف أثر التاريخ في تكوين الفرد وفي تركيب البنية الاجتماعية، من جهة وأثر البيئة الاجتماعية في تكوين الفرد، من جهة أخرى.

خاطئاً إذ ركّزت على التساؤل التاريخي عمّن يأتي قبل الآخر: المجتمع أم الفرد. فالخطأ في مثل هذا الطرح ينجم أساساً عن كون الاثنين متلازمين غير منفصلين لأنّهما ضروريّان ومتمّمان بعضهما لبعض. وليسا ضدّين، هذا من جهة؛ أمّا من جهة أخرى فلأن الإنسان يعيش في بيئة اجتماعية تحيط به آثارها من كل جانب خاصّةً أنه يولد ضعيفاً عاجزاً فتزوّده الهيئة الاجتماعيّة بوسائل حفظ البقاء. لذا فهو مدين لها ببقائه كما هو مدين للطبيعة بوجوده...

في الواقع، إن مسألة استقلال الإنسان ـ الفرد عن المجتمع لهي مسألة نظرية لا أساس عملي لها؛ والحق يُقال، إن الإنسان أينما ذهب يجد البيئة الاجتماعية في طريقه، لكنه إذا لم يلتقها فإنّه لمن الصعب عليه اكتساب إنسانيته (أي أنه لا يكتسب الصفات الإنسانية)، أفضل مثال على ذلك طفل أڤيرون المتوحّش (فيكتور)L'enfant sauvage الذي ترعرع، منذ طفولته المبكرة، خارج إطار المجتمع والذي لم يتمكّن من اكتساب أهم المقوّمات الإنسانية مثل النطق والمشي والبكاء والضحك وبشكلٍ خاص، القدرة على التعبير عن مختلف المشاعر التي تعتريه... (لقد كان يمشي ويتصرّف كالحيوانات التي عاش بينها عندما وجده بعض الفلاّحين وأخذه ايتار فحاول تعليمه وتدريبه...).

هذا لأن الوليد البشري يولد مزوّداً بطاقات وإمكانيات واسعة المدى وبقدرات كامنة capacités en puissance لا تتبلور وتنمو إلاّ بتفاعلها واحتكاكها مع المؤثّرات البيئية المختلفة، لكنّها تشكّل النواة والحجر الأساسي لعمليّة التشكيل الاجتماعي التي تحدث لصغير الإنسان الذي يعيش ضمن مجتمعٍ معيّن؛ وبذلك تتّخذ الشخصيّة الإنسانية طابعاً اجتماعيّاً يختلف في مجتمع عنه في مجتمع آخر وفي مرحلة معيّنة من نموّه وتطوّره عن المراحل الأخرى (تكون المؤثّرات البيئيّة بمثابة الأرض الخصبة، كالتراب والماء والهواء والنور لنمو النبتة، لتفتّح قدرات الطفل البشري...).

يتناول المجتمع الفرد، منذ ولادته، ليحوّله من وحدة بيولوجيّة إلى وحدة اجتماعية؛ بمعنى آخر، «إن كل كائن بشري في كل مرحلة من مراحل التاريخ أو ما قبل التاريخ قد وُلِد في مجتمع أخذ في قولبته منذ سنواته الأولى. إن اللغة

التي ينطق بها ليست إرثاً فردياً وإنّما هي اكتساب اجتماعي من الجماعة التي يترعرع بينها. فاللغة والبيئة كلتاهما تساعدان في تحديد ماهيّة فكره. أمّا أفكاره الأولى فتأتيه من الآخرين»[1].

فالإنسان ـ الفرد، كما يقول مالينوفكسي، هو كائن له شكله الفيزيقي وتراثه الاجتماعي وسماته الثقافية بمعنى أن «الطفل حين يولد زنجي الأصل وحين يُنقَل إلى فرنسا فلسوف يشب هناك بطريقة تتمايز تماماً عمّا قد يكون عليه إذا كان هذا الطفل قد نشأ في موطن ثقافته الأصليّة»[2].

وفي هذا المعنى أيضاً يقول ديكارت[3] الفيلسوف الفرنسي: «إن الرجل نفسه بنفس عقله، إذا نشأ منذ طفولته بين فرنسيين أو المانيين فإنّه يصبح مختلفاً عمّا قد يكون لو أنّه عاش بين صينيّين أو كانيباليّين (أكلة لحوم البشر)».

«كما أن الأزياء التي أعجبتنا منذ عشر سنين والتي قد تعجبنا أيضاً بعد عشر سنين، تبدو لنا الآن شاذّة ومضحكة. بحيث تكون العادة والتقليد هما اللذان يؤثّران في آرائنا أكثر من أي علم يقيني».

معنى كل ذلك أن الإنسان في كل زمان ومكان له ثقافته وتراثه الاجتماعي المكوّنان من مجموع المعرفة والمعتقدات والفن واللغة والدين والعادات والتقاليد و. . . التي يكتسبها الفرد بكونه عضواً في مجتمع معيّن، لذا من غير المعقول التفكير بدراسة الإنسان المنفرد إذ يتوجّب قبل كل شيء، البحث في تأثير الحياة الاجتماعية (الهيئة الاجتماعية) في نفسه وفي تكوينه المتكامل (عقليّاً، عاطفيّاً، بيو ـ فيزيولوجيّاً، اجتماعيّاً، اخلاقيّاً، تاريخيّاً. . .) وإلاّ جرّدناه من صفاته الإنسانيّة.

والبيئة الاجتماعية لا تقتصر على الوجود المادّي المؤلّف من أجسام الأفراد

---

(١) ادوار كارّ، ما هو التاريخ؟ ترجمة ماهر كيّالي وبيار عقل، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ٣٣.

(2) B. Malinowski, «Cultures», In: *Encyclopaedia of social sciences, vol. 17, 1936.*

(3) Déscartes (René), «Discours de la méthode», Hachette, Paris, 1937, p. 33.

(الذين يكوّنون المجتمع) وآثارها بل تتعدّاه إلى الـوجود المعنـوي المؤلّف من الأفكار والآراء والمعتقدات والعواطف المشتركة. . . : إنها، إذاً، مجموع ظواهر نفسيّة وماديّة لا معنى للفرد إلاّ داخلها. بمعنى آخر، إن علاقة الفرد بالمجتمع ليست علاقة جوار إنّما هي علاقة تداخل وتفاعل يستقي منها الأفراد عناصر ومعنى حياتهم البشريّة الفرديّة التي تنتقل لهم من الأجداد فينقلونها، بدورهم، إلى الاحفاد. . . وهكذا يتم دوام الحضارة المميّزة لكل مجتمع وكما قال روسّو: لو حذفنا من الإنسان كل ما اتّصل إليه من آثار البيئة الاجتماعية لـرجع إلى صف الحيوان.

ثم إن تأثير البيئة الاجتماعية في حياة الأفراد يبرز عبر عدّة مظاهر أهمّها:

ب ـ **تأثير التربية**: قلنا إن الإنسان يولد ضعيفاً عاجزاً فتهيّىء له البيئة الاجتماعية، عن طريق التربية، أسباب حفظ بقائه ونموّه؛ فالتربية هي وسيلة لإعداد الطفل للحياة وهي طريقة اجتماعيّة بالذات، بها يبلغ الطفل أشدّه ومنها تتألّف شخصيّته وغايتها تكوين إنسان اجتماعي قادر على مؤالفة البيئة والتأقلم معها s'adopter avec elle فعدم القدرة على التأقلم الاجتماعي يُعتبر أهم سمة نفس ـ مرضيّة يشترك فيها مجمل المرضى النفسانيين Les malades mentaux.

عمليّة التربية هي، أساساً، اتّباع وإبداع معاً نظراً لكونها تأخذ بعين الاعتبار وراثة الطفل واستعداده الطبيعي لـدى تنشئتها لـه فتخلق فيه كـائناً جديداً لا تولّده فيه طبيعته الفرديّة إذا لم تتعهّدها التربية بالعناية فتساعدها على التبلور والنمو، لأن الحياة الاجتماعية تقتضي ما لا تقتضيه الحياة الفرديّة. وكلّما تـطوّرت هذه الحيـاة واختلفت عناصرهـا، استلزمت صفات جـديدة لا يتم للأفراد اكتسابها إلاّ بالتربية (تلقائية عفويّة كانت أم إراديّة) التي لابد أن تنقل إلى الأطفال أنماط الحس والتفكير والفعل التي تقتضيها الحياة الاجتماعيّة.

وهي تستخدم، لتحقيق ذلك، طرائق كثيرة متناسبة مـع شروط الحياة الاجتماعية؛ ولّما كانت اللغة، شفهيّة كانت أم خطيّة، وسيلة لانتقال الأفكار من شخص إلى آخر، كان لها في طرق التربية تأثير عظيم حتى لقد قيل: إن نمط

التفكير يختلف باختلاف اللغات وذلك لكون الطفل يكتسب افكار البيئة عن طريق اللغة التي يتعلّمها فتتحد الألفاظ عنده بالمعاني ويتقيّد تفكيره(١).

ليس للشخصيّة الإنسانية في الواقع نمط فطري متحجّر تثبت عنده ولا تتعدّاه مهما كانت الظروف البيئيّة التي تتعرّض لها وتتفاعل معها، إنّما هي مرنة souple يستطيع الإطار الحضاري أن يغيّر منها وأن يشكّلها التشكيلات التي يرغب فيها (حتماً ضمن حدود قدرات الفرد وفرادته).

وكما يقول النجيحي: «تعتمد التربية في إداء وظيفتها وفي تحقيق أهدافها على عجز الوليد البشري ومطاوعة الشخصيّة الإنسانية، إذ أن التربية، بدون هاتين الصفتين اللتين يتمتّع بهما الوليد البشري دون غيره من أفراد التجمّعات تحت ـ البشريّة، لا تستطيع أن تقوم بالتشكيل والإعداد اللذين ترغب فيهما، على أن هذا التشكيل وهذا الإعداد لا يتمّان إلاّ في وسط اجتماعي بعوامله ومقوّماته المختلفة. . .» «فنمط الشخصيّة الذي يتميّز به فردٌ من الأفراد والذي هو نتاج التربية التي مرّ بها، ما هو إلاّ نتيجة تفاعل طبيعته الإنسانية والعوامل البيئية»(٢).

بمعنى آخر نقول: إن السلوك البشري هو نتاج التفاعل بين الطبيعة الإنسانية وبين البيئة الاجتماعية. لذا من الخطأ الفادح ردّ السلوك إلى الذات وحدها كما تقول بعض النظريّات، أو إلى البيئة الاجتماعية وحدها كما تقول بعض النظريّات الأخرى، فالسلوك وظيفة اجتماعية تجمع بين الذات والبيئة الاجتماعية في تفاعل مستمر. . .

وعلى هذا، لا تستطيع التربية القيام بوظيفتها دون هذا التفاعل بين الذات الإنسانيّة (المتميّزة بالطواعيّة والمرونة في الشخصية الانسانية) والظروف الاجتماعية التي يجب ان تتميّز، هي ايضاً، بقدر كبير من المرونة كيما تتمكّن من التعامل الفعّال مع تنوّع الأفراد الإنسانيين واختلافهم ومن ثمّ احتوائهم.

(١) جميل صليبا، علم النفس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢، ص ١٠١.
(٢) محمد لبيب النجيحي، الأسس الاجتماعية للتربية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ٥٠.

لذا يجب تشكيل البيئة الاجتماعيّة وإعادة تشكيلها على الدوام كما يحدث مع الشخصيّة الإنسانيّة التي نشكّلها ونعيد تشكيلها على الدّوام في مراحل نموّها المختلفة إذ علينا احترام الماضي، لا من أجل التقوقع فيه، بل من أجل بناء حاضرٍ غنيّ بالخبرات يؤدّي إلى مستقبلٍ أفضل؛ فالتقوقع في الماضي لا يؤدّي إلاّ إلى التحجّر وانعدام التطوّر. ثم إن التعامل مع الماضي يجب أن يتميّز أساساً، كما سبق أن قلنا، برؤية واعية للحاضر والمستقبل وإلاّ أصبح أداة سلبيّة تساهم في التأخّر والتقهقر إلى الوراء، لا أداة إيجابيّة تمكّن من التطوّر والتقدّم إلى الأمام.

والفرد كالمجتمع، كلاهما يتعرّض للموت المعنوي والتخلّف والارتداد والرّجعة إذا ما توقّفا عن بذل الجهود ومتابعة الجد ومواصلة السير. لأن سير الركب التقدّمي والحضاري لا يسمح قط بالتوقّف والاكتفاء بما توصّل إليه الإنسان أو المجتمع؛ ففتور الجهد الحضاري هو دائماً مقدّمة لتسلّط العوامل الرجعيّة ولبروز القوى البدائية التي تظل متيقّظة متأهّبة للظهور والانقضاض على الجسم الحضاري في أي وقت يعتري فيه الإنسان أو المجتمع ضعفٌ أو انحلال «الاكتفاء هو دائماً بداية الانكفاء».

وكما يقول النجيحي (سبق ذكره، ص٥٣) «نحن إذا نظرنا إلى البيئات الاجتماعيّة في العصور التاريخيّة المختلفة لوجدنا أن البيئات التي تتميّز بدرجة كبيرة من المرونة ومن القابليّة للتغيّر والتطوّر هي البيئات التي قامت فيها التربية بوظيفتها، إذ ذاك، خير قيام وهي البيئات التي نمت فيها الحضارات الإنسانية وتطوّرت وتقدّمت وأشعّت على غيرها من أضواء تقدّمها في مناحي الحياة المختلفة؛ ولوجدنا، أيضاً، أن البيئات المتحجّرة الجامدة ذات النمط الحضاري الثابت كانت سبباً معوقاً لقيام التربية بواجبها ولتحقيق أهدافها وبذلك وقفت الشخصيّات الإنسانيّة عند حدّ معيّن من نموّها، بل وقفت أيضاً الحضارات في هذه المجتمعات في موقف معيّن لا تتعدّاه، حتّى أتيح لها أن تتّصل بغيرها وأن تكسر القيود والجمود والثبات وأن تحرّر نفسها بأن تغيّر من مؤسّساتها الاجتماعيّة فتقبل الجديد المتطوّر ليكون بمثابة إنهاض لها...».

والحقيقة أن القدرة على تشكيل الشخصيّة الإنسانيّة من قِبَل البيئة الاجتماعيّة تتم بفضل العوامل التي تتضمّنها هذه البيئة والتي تجعل من عمليّة التشكيل الإنساني الذي تقوم به التربية عمليّةً صعبة أو سهلة: فالنظم السياسية والاقتصادية والعلاقات التي تسود بين مختلف أفراد مجتمعٍ معيّن ودرجة الانسجام التي يتمتّع بها هذا المجتمع ومدى تحقيق البيئة الاجتماعيّة لمطالب الفرد وحاجاته. . . ، تشكّل كلّها عوامل تساهم في تسهيل أو تصعيب العمليّة التربوية، وذلك نظراً لكون الفرد السوي (أي المتأقلم مع مجتمعه adapté socialement) يعيش في حالة اتّزان مع بيئته ما دامت تحقّق حاجاته النفسيّة والبيو - فيزيولوجيّة(١)؛ لكن من شأن أي تقصير يحصل من قِبَل البيئة في تأمين هذه الحاجات وإشباعها، خلق حالةٍ من التوتّر وعدم الاتّزان بين الفرد وبيئته.. يحاول الفرد خفضها بشتّى الوسائل المتوفّرة له. . . وإذا كانت الإمكانيّات الموجودة في البيئة لا تمكّنه من ذلك يحدث، عندها، ما يُسمّى بالإحباط؛ وهو على درجات متعدّدة ويؤدّي، إذا ما كان مرتفعاً ودائماً، إلى الحرمان الدائم ذي النتائج الخطرة جدّاً على شخصيّة الفرد.

يعني ذلك أن سلوك الفرد بدأ يجري في مسالك غير ظاهرية أي في مسالك لاواعية ومكبوتة بشكلٍ خاص، بعد أن كان ظاهريّاً واعياً ومقبولاً لدى المجتمع.

من شأن هذا الحرمان الدائم والعميق تنمية السلوك الانحرافي لدى الفرد؛ يتّفق مجمل علماء النفس والطب النفسي على الفكرة القائلة إن الكبت يشكّل سمةً شبه مشتركة في مجمل الأمراض النفسية والعقلية.

على أن هذا لا يعني أن حالة الاتزان بين البيئة والأفراد هي سمة دائمة، إنما هناك موجات تتراوح بين الاتزان وعدم الاتّزان ثم الاتّزان من جديد. . .

---

(١) نستعمل دائماً تعبير «البيو - فيزيولوجيّة» وذلك للتذكير بدورين أساسيّين: دور عضويّة الجسم من الناحية البيولوجية (المكوّنة من تكامل أعضاء مختلفة كالقلب والدماغ والمعدة والشرايين والأذن و. . .) من جهة، ودور وظائفيّة هذه الأعضاء من الناحية الفيزيولوجية حيث لكل عضوٍ وظيفته الخاصّة والمميّزة، من جهة أخرى.

وهكذا دواليك. . . . فما يؤدّي إلى نشوء الأمراض النفسية هو، كما سبق أن قلنا، حالة عدم الاتّزان الدائمة خاصّةً أن بعض أنواع الحرمان (الحرمان من الحاجات المعتبرة ككماليّات مثلاً وليس الحرمان من الحاجات الطبيعيّة كالأكل والشرب والعناية والعطف والحب. . . الضرورية لنمو صغير الإنسان) يشكّل ضرورة ماسّة في التربية لأن تأمين جميع مطالب الإنسـان يؤدّي إلى التراخي والكسل إذ أنّ ردّات الفعل الجديدة (الإبداعيّة والخلاّقة) لا تولد عند الإنسان إلاّ إذا أخفقت الأفعـال والنشاطـات المعتادة في تـأمين الإشبـاع (أي إشبـاع الحاجات)، لذا يجب أن يتوفّر في التربية (عائليّةً كانت أم مدرسيّة أم. . .) عنصر الحرمان، إنّما الحرمان المتميّز بطابعٍ مؤقّت وعَرَضي لا الحرمان الدائم، كيـما يستطيع الأهل والمربّون المساهمة في تنمية القدرة على الإبداع عند الطفل. . . .

بمرونة البيئة الاجتماعيّة نقصد قدرتها على توفير نطاقٍ معيّن من الحركـة الحرّة للشخصية الفردية داخل الجماعة التي تنتمي إليها. فبناء وحدة المجتمع لا يعني ذوبان الأفراد الذي يكوّنونه فيـه، إذ أن لكل جمـاعة، كـما لكل فـرد، اتّجاهات خاصّة بها، إنّما يعني تحديد الإطار العام والشامل الذي يؤمّن لكل فرد القدرة على الحرّية الحركيّة داخله. وبمعنى آخر، تسمح البيئة الاجتماعيّة المرنة بقيام إطار ثقافي فردي، يساعد الفرد على ممارسة وتطبيق قدراتـه وإمكانيّـاته الخاصّة بحريّة نسبية في هذا الإطار الخاص، وإلاّ حدّدت البيئة نمو الشخصيّات الإنسانيّة وقيّدت حركة الأفراد داخلها، إذا ما حدّت من وجود هـذا الإطار الثقافي الخاص:

فالإنسان، منذ ولادته، ينمو في الناحيتين الفرديّة والاجتماعيّة معاً. وانتماء الشخص إلى الجماعة التي ينشأ داخلها ويكتسب قيمها وعاداتها وأخلاقها. . . لا يعني أن يتّفق معها بالضرورة في جميع أهدافها وقواعدها واتّجاهاتهـا وأساليب الحياة والتفكير فيها، بل إن الفرد كلّما نما وازداد معرفةً وثقافةً وتفكيراً. . . ، على مدى الأيّام، اختطّ لنفسه أهدافاً خاصّة به لا يشترك فيها مع غـيره من أعضاء الجماعة وكانت له اتّجاهاته الخاصّة ومثله العليا الشخصيّة.

تجدر الإشارة إلى ملاحظة هامّة جدّاً تكمن في الخطورة البالغة التي يمكن

أن تنتج عن تضييق الإطار الثقافي الخاص من قِبَل البيئة الاجتماعيّة إذ من شأن ذلك دفع الأفراد إلى الضيق بها والبحث عن غيرها أو العمل على تدميرها أو الثورة عليها أو. . . (أمثلة الثائرين والمدمّرين الذين ذكرهم التاريخ أكثر من أن تُعَدّ أو تُحصى. . . .)

يُستنتج من ذلك، أن هناك ارتباطاً ديناميأ جدلياً، بين ظروف البيئة الاجتماعيّة (بما توفّره من إمكانيّات ومقوّمات تسمح للأفراد بتحقيق طموحاتهم. . .) وبين الانزلاق في طريق الأمراض النفسية نظراً لما للسلوك المكبوت في أعماق لاوعي الأفراد من أهميّة في تسيير سلوكهم الظاهر والواعي. . . إذ من شأن الكبت والحرمان الدائمين إصابة الفرد بتوتّرات وصراعات وقلق ومظاهر عصبيّة متنوّعة تؤثّر في سلوكه الظاهر فتؤدّي به إلى الانحراف. . . وكما يقول جون ديوي Dewey[1] «الكبت ليس معناه الإبادة وليس لدينا القدرة على محو الطاقة النفسية أكثر من قدرتنا على محو ما يُعرَف بالأشكال الفيزيقيّة، فإذا لم تنفجر هذه الطاقة النفسية ولم تنحرف فإنّها تتّجه إلى الداخل، وتعيش حياةً تحتيّة متّصلة متصنّعة. . . والنشاط المكبوت هو سبب كل أنواع الأمراض العقلية والأخلاقية».

يُقصَد بهذا القول أن ما يُكبت لا يُلغى أو ينعدم بل يظل ناشطاً في أعماق لا وعي الإنسان، يتحيّن الفرص للظهور من جديد، فيظهر غالباً تحت أشكالٍ ملتوية، على حد قول فرويد، مثل زلاّت اللسان lapsus، وأحلام اليقظة و. . . . وهو يتطلّب نشاطاً نفسيّاً دائماً يضطر الفرد لبذله كيما يتمكّن من مقاومته ومنعه من الظهور؛ يشكّل هذا النشاط هدراً لجزء كبير من طاقة الفرد النفسية إذ، لولاه، لكان من الممكن استغلاله وتوظيفه في نشاطاتٍ وأعمالٍ فعّالة. . .

وما يُكبَت يشكّل، غالباً، تلك المشاعر والنشاطات والأعمال الفردية غير

---

(١) جون ديوي J.Dewey «الطبيعة الإنسانية والسلوك البشري»، ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيحي، القاهرة، ١٩٦٢، الجزء الثاني، الفصل السادس.

المقبولة من قِبل المحيط (البيئة الاجتماعيّة)، لذا يضطرّ الفرد إلى كبتها نظراً لحاجته الماسّة لتقبّل محيطه له كعضوٍ من أعضائه...

تتّضح، إذاً أهميّة البيئة الاجتماعيّة وأثرها كعامل من العوامل التي تعتمد عليها التربية في تشكيل الشخصيّة الإنسانيّة وتكوينها... . لذا، على هذه البيئة أن تكون على مستوى المسؤوليّة الملقاة على عاتقها؛ بمعنى آخر، عليها أن تكون مرنة بحيث تضم الإطار الحضاري العام وتسمح، في الوقت نفسه، بتحقيق رغبات مختلف الأفراد والطبقات داخل هذا النطاق العام فيتحقّق، بذلك، التكامل الاجتماعي داخل المجتمع وهذا يُقلّل من فُرَص ظهور التوتّرات ومظاهر السلوك الانحرافي فيؤدّي، بالتالي، إلى اندماج الفرد في المجتمع والتكيّف معه adaptation sociale عن إرادة ووعي وإيمان بأهدافه وقيمه وليس نتيجةً للضغط والقهر والقوّة الممارسة عليه من قِبَل المجتمع.

خلاصة ما سبق ذكره يتجلّى بوضوح في ما قاله الدكتور النجيحي (سبق ذكره، ص ٦١): «هناك ثلاثة أسس هامّة تستغلّها التربية لأداء وظيفتها ولتحقيق أهدافها من تطبيع اجتماعي للشخصيّة الإنسانيّة وإكسابها نمطاً معيّناً واتجاهات معيّنة وقيماً وسلوكاً ترتفع بها من مستوى الفرديّة البيولوجيّة إلى مستوى الشخصية الإنسانية السيكولوجيّة والاجتماعيّة وإلى وحدة المجتمع وإبراز النمط الحضاري الذي يسود هذا المجتمع وإلى تحقيقٍ لتكامله وإلى معرفةٍ لأهدافه التي يتّجه إليها بكل أفراده وهيئاته لتحقيقها. وهذه الأسس التي تعتمد عليها التربية وتستغلّها هي، عجز الوليد البشري ومطاوعة الشخصيّة الإنسانيّة وهما مقوّمات من مقوّمات الفرد الإنساني يتميّز بهما عن سائر الكائنات الحيّة الأخرى، ثم البيئة الاجتماعيّة بما فيها من جماعات ومؤسسات اجتماعيّة وتقاليد وعادات وأساليب وسلوك، ممّا لا بدّ منه لكي تكتمل الشخصيّة الإنسانيّة وتستوي بصفاتها الإنسانيّة المعروفة».

بالعودة إلى مظاهر تأثير البيئة الاجتماعيّة في حياة الأفراد نذكر، إلى جانب تأثير التربية :

- **تأثير الحياة الاجتماعيّة في العقل**: لا يستطيع الإنسان التجرّد عن تأثير البيئة الاجتماعيّة لأن هناك تصوّرات عامّة وآراء مشتركة بين الناس تؤثّر في تفكيره فلا يستطيع التمييز بين: الخير والشر، المقبول والمرفوض، المُستحَب والمكروه، . . . ، إلاّ في إطار الحياة الاجتماعيّة. ولقد قيل إن هذه المعاني تختلف باختلاف الجماعات البشريّة والأجيال والتربية. . . (ما يُعتبر خيراً بنظر الرجل البدائي قد لا يُعتبر كذلك، مثلاً، بنظر الرجل المتمدّن، والممكن بنظر الطفل يختلف عن الممكن بنظر الراشد، . . .).

- **تأثير الحياة الاجتماعيّة في الأفعال**: تختلف أفعال الإنسان وتتبدّل بتبدّل الحياة الاجتماعيّة لدرجة رأى معها مارسيل موس Mauss وليفي برول Bruhl أن الإنسان البدائي مصهور في البيئة الاجتماعيّة وأن بوادر إحساساته وانفعالاته وأفعاله مختلفة عن بوادر الإنسان المتمدّن، ذلك لأن البيئة الاجتماعيّة تضيّق عليه الخناق وتقيّده باعتبارات الدين والأخلاق والآداب والأزياء وهذا جارٍ في كل عصر. إنما تضييق البيئة على الإنسان البدائي أظهر وأقوى منه على الإنسان المتمدّن نظراً لضعف شخصيّة الأوّل تجاه الشخصيّة الجماعية. . . . ينتج عن ذلك ارتباط أفعالنا بالأوضاع الاجتماعيّة المحيطة بنا ارتباطاً وثيقاً، لذا نجد أن لكل زمان أنماطاً من الفعل وضروباً من السلوك تتناسب مع شروط حياته.

- **تأثير الحياة الاجتماعيّة في العواطف**: للحياة الاجتماعيّة، كذلك، تأثير في عواطف الإنسان؛ فعواطف الإنسان الحديث تختلف عن تلك التي كان يشعر بها الإنسان البدائي (إن بالنسبة للعواطف الوطنية والقوميّة أو بالنسبة للعواطف العائلية والخلقية و. . .). ثم إن هذه العواطف لا تستقر على حال وكذلك القول بالنسبة لصور الحب والذوق وشروط الصداقة وعاطفة الشرف. . . . فهي كلّها في تبدّل يتناسب مع تبدّل الأوضاع الاجتماعيّة عبر الزمان والمكان التاريخيّين.

لقد اختلف تعليل أسباب هذا التأثير وعلله باختلاف المذاهب: فالمذهب النفسي psychologisme يقول بانحلال الأمور الاجتماعيّة إلى عناصر نفسية

بحيث يمكن تعليل كل ظاهرة اجتماعيّة بانتقال الأثر النفسي من شخص إلى آخر بالتقليد imitation والإيحاء suggestion نظراً لكون قوانين الحياة النفسية الفرديّة كافية لإيضاح الأمور الاجتماعيّة. أمّا المذهب الاجتماعي sociologisme فيقول بوجود حياة اجتماعية ذات صفات خاصّة بمعنى أن الأحوال الاجتماعية لا تنحلّ إلى عناصر نفسيّة فرديّة بل تخضع لنواميس جديدة لا توضحها قوانين السيكولوجيا الفرديّة وهي تؤثّر في حياة الأفراد كما تؤثّر الطبيعة في الجسد وعلى ذلك فإن السيكولوجيا تابعة لعلم الاجتماع لأنّه لا يمكن إيضاح الفرد إلاّ إذا نُسِب إلى تأثير الحياة الاجتماعيّة فيه.

إن كلاً من هذين المذهبين غالى في توجّهه إنّما لا يمنع ذلك من كونه ساهم في إيضاح عمليّة تداخل الفرد والمجتمع وتفاعلهما معاً: فالمذهب النفسي يُبيِّن كيف تؤثّر النفس في النفس بالتقليد والإيحاء والتلقين والإقناع والكشف. . . . لكنّه يعجز عن إيضاح جميع الظواهر النفسية. وكذلك القول بالنسبة للمذهب الاجتماعي الذي يُبيّن الأحوال النفسية التي يُكسبها المجتمع لأفراده فتُضَمّ إلى العناصر الفرديّة لتأليف صورة اجتماعيّة للإنسان تكون أكمل وأشمل من صورته الفرديّة، إنّما يبقى عاجزاً عن إيضاح مجمل الظواهر النفسية الفرديّة.

على أنّه يمكن القول إن تأثير البيئة الاجتماعيّة لا يُبطِل، ويجب ألاّ يُبطل (كما سبق أن قلنا) عمل الفرد: فتارةً يكون الفرد منصهراً في البيئة بشكلٍ غير اختياري وواعٍ، بمعنى أن البيئة تضيّق عليه الخناق وتضطرّه للتحلّي، عن غير إرادةٍ منه، بأخلاقها وعاداتها وتقاليدها. وتارةً أخرى، يشعر الفرد بكيانه الشخصي فيناهض البيئة بإرادته ولا يقبل بما يصل إليه من العادات و. . . إلاّ بعد إعمال الفكر والرويّة فيها، فيردّها أو يقبلها وذلك بعد الرجوع إلى العقل والتجربة. . . .

ولا يمكن إيضاح الحياة النفسية والشخصيّة بإرجاعها إمّا إلى العامل النفسي وإمّا إلى العامل الاجتماعي بل إلى تفاعل الاثنين وتداخلهما معاً:

فللشخصيّة الواعية والمستقلّة عن الجماعة أثرٌ حيوي وفاعل في الحياة وفي صنع التاريخ والحضارات...

ولا بد هنا أن نقول إن لانبثاق الشعور والوعي والإدراك والحاجة لإثبات الذات وتكوين الشخصية الدور الحاسم في تأمين التطوّر وخلق الجـو الملائم لنشوء الحضارات التاريخية المتعدّدة (انظر فيما بعد أثر الفرد في التاريخ أثـر الأشخاص في تكوين التاريخ).

أبلغ مثال يمكن تقديمه على التفاعل التاريخي القائم بين الفرد (المتميّـز بشخصيّة خاصّة به) والمجتمع، قول إدوارد كار (سبق ذكره، ص ٣٥) التالي: إن «الطبيعة البشريّة» تلك الكينونة المحيِّرة، قد تغيّرت كثيراً من قطر إلى آخر ومن قرن إلى آخر بحيث أصبح من الصعب أن لا نعتبرها ظاهرة تاريخيّة كوّنتها الظروف والمعتقدات الاجتماعيّة السائدة». وفي هـذا المعنى، يقول ق. زريق («في معركة الحضارة»، سبق ذكره، ص ٩١): «... إن الحضـارات تتبدّل وتتغـيّر فتتغيّر معهـا المفاهيم والأخـلاق والعادات والأنـظمة. وهي في بعض الظروف والأحوال أشد تبدّلاً وأسرع تحوّلاً مّما هي في ظروف وأحوال أخرى. كذلك، وجب عند النظر في أي مظهر من المظاهر الحضاريّة في زمن معيّن أن يُعتبر من وجهتين: من وجهة الحضارة التي يمثّلها ومن وجهة «المـرحلة» التي تجوزها تلك الحضارة أو «الدور» الذي تعيشه في ذلك الزمن بعينه».

خلاصة القول إن العلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع لهي علاقة تفاعل وتبادل مستمرّين؛ أي بمعنى آخر، علاقة تبادل بين «الفرديّة» individualité من جهة والبنية الاجتماعيّة structure sociale من جهة أخرى:

٢ ـ الفرديّة:

الفرد هو، كما رأينا، ذلك الإنسان المتميّز بشخصيّة خاصّة به فريدة من نوعها وتميّزه عن سائر الأفراد. فالميزة الأساسيّة للشخصيّة الإنسانيّة تظهر أوّلاً في الفرادة التي تميّزها عن غيرها بمعنى أننا لا نجد أنفسنا أبداً تجاه الإنسـان بشكلٍ عام مهما كانت الوظيفة التي نشغلها أو نحمل الوراثة نفسها أو ننشأ

ضمن البيئة الاجتماعيّة نفسها؛ إنّنا لنجد أنفسنا دائماً أمام الإنسان بشكلٍ خاص، أمام فردٍ لغز، أمام مشكلة خاصّة لا يمكن حلّها إلاّ بالرجوع إلى الفرد نفسه. . .

ميزة الإنسان الأولى هي، إذاً، فرديّته، بمعنى أنه فريدٌ من نوعه؛ فإذا عُزِل ضمن الإطار الزمني والمكاني dans le lieu et l'espace نجده لا يشبه بشكلٍ كلّي أي فردٍ آخر، فهو يتصرّف بطريقة خاصّة به (سبق وشدّدنا على هذه الفرديّة ضمن إطار حديثنا حول الوراثة. . .).

الشخصيّة هي، إذاً، فريدة وخاصّة بكل فرد؛ إنّما لا يمنع ذلك اشتراك هذا الفرد بسمات مشتركة مع أفرادٍ آخرين: هذه السمات المشتركة هي التي دفعت العلماء لاستنتاج الشخصيّة القاعديّة personalité de base الخاصّة بمجتمعٍ معيّن.

ثم إن هذه الشخصيّة لا تكوّن فقط مجموعةً من الوظائف بل جهازاً منظّماً متكاملاً حتى وإن كان هذا التكامل غير محقّق أحياناً كما في الحالات المرضية؛ المهم هو، على الأقل، فكرة المركز المنظِّم. كما أنها مؤقّتة temporelle، أي أنها، دائماً خاصّة بفرد يعيش تاريخيّاً. لكنّنا لا نستطيع اعتبار الشخصيّة كظاهرة بحد ذاتها لأنّها ثمرة التنظيم التصاعدي للكائن البشري الذي يتطوّر، حسب بياجيه، من محوريّة تامّة حول الذات égocentrisme complet إلى الإحساس بالغير sentiment d'altruisme، حيث لا تزال القواعد المتأتّية من البيئة الاجتماعيّة غير منصهرة بعد مع **الأنا** Le Moi المميِّزة للشخصيّة حتّى ينتهي بالاستقلالية Autonomie وتعني احترام القواعد الاجتماعيّة عن اختيار ووعي من قِبَل الفرد.

الاستقلالية هي الحلم الذي يصبو إليه كل إنسان، لكن طريق الوصول إليها متشعِّب، شاق وطويل إذ على الطفل البشري الانتقال، تدريجاً، من الامتزاج والخلط بينه وبين الآخرين إلى الإحساس بالآخرين ورؤية نفسه مختلفاً عنهم فيعي، عندها، أن الآخر مختلف عنه (ليس هو نفسه)، ثم يُدخِل القواعد

الاجتماعية الممثّلة بالأنا الأعلى Sur moi إلى ذاته، فتصبح جزءاً منه ويضيف إليها هو من خاصيّته وعنديّاته: فاحترام القاعدة يتطلّب من الإنسان (أو الطفل) إحساساً بوجودها وأهمّيتها كي يُدخِلها، شيئاً فشيئاً، حتى تصبح جزءاً لا يتجزّأ من ذاته partie intégrante de soi.

من هنا يُفهَم التعريف التالي المُعطى للشخصية والذي يأخذ بعين الاعتبار مجمل العوامل المؤثّرة في تكوينها: «الشخصيّة هي التكامل الجدلي لأبعاد جبلّة نفس - فيزيائية تتدامج اجتماعيّاً ولها تاريخها الخاص وتحقّق الكائن المتموضع بصورة معياريّة في ثقافة اجتماعيّة معيّنة».

يُبرِز التكامل، المذكور ضمن التعريف، واقع التنظيم أو بالأحرى الجهاز المنظِّم المميِّز لكل شخصيّة والذي يتأمّن عبر تبادل جدلي بين الشخص والوسط بمعنى أنّه كلّما قام الشخص بسلوك معيّن يتأثّر بالوسط ويؤثّر فيه وهكذا يُدخِل الجدل الصورة الزمانية - التاريخيّة بحيث أن الصورة ليست مكانيّة ثابتة؛ فلكي نتمكّن من فهم سلوكٍ معيّن علينا تتبّع الحوادث وكيفيّة حصولها والحالة النفسيّة التي تمّت معها، أي يجب الأخذ بعين الاعتبار عوامل متنوّعة ومتعدّدة.

لا معنى لهذا التكامل الجدلي إلاّ لأن هناك أبعاداً متعدّدة لها تأثيرها الفعّال في تكوين الفرد إذ أن شخصيّته مكوّنة من تكامل وترابط عوامل مختلفة: عضويّة (بيو - فيزيولوجيّة)، نفسية - عاطفية، اجتماعيّة - ثقافية، تاريخيّة، ...؛ هناك، كما سبق أن ذكرنا، الجبلّة أي القاعدة البيولوجيّة ذات التكوين الفردي (الخاص والشامل بآن معاً: إن من حيث التركيب الخلوي الكروموزومي أم من حيث الوراثة...) التي تتفاعل مع الثقافة الاجتماعيّة (المميِّزة للمجتمع الذي تترعرع ضمنه) عن طريق التربية ومواقف الأبوين أوّلاً ومن ثم مواقف الآخرين وما يتم عن طريق الاكتساب والتعلّم.

ثم إن لهذا التكامل تاريخاً خاصاً به لأن لكل شخص قصّة حياة خاصّة وكذلك كل شخص يمر بتجارب حيّة وله وعيٌ لذاته؛ فهو يحقّق الدور المطلوب (أو المتوقَّع) منه إنّما بطريقة معياريّة وواعية أي أنه يستوحي هذا الدور من القواعد الموضوعة من قِبَل الثقافة الاجتماعيّة، لكنّه يقوم به عن اختيار ووعي.

هناك مصدر أولي يدفعه إلى القيام بدوره الخاص هو الحاجات (البيولوجية والنفسيّة. . .)، لكن عمليّة إشباعها من قِبَل الفرد تتمّ على ضوء سلّم من المعايير تقدّمها الثقافة الاجتماعيّة فتصبح قيمة هذه الحاجات، بفعل اجتماعيّة الإنسان، ذات مصدر آخر هو الحاجة إلى تحقيق هذه المعايير الموجودة في المجتمع؛ تُعتبَر هذه الثقافة الاجتماعيّة من محدّدات الشخصيّة منذ الولادة حيث يتأثّر الإنسان بثقافة مجتمعه (عن طريق التربية والأهل. . . ، كما سبق أن قلنا).

هناك، إذاً، أربعة أبعاد (يشتمل كل منها على عدد لا يُحصى من العوامل) تشكّل الهيكل الأساسي لشخصيّة الكائن البشري: البعد البيو - فيزيولوجي، البعد النفسي، التدامج الاجتماعي ويفترض ضمناً الثقافة الاجتماعيّة، والبعد التاريخي الذي يمثّل ما يحياه الإنسان ويعيشه في حياته الخاصّة. لكن هذه الأبعاد لا تعدو كونها إمكانيّات فقط لسلوكه اللاحق؛ فهي تظهر وتنمو وتُستغَل بتفاعلها مع المؤثّرات البيئيّة المختلفة، وبذلك تكون «الشخصيّة الإنسانيّة هي نتاج هذا التفاعل المستمر بين الطبيعة الإنسانية وبين العناصر البيئيّة المختلفة» (النجيحي، سبق ذكره، ص ٤٦).

يُستخلَص من كل ذلك أن ميزة الشخصيّة الأساسيّة تكمن، إلى جانب فرادتها، في طواعيتها ومرونتها وهذا ما يسمح لها بأن تتّخذ أشكالاً تتلاءم مع النمط الحضاري الذي يسود المجتمع الذي نشأت فيه وبهذا يبدو مفهوم مطاوعة الشخصيّة الإنسانيّة، ضرورة ماسّة للتكيّف مع الأنماط الحضاريّة المختلفة السائدة في المجتمعات كما أنّه يدلّ على سعة إمكانيّات هذه الشخصيّة وشدّة مرونتها.

يبدو التلاؤم مع النمط الحضاري السائد في المجتمع (بمختلف مستويات نشاطاته الاجتماعيّة) هو المسؤول عن الشموليّات والعموميّات أي العناصر المشتركة الموجودة عند مختلف أفراد المجتمع الواحد نظراً للاستعدادات والاتّجاهات والقيم والمعايير والعادات (الحركية والذهنية) التي يشتركون جميعاً بها؛ هذا التلاؤم الناتج عن طواعيّة ومرونة الشخصيّة الإنسانيّة هو العنصر

الرئيس المكوّن لوحدة المجتمع وتكامله.

ثم إن النمط الحضاري السائد يختلف من مجتمع لآخر كما أنه يختلف باختلاف المراحل التي يمر المجتمع بها... أي أنّه يخضع للتغيير والتطوّر كيما يتلاءم مع مطالب الحياة والتطوّر (خصوصاً تطوّر العلوم في أيّامنا الحاضرة) ومطاوعة الشخصيّة تكسبها القدرة على التأقلم مع هذا التطوّر والتغيير.

ففرديّة الشخصيّة الإنسانيّة لا تتبلور، إذاً، إلاّ ضمن إطار المجتمع الذي تنشأ فيه. وهذا المجتمع لا يعني فقط مجموعة الأفراد الذين يكوّنونه بل يعني، بشكل خاص، تلك البنية الاجتماعية المكوِّنة من تفاعل وتكامل مختلف مؤسّساتها (المؤسسة التربويّة تكوّن واحدةً منها).

٣ ـ البنية الاجتماعية Structure sociale

من غير الممكن لمجموعة كبيرة من الأفراد العيش جنباً إلى جنب دون أن يكون هناك مؤسّسات تحدّد لكل منهم الوظائف الأساسية التي عليهم القيام بها وإلاّ سادت الفوضى في المجتمع. لا بد إذاً من وجود بنية من شأنها تنظيم مختلف الوظائف التي تؤمّن بتكاملها، سير المجتمع ووحدته: مولد الطفل، تطبيع وتدريب الأفراد، العمل لكسب العيش، السيطرة الاجتماعيّة على أفراد الجماعة، العلاقة بين مختلف الأفراد وبين الفرد والقوى العلويّة (الدين)،... .

من الوسائل التي تعتمدها المؤسّسات الاجتماعيّة لتنظيم المجتمع وتنسيق علاقات أفراده بعضهم ببعض وعلاقاته بالمجتمعات الأخرى نذكر أهمّها: الشرائع والقوانين التي تتميّز بروح وأصول وقواعد مستمدّة من اتّجاهات المجتمع وخبراته ومكاسبه الحضاريّة والتي تتأثّر وتؤثّر في أنواع التنظيم السائدة بالمجتمع وتتكيّف معها كما تعمل على تكييفها.

من أنواع التنظيم نذكر: **التنظيم السياسي** وما يتّصل به من شؤون الحكم والإدارة (وهي على أشكال مختلفة منه الملكي ومنه الديمقراطي والديكتاتوري والجمهوري و...). يعتبر بعض المؤرّخين هذا التنظيم من أبرز مظاهر الحضارة حتّى أنّهم صنّفوا الحضارات على أساسه؛ لكن، إن لم يكن بهذه الأهميّة

فممّا لا شك فيه أنّ له دلالته الهامّة على الأوضاع الحضاريّة وكذلك القول بالنسبة لفنون الإدارة التي تنشأ عنه وتتّصل به والتي يتّخذها وسيلةً لتحقيق أغراضه، فهي مثله تعكس لون الحضارة وتختلف باختلافه.

نذكر أيضاً التنظيم الاجتماعي الذي ترتسم به ملامح المجتمع ككل: ما نوع هذا المجتمع: مدني، قومي، ديني، قَبَلي، ...؟ وما الرابطة التي تربط بين مختلف أفراده: النسب؟ اللغة؟ الدين؟ الحكم المشترك؟...

إن خصائص هذا التنظيم، أكان من حيث طبيعته الشاملة أو وحداته ومراتبه الداخلية أو نوع الصلات التي ينشئها بين أبناء المجتمع... هي صورة من صور الحضارة بمعنى أننا لا نتمكّن من تبيّنها إذا لم نُحِط بهذا التنظيم وندركه.

هناك أيضاً التنظيم الاقتصادي الذي يرتبط بقدرة المجتمع التقنيّة التي تتولّد للإنسان وللمجتمع نتيجة استغلاله للموارد الطبيعية قصد ضمان العيش وكفالة الرزق. فالمجتمعات تختلف في هذا المجال: هناك المجتمع الزراعي والتجاري والصناعي كما أن هناك المجتمع الإقطاعي والرأسمالي والاشتراكي؛ وهي تختلف، أيضاً، من حيث مدى السلطة أو المرتبة التي تتمتّع بها سائر الفئات المنتجة أو غير المنتجة. لهذا الاختلاف أثره الذي لا يُنكَر في التنظيمين الاجتماعي والسياسي.

لا جدال في أن هذا التنظيم يشكّل وجهاً من الوجوه التي تتمثّل بها أيّة حضارة من الحضارات.

تجدر الإشارة هنا إلى التمييز بين المفهوم concept والتكوين structure في المؤسّسة الاجتماعيّة نظراً لأنها، كما يقول النجيحي (سبق ذكره، ص ٦٤) «جزءان من كلّ وظيفي متكامل لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. فالمفاهيم الخاصّة بالمؤسّسات الاجتماعيّة الأساسيّة تتضمّن أهداف وأغراض الحياة الاجتماعيّة نفسها؛ أما تكوينها فيتضمّن الأشكال المختلفة التي يمكن أن يتّخذها هذا المفهوم في المجتمعات المختلفة». الأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها: الدين

ويكمن مفهومه في كونه واسطة اتّصال بين الفرد والقوى العلويّة وتشترك فيه مجمل المجموعات البشرية؛ أمّا تكوينه فيختلف من مجتمع لآخر على أساس ما تعتنقه هذه المجتمعات من أديان قد تكون سماويّة أو أديان أخرى بدائية؛ . . . .

مثال آخر، الحكومة: يكمن مفهومها في كونها مؤسّسة اجتماعيّة لتنظيم العلاقة بين الحاكمين والمحكومين وبين الأفراد بعضهم مع بعض؛ أمّا تكوينها فيختلف، من حيث الشكل، من مجتمع لآخر (هذا مجتمع ديمقراطي وذاك ديكتاتوري، هذا جمهوري وذاك اشتراكي، . . .).

يمكن القول، على ضوء ما سبق ذكره، إن الفرديّة (الشخصيّة الإنسانيّة) والبنية الاجتماعيّة هما ظاهرتان تاريخيّتان وذلك باتّفاق مجمل العلماء والمؤرّخين. وهكذا يتبيّن بوضوح أثر التاريخ في تكوين الفرد الذي هو عضو من أعضاء المجتمع: فمهما تغيّرت أنواع المجتمعات واختلفت (زمانيّاً ومكانيّاً)، يبقى الإنسان - ذو الشخصية الفرديّة - وحده هو الغاية وكل ما عداه سبيل ووسيلة يمكّنان من معرفته وإدراكه بشكلٍ أدق وأعمق. فالقيم الحضارية هي قيم إنسانيّة ذاتيّة، وإنسانيّة القيم تكمن، في الحقيقة وكما سبق أن قلنا، في كونها لا تنحصر في الأقوام الذين نشأت فيهم بل تتعدّاها إلى سواها لأنها تعبّر عن حاجات ونزعات بشريّة أصيلة تخاطب الإنسان من حيث هو إنسان.

إلى جانب أثر الجغرافية والوراثة والبيئة الاجتماعية. . . كعوامل جوهريّة في التاريخ محدِّدة وفاعلة في تكوين الفرد وتطبيعه (نفسيّاً وذهنيّاً وعقليّاً واجتماعيّاً. . .)، للتاريخ أثرٌ هام جدّاً يكمن في مساهمته بتكوين جوهر الفرد ومساعدته على التحرّر. يجدر بنا التوقّف عنده لاستكمال هذا الجزء (من كتابنا) الذي يتناول أثر التاريخ في الفرد:

- أثر التاريخ في تكوين جوهر الإنسان - الفرد ومساعدته على التحرّر

أ - أثر التاريخ في تكوين الانسان بشكل عام:

أهم آثار التاريخ تكمن في النفاذ إلى جوهر الإنسان (الذي يُعَد لبّ التاريخ) فرداً ومجموعاً: الإنسان شاعراً ومفكّراً، مغتبطاً ومتألّماً، جاهداً

وخاملاً، غالباً ومغلوباً، حريصاً على العيش وخائفاً من الموت، متأثّراً بما حوله ومؤثّراً فيه؛ كما تكمن في الغوص في حقيقة هذا الكائن الفعّال والمنفعل، المؤثّر والمتأثّر، أي هذا الكائن المتّصل، بشكلٍ وثيق، بالجماعة التي يرتبط بها ويتفاعل معها: فلئن كان شعور الإنسان وتفكيره واختباراته وليدة طبيعته التي يتميّز بها عن سائر الكائنات، فهي، أيضاً، وليدة صفاته الاجتماعيّة والتفاعل الدائم ضمن مجتمعه وبين مجتمعه وسائر المجتمعات.

من هنا، اهتمام التاريخ وحرصه على وضع الإنسان في حيّزه الاجتماعي ليستطيع، بالتالي، إدراك العلاقات التي تربطه بما حوله وأثر هذه العلاقات في تكوين معتقداته وأساليب فكره وعمله: فالإنسان، كما قال أرسطو، حيوانٌ ناطق ولكنّه حيوان سياسي (اجتماعي) أي أن المعنى الأوّل (النطق) لا يتحقّق، فتتحقّق بالتالي إنسانيّة الإنسان، إلاّ بالاجتماع (سبق أن شدّدنا على ذلك لدى إعطائنا مثل الطفل المتوحش)؛ لذا من شأن أي محاولة لعزل الفرد عن مجتمعه، الإخلال بمعنى الحياة الإنسانيّة وتجاوز سننها الطبيعيّة نظراً لكون هذه الحياة كياناً عضويّاً متماسكاً يأبى البتر والانقسام.

ولئن اختلفت آراء الباحثين، كما سبق أن قلنا، في تأكيد هذه الحقيقة بضم الناس إلى قبيلة أو طبقة أو مجتمع أو أمة أو حضارة. . . ، فلقد تركّز التاريخ، عندهم، أساساً على إدراك المجتمعات أو الأمم أو الحضارات الماضية في علاقاتها بعضها ببعض وفي تماسك (أو عدم تماسك) تطوّرهم. إنّهم (أي الباحثين) وإن اختلفوا في تحديد ما يعتبرونه «وحدةً حضارية»، فهم شبه متّفقين على جعل الوحدة المختارة، من قِبَلهم، محور الحياة ولبّ التاريخ إذ أن لكل وحدة اجتماعيّة أو حضارية. . . **محتواها الإنساني**، بمعنى أنّها تتألّف من رجال ونساء لهم مشاعرهم وتطلّعاتهم وتأثّرهم بما حولهم وتفاعلهم فيما بينهم. . . ؛ لكنّها لا تستكمل معناها إلاّ إذا وضعناها ضمن إطار وحدة الإنسانية الشاملة عبر الزمان والمكان لأن الحياة تتميّز، بشكلٍ خاص، بالغنى والتشابك والتعقّد: فأي حدث من الأحداث التي توالت أو تتوالى على مسرح الحياة ليس سوى نتيجة عوامل كثيرة متداخلة وملتقى تيّارات تجري من كل صوب وناحية: هل

نستطيع فصل أية قضيّة من القضايا العالمية المطروحة اليوم (كالقضيّة الفلسطينية أو قضيّة التشاد أو أيّة قضيّة أخرى) عمّا يجري في الوضع العالمي من انقسام إلى جبهات متعدّدة واكتساح لتيّارات أيديولوجيّة مختلفة للبشريّة وما وراء هذا كله من أحوال سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وفكريّة ونفسيّة... واسعة المدى، شديدة التداخل تفعل فعلها في كل هذه الأحداث وإن كان فعل كلٍّ منها يختلف عن الآخر، من حيث الأثر، حسب الظروف الزمانيّة والمكانيّة؟ .... بمعنى آخر، كل حدث بشري، مهما ضؤل، هو نتيجة تفاعلات متعدّدة ومتشابكة وليس من السهل استيعاب مضمونه وكشف كل وجوهه.

فضلاً عن ميزة الكشف عمّا في الأحداث من مضمون إنساني ووضع هذا المضمون ضمن إطاره الاجتماعي، للتاريخ، أيضاً، ميزة تناول هذه الأحداث ضمن حيّزها الزمني، بمعنى أن المؤرّخ يتساءل عن الـ«متى» ليربط الحدث بما قبل وما بعد فيركّزه في برهة معيّنة من مجرى الزمن؛ أي أنّه يتناول الحياة في صيرورتها لأن موضوعه ليس جامداً ثابتاً بل هو الأحداث البشريّة التي هي، بحد ذاتها، تغيّر وتبدّل دائمان.

صحيح أن التاريخ يبحث في الماضي الذي هو ماضي الإنسان لكنّه يُعنى، بشكلٍ خاص، بعلاقة التغيّر والتحوّل اللذين تحدثهما الاكتشافات المتعدّدة المُحقّقة والمنجَزة من قِبَل أفراد أو جماعات ينتمون إلى مختلف المجتمعات في حياة الأمم الحضاريّة...

وهو، إلى جانب ذلك، يُحيي الأمجاد الماضية فيركّز، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أصول المجتمع أو الأمّة ويثير الهمم لبناء النهضة القومية: فاتّصال التاريخ بالشعور القومي والأغراض القومية هو من أهم بواعث الاهتمام التاريخي والكتابة التاريخية في العصر الحديث. من هنا اهتمام وعناية المربّين ورجال الدولة والمصلحين به وإدخاله كمادّة رئيسة وهامّة ضمن إطار التربية.

تجدر الإشارة هنا إلى نوعين من الآثار التاريخيّة في الأفراد:

- أثر إيجابي يتجلّى في مساهمة هذا العلم (التاريخ) في بعث الروح القومية

عند مختلف شعوب العالم الحديث ودوره البارز في تكوين الأمم ودفعها إلى الأمام... إذا ما أُحسِن استعماله واستغلاله، الأمثلة على ذلك متعدّدة نذكر اهمّها: الأثر الهام الذي تركته المؤلّفات التاريخية الموضوعة من قِبَل المؤرّخين في الانبعاث القومي بفرنسا وانكلترا وروسيا وألمانيا و... ؛ المقام الذي يحتلّه التاريخ، كعلم (عند جميع الشعوب وخاصّةً عند الشعوب الناهضة) وكمادّة تُدرّس في المدارس والجامعات....

ـ أثر سلبي ويتجلّى في مساهمته، إذا ما أُسيء استغلاله واستعماله، في إثارة الأحقاد والفتن سواء بين أفراد المجتمع الواحد وفئاته أو بين الشعوب وأيضاً في خدمة مصالح طائفية أو طبقيّة أو حزبيّة أو شخصيّة ...، مغايرة لمصلحة المجتمع (أو الأمة) ولخير الإنسانية.

يتوقّف، إذاً، مقدار نفع أو ضرر استخدام التاريخ في سبيل غاية قومية (أو أية غاية أخرى)، على أصالة فهم وإدراك الباحثين والموجِّهين والمربّين لهذه الغاية وعلى نوع الجهد المبذول في استجلائها والسعي إليها... وأفضل سبيل إلى ذلك يكمن في كشف الحقيقة كما هي والسعي إلى فهم الماضي كما حدث فعلاً دون تحيّز أو خوف أو وجل... (سنرى في الجزء الثاني: أثر الفرد في التاريخ، كيف يُفهَم التاريخ نفسه بأشكال مختلفة تتنوّع بتنوّع أيديولوجيّة ونفسيّة ودين المؤرّخ من جهة والقارىء من جهة أخرى).

يقول إدوارد كار (سبق ذكره ص ٤٤) بهذا الصّدد: «إن دراسة الماضي في زمانا الحاضر بعين واحدة إذا جاز التعبير، هي مصدر كل الخطايا والمغالطات في التاريخ. إنها جوهر ما نَعنيه بكلمة «غير تاريخي». وفي مكانٍ آخر من كتابه (ص ٤٧) يقول: «يجب أن يكون التاريخ منقذنا ليس من التأثير المفرط لزماننا فحسب ولكن من التأثير المفرط لذواتنا ومن طغيان البيئة وضغط الهواء الذي نتنفّس».

يُستنتَج، ممّا تقدّم، أن التاريخ يتغلغل بشكلٍ عميق في فكر الإنسان وعاطفته ودوافع سلوكه...، وبمعنى آخر، في شخصيّته المتكاملة. فهو يُكسِب

الفرد نوعاً معيّناً من الثقافة التأريخيّة التي تشكّل خلاصة ما يجنيه الإنسان من الجهد الذي بذله في استكشاف الماضي، والتي تكوّن عاملاً فعّالاً في تكييف اتّجاهه بالنسبة إلى الحياة بأكملها: ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

صحيح أن الإنسان يذكر الماضي ويحنّ إليه لكنّه، في الوقت نفسه، يعيش الحاضر ويخطّط للمستقبل ولعلّ طريقه «المستقبليّة» (حسب تعبير ق. زريق، «نحن والتاريخ»، ص ١٥٨) «أشد تعبيراً عن إنسانيّته وأقوى أثراً في جهوده وحياته». فهو (أي الإنسان)، إلى جانب اهتمامه بالماضي، مشغول بما يعترضه من مشاكل حياتيّة ومتطلّع إلى ما يخبّىء له الغد المجهول؛ لذا نجده يسعى ويجدّ لسدّ حاجاته (الطارئة والدائمة) لكنّه أيضاً يأمل ويخطّط ويبني الغد لنفسه ولأولاده ولقومه وللإنسانيّة و«يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ولآخرته كأنه يموت غداً». فهو ككائن حيّ فاعل يعود للماضي من خلال اهتمامات الحاضر وآمال المستقبل، وهكذا يرقى في مراتب الكيان والحريّة والإنتاج كلما كان تفاعله واعياً وإيجابيّاً ومثمراً بحيث لا يغرق في الماضي فينشلّ نشاطه وحيويّته ولا في الحاضر فيضيق مجال نظره ويعمى عن أصول الأشياء وعللها ولا في المستقبل فتضيع الحقيقة، عنده، في أعماق الخيال والأحلام المتطرّفة التي تتجاوز حدود الواقع وإمكانيّات التنفيذ والتحقيق لما يصبو إليه. . . .

من هنا نفهم مدى تأثير الثقافة التأريخيّة في فكر الفرد ونفسه وذهنه بحيث:

ـ توسّع اختبار الإنسان وتعمّقه لأن نظر الإنسان إلى المشكلة والأسلوب الذي يتبعه في معالجتها وحلّها يغتني بمقدار ما يمرّ في مثل هذه المعالجة مراراً وتكراراً. . . نظراً لما يكتسبه، في تكرار التجربة، من نضج واختبار. ثم إن الثقافة التي يكتسبها تمدّه بإمكانيّة الاغتناء لا من اختباره الفردي فحسب بل، أيضاً، من اختبار الآخرين (أفراداً كانوا أم أجيالاً أم شعوباً أم ثقافات وحضارات. . .) وذلك بفضل ما تمدّه هذه الثقافة من أبعاد لا يستطيع الفرد وحده إدراكها لضيق خبرته وقصر حياته وحدود فهمه وفعله (مهما أظهر من التفوّق بالنسبة لأمثاله من الأفراد الآخرين).

ـ تساعده على إدراك ذاته نظراً لاضطرار الفرد، سواء نظر إلى نفسه كفرد مستقل أو كابن أمّةٍ معيّنة أو كعضو في الأسرة البشريّة، إلى فهم ذاته وأوضاعه على حقيقتها؛ وهو يعود إلى الماضي ليطّلع منه على مجرى الأحداث البشريّة فيساعده هذا الاطّلاع على معرفة نفسه، وكلما ازدادت هذه المعرفة أصبح أقدر على تفهّم كنه الماضي واستخراج العِبَر منه. وهكذا تتفاعل عناصر ثقافته التأريخيّة مع مختلف عناصر شخصيّته الفرديّة بشكلٍ دينامي جدلي نظراً لما تثير فيه هذه الثقافة من رغبة في التساؤل عن نفسه وعن الكون وعن التغيّر والتبدّل والتطوّر والتأخّر الذي يصيب الإنسان والمجتمعات، فيحاول استكشاف الأسباب والعلل الكامنة وراء: تشابهه مع سواه من أبناء مجتمعه في أشياء واختلافه عنهم في أشياء أخرى، تشابه مجتمعه مع سائر المجتمعات واختلافه عنها في أشياء، تأخّره أو تأخّر مجتمعه أو أي مجتمع آخر بالنسبة للسير الحضاري. . . ، فيجد نفسه، بالتالي، مدفوعاً لمجابهة مشكلات الحياة الأساسية وامتحان أوضاعه على ضوئها. . . ؛ وهكذا يضطر للغوص إلى الأعماق ليستكشف الأصول والمنابع ويلتمس الجوهر. . . فيتوصّل، عندها، إلى إدراك ذاته بشكلٍ أوفى وأعمق.

ـ تساعده على تركيز ذاته وتركيز أمته وتوطيد كيانها نظراً لما يبعثه الإحساس بالجذور المتأصّلة والأسس الراسخة الذي يوفّره له تساؤله حول مشكلات الحياة من شعور بالثقة والاطمئنان يمدّه بالقوّة والصلابة والمناعة اللازمة التي تمكّنه بدورها من مواجهة الأحداث التي يمر بها هو وأمّته. فالشعور الواعي بالجذور، خصوصاً إذا كانت هذه الجذور سليمة ونابضة بالحياة، يساهم في تعزيز ثقة الفرد بنفسه. . . ممّا ينعكس إيجاباً في سلوكه فينبث منه إلى من حوله.

وهكذا تؤدّي الثقافة التأريخيّة إلى تركيز حياة الفرد والأمة وتوطيدها عبر تقوية الشعور بالأصالة الفرديّة والقومية والإنسانيّة وتنميته وجعله عامل استقرار وثقة بالنفس، وفي الوقت نفسه مبعث تجدّد وتقدّم. . . .

إنّما لا يتمّ ذلك إلاّ إذا لازم الشعور بالماضي شعورٌ بمدى حدوده أي إذا

تميّزت معرفة الذات بنقد للذات وللماضي معاً لأن الذات، كما الماضي، مزيج من الإيجاب والسلب، من الانطلاق والتقيّد. . . . ؛ فالمعرفة الحقيقية لكل ذلك لا تتم إلاّ بإدراك الناحيتين معاً. لذا يستوجب الإدراك الواعي للذات وللماضي نقداً موضوعيّاً لهما، لكن حاسّة النقد ليست عفويّة فطريّة بل تتطلّب من الفرد (أو المجتمع) القيام بجهد ومشقّة حتى يستطيع الإنسان كسبها نظراً لميله الفطري إلى الوهم والتخيّل وتصديق ما يُقال وذلك لسهولة الوهم والتصديق وعفويّتهما ويسرهما. . . .

في الواقع، يشكّل نقد الذات والماضي أداة إطلاق وتحرير: تحرّر من سطوة الجهل والوهم. . . واندفاعٌ نحو تحرّي الحقيقة مهما كلّفت من مشقّات لأنّها وحدها الكفيلة بتنمية القدرة على المجابهة والمواجهة التي تكسب الفرد المتانة العقلية والخلقية والنفسية فلا يستسلم لأوهام التصديق وسهولته بل يسعى جادّاً لكشف جذور المشكلات وما تخبّئه الحياة دون أن يخشى النقد بل يسلّط عليه الأضواء حتّى وإن تناول أحب الأمور لنفسه وأشدّها اتّصالاً بها إذ يغلب عنده النفور من الخطأ والضلال والحنين إلى الحق والصواب. . . .

وهكذا يساهم التاريخ، إذا ما استُغِل بشكلٍ إيجابي، في رفع مستوى الفرد ذاتيّاً وكيانيّاً؛ أبلغ مثال على ذلك كون المخترعين والعلماء والفلاسفة وجميع من تحرّوا الحقيقة وجدّوا في إنماء ذخيرتها وتعميمها صَنعَة تحضّر وبَعَثَة تقدّم وأرباب تحرير وتحرّر فدخلت أعمالهم وجهودهم في نطاق التراث الحضاري المتراكم. . . لم تستطع الأجيال الماضية ولن تتمكّن الأجيال القادمة من محو آثارها، بل ستظل نبراساً يضيء طريق كل من يريد السّير قِدْماً بالركب التقدّمي للحضارة البشريّة.

ب ـ أثر التاريخ في صنع العظماء

ولا بدّ لنا، في هذا المجال، من التكلّم عن أثر التاريخ في صنع جبابرة وعباقره ينتمون لمختلف الميادين: العسكرية، السياسية، الفنيّة، الأدبية، الاجتماعية، . . . وفي بناء أمجادهم.

هناك، في الواقع، فريقٌ خاص من المبرّزين والمُجلّين من بني البشر الذين خلّدهم التاريخ نظراً للأثر الذي تركوه من بعدهم فانضاف إلى خلاصة التراث الإنساني الباقي، الايجابي منه بشكلٍ خاص؛ من هؤلاء:

فريقٌ من قادة السياسة والحرب العظام الذين غصّ التاريخ بذكر اسمائهم وتسجيل انتصاراتهم في هذه الميادين فأحدثوا في الأرض دوياً ردّدته الأجيال التالية.

فريقٌ من العلماء (في شتّى ميادين العلم المتفرّقة والمتنوّعة) الذين غصّ التاريخ بذكر وتدوين تفاصيل مغامراتهم مع المجهول الذي استهواهم فانبروا لمحاربة الجهل والتفتيش عن الحقيقة جادّين وكادّين للبحث عنها واكتشافها ومن ثم نشرها بين الناس...

هناك أيضاً الفلاسفة الذين حاولوا ربط أجزاء المعرفة بعضها ببعض والتحرّي عن المعاني دون فتورٍ في سعيهم للنفاذ إلى جوهر الأشياء وعللها وفي محاولتهم لمعرفة أسرار الكون وما وراءه...

كذلك القول بالنسبة للشعراء وسواهم من أرباب الفنون الذين تطلّعوا إلى مُثُل الجمال فطمحوا لرفع نفوسهم ونفوس سواهم من البشر إليها.

هناك، أيضاً، أرباب الاختبار الروحي الذين حاولوا جهاد النفس واقتحام سيرها الشاقّ العسير في سبيل الرفعة والصفاء، والمصلحون الاجتماعيون الذين عملوا بجدّ ونشاط، بالرغم من تعرّض حياتهم - في أغلب الأحيان - للخطر وأحياناً كثيرة للموت، لرفع مستوى مجتمعاتهم وإقامتها على أسس المبادىء والعقائد التي من شأنها دفع هذه المجتمعات في طريق التقدّم والتطوّر والتغلّب على الجهل السائد فيها...

نرى في التاريخ ذكراً لكل رائد في ميادين العمل أو الفكر أدّى جهده إلى نوعٍ من أنواع الإبداع والخلق والتجديد... فكان له نصيبه الخاص في مجال الاكتساب الحضاري نظراً لما كشف عنه من معانٍ جديدة للحرّية والكرامة

الإنسانيّة ولما حقّقه هو نفسه، في هذا المجال إن في ذاته أو في سواه من بني الإنسان. . .

إن قول الشاعر الألماني شيلر المأثور «إن تاريخ العالم هو محكمة العالم»، لهو أبلغ تعبير عن قدرة التاريخ في صنع الجبابرة لكونه هو الذي يغربل الآثار الخاصّة التي تركها الأفراد نتيجة ما أقدموا عليه من فكر وعمل فيفصل بين التراث الإيجابي الباقي عبر الزمان والمكان والحافز للتقدم والتطوّر وبين التراث السلبي الزائل والمعيق لهذا التقدّم.

وهنا يتجلّى أثر التاريخ في الفرد بأجلى صوره وأبلغها: فهو في إظهاره التراث الانساني والتحقيقات المبدعة المتكاملة المتراكمة يُبرِز، بشكلٍ خاص، ماهيّة حياة الإنسان كما تجلّت عبر المراحل التي اجتازتها البشريّة حتّى الآن والتي تكمن في حريّة الفرد وقدرته على الاختيار الواعي وفي أثره الخاص في كل ما يقدم عليه. فتقدُّم الإنسانية من حيث مقدرتها العقلية وتسلّطها على الطبيعة بفضل الجهود الإنسانية الجبّارة التي قام بها الإنسان عبر العصور والأجيال هو أبلغ تعبير عن حريّة الإنسان وقدرته على الاختيار وعلى الفعل والتأثير وما يستتبع هذه القدرة من تبعيّة ومسؤوليّة.

وهو يُبرز، أيضاً، معنى الحياة في اندفاعها وفي ارتباط أسبابها ونتائجها: فالحياة لا تُشكّل مجموعة مصادفات ومناسبات وأحداث متناثرة بل إنها تكوّن، على عكس ذلك، وحدة متكاملة لها سننها وقوانينها التي تربط بين أحداثها والتي لا يستطيع الإنسان تجاهلها أو تخطّيها دون عقاب له أو للأجيال القادمة من بعده: فالنتائج الإيجابية وبالأخص السلبية التي يتركها أفراد (أو مجموعة أفراد) مجتمعٍ ما، لا بدّ وأن تبدو آجلاً أو عاجلاً؛ كما لا بد لها أن تترك أثرها الفعّال في الأفراد الذين تتناولهم هذه النتائج (لا يزال الشعب الإلماني حتّى الآن يُعاني من آثار ونتائج النازيّة؛ ولا تزال الحضارة العربية تعاني حتّى الآن من آثار إحراق هولاكو لإنتاجاتها الإنسانية الخيّرة على كل الصُعد وبالأخص على الصعيد الثقافي نتيجة حرقه للمكتبات التي تعجّ بمفاخرها ونتاجاتها المتعدّدة الاتجاهات). . .

يظهر معنى الحياة، بشكلٍ خاص، في تفاوت الأمم والشعوب والأفراد... بالنسبة للتركّز الإيجابي في التراث المكتسَب نظراً لتفاوت هؤلاء الأفراد والأمم... في أصالتهم التاريخية القومية وعراقتهم الإنسانية، وبالتالي تفاوت قيمهم الذاتية ونتائج جهودهم ومساعيهم في ميادين الفكر والعمل الإيجابيين:

في الواقع، لا تتمتّع كل الشعوب والأمم بالتاريخ نفسه بل يمكن القول إن لبعض الشعوب والأمم (كاليونان والمصريين والفارسيين والهنديين...) تاريخاً أعرق من ذلك الذي تتميّز به شعوبٌ أخرى؛ إنّما تجدر الإشارة هنا إلى ملاحظة هامّة جدّاً تكمن في اختلاف أثر التاريخ في الشعوب لأنّه لا يتوقّف على عراقة تاريخها وأصالته فحسب بل، خاصّةً، على صحّة فهمها له وعلى صحّة اتّجاهاتها وأصالة مواقفها الخاصّة في خضمّ التبدّلات الجارفة التي تعصف بها من الداخل ومن الخارج لأن سلامة حاضرها ومستقبلها تتوقّف على القرارات والمواقف التي تتّخذها والتي تُقبِل عليها.

بمعنى آخر، يتوقّف موقف الأمّة الإيجابي من تاريخها على مقدار حرصها في أن يأتي أثر الموقف الذي تتّخذه، أثناء معالجة حاضرها لبناء مستقبلها، إيجابيّاً ومثمراً.

للتاريخ، في الحقيقة، أثران متناقضان: هناك التاريخ العبء الذي يثقل كاهل صاحبه (فرداً أو أمّة) ويجعل إنتاجه هزيلاً وسقيماً، وهناك التاريخ الحافز الذي يدفع إلى الإبداع والتقدّم.

أثر التاريخ ينتج عنه بالذات وعن الموقف الذي يتّخذه الفرد (أو الأمّة) منه: هناك بعض الشعوب ذات التواريخ غير الزاهية والضعيفة ومع ذلك استطاعت أن تبلغ في الحضارة مدى لم تبلغه شعوب أخرى لها تواريخ زاهية، نفيسة وبليغة (أبلغ مثال على ذلك: أوروبا في العصور الوسطى وبلدان الشرق الأوسط، ...)؛ يعود ذلك لكون التاريخ هو هو لا يتغيّر، أمّا الموقف المتّخذ منه فهو الذي يتغيّر لأنّه يتعلّق بمدى وعي الفرد (أو الأمّة) ودرجة استعداد للعمل والنشاط ونوع أهليّته والصفات العقلية والخلقية التي اكتسبها...

يكون التاريخ عبئاً، بالرغم من جلاله، إذا ما استكان الفرد (أو الأمّة) إليه وعاش فيه وتغنّى به. . . فأصبح أسيره لأنّه لجأ إليه، عن وعي أو عن غير وعي، هرباً من هموم وتحدّيات الحاضر مع أن عليه الإنصراف عنه للإهتمام الجاد بالمشكلات التي تعترض حاضره والتخطيط لمستقبله. فبمقدار ما يكون سحر الماضي متسّلطاً على الفرد، حاصراً إيّاه في نطاقه وحائلاً بينه وبين تبيّن الغايات والسبل المرتسمة أمامه، من جهة، والإختيار بين هذه السبل بإدراك ورويّة وإحساس بالمسؤوليّة من جهة أخرى، تضعف حيويّة هذا الفرد وتخف قابليّته للإبداع والخلق.

وكذلك، بمقدار ما ينحصر الفرد ضمن إطار تاريخه الخاص به دون الإهتمام بالصلات التي تربط هذا التاريخ بما قبله فتشدّه إلى ما عاصره وتوثّق الصلة بينه وبين ما جاء بعده، يكون التاريخ عبئاً عليه لأن تواريخ البشريّة مرتبطة بعضها ببعض، ماضياً وحاضراً.

يقول جواهر لأل نهرو(1) في هذا المجال: «إن التاريخ وحدَة منسجمة الأجزاء، ولن يستطيع المرء أن يفهم تاريخ البلد الواحد إذا لم يعرف ما يحدث في الأجزاء الأخرى من العالم». «. . . لا شك أن البلدان تختلف بعضها عن بعض ولكنها أيضاً متشابهة بصورة كبيرة».

هذا إلى جانب وجود ثوابت تجمع بين مختلف التواريخ ومتغيّرات تميّز بينها: فالاختبارات التي تمر بها الشعوب تتشابه في أشياء، نظراً لكونها، أساساً، اختبارات إنسانية متماثلة، وتختلف في أشياء، نظراً لتفاوتها وتباينها تبعاً للظروف المكانية والزمانية ودرجة التطوّر العقلي والروحي عند الإنسان الذي يعيشها. . .

لذا، لا يستطيع أي فرد إدراك تاريخه القومي ادراكاً صحيحاً نيّراً إلاّ إذا وضعه ضمن إطاره الزمني (ماضياً وحاضراً ومستقبلاً) وضمن إطار التاريخ العالمي الشامل لكل الحضارات إذ من شأن ذلك مساعدته على فهم مميّزات

---

(1) جواهر لأل نهرو: لمحات من تاريخ العالم، (نقله إلى العربية لجنة من الأساتذة الجامعيين)، دار الآفاق الأبجدية، بيروت ١٩٧٩، ص ١٢.

وطابع تاريخه الخاص عبر الزمن وعلى فهم صلات هذا التاريخ بتواريخ الشعوب والحضارات الأخرى فيدرك، بذلك، صلات تاريخه القومي بما سبقه وعاصره وماثله وذلك بفضل مقارنته بسواه؛ وهكذا يتمكّن من تخطّي الزمن بدلاً من استعادته والتقيّد به والتوقّف عنده.

وعلى حدّ قول ق. زريق، «إذا ما استعرضنا تاريخ البشريّة بمختلف مراحله ومظاهره وجدنا أنّ سبيل الإنسانية للتقدّم والرقي كان سبيل السيطرة على قوى الطبيعة والأهواء الإنسانية بالعقل المُدرك والروح المتسامية الفاعلة بدلاً من الإنسياق لها والخضوع لسيطرتها بجهل حقيقتها أو تجاهلها» («نحن والتاريخ»، سبق ذكره، ص ٢١٧).

فالموقف الواعي، المُدرِك والمبدع هو، إذاً، ذلك الذي يتّخذه الفرد (أو الأمة) عندما يدرك ضرورة تحرّي حقيقة تاريخه والنفاذ إلى لبّه واتّخاذه كنقطة انطلاق لا مجال اكتفاء وانكفاء إذ من شأن ذلك مساعدته على إعطاء حياته الخاصّة معناها الصحيح والفاعل الذي يطمح على الدّوام إلى تخطّي ذاته عبر العمل الناشط المبدع وهكذا يكون التاريخ حافزاً للإبداع والتقدّم لا عبئاً ثقيلاً يُثقِل كاهل صاحبه.

خلاصة جزئية

لقد استعرضنا أبرز آثار التاريخ في الفرد (أو المجتمع أو الأمّة). من المفيد، في ختام هذا الاستعراض، النفاذ إلى لبّ هذه الآثار ومحاولة جمعها وتلخيصها:

يشكّل تأثير البيئة الجغرافيّة والوراثة في الإنسان ثوابت تاريخيّة تُعتبَر مسؤوله، إلى حدٍّ ما، عن تكوين الطبائع البشريّة الثابتة، نسبيّاً، عبر العصور؛ كما أنها تساهم، بمقدارٍ معيّن في إجلاء أهميّة الطبائع المكتسبة، المتبدِّلة والمتغيّرة، من قِبَل الإنسان ـ الفرد أثناء نموّه (منذ ولادته وحتّى شيخوخته).

ولا نعني بالطبائع البشريّة الثابتة تلك التي تعود، كما قال بعض العلماء

والمؤرّخين (بالرغم من أهميّة وجهة نظرهم وعلميّتها وموضوعيّتها)، إلى أثر عامل البيئة الجغرافيّة أو إلى أثر عامل الوراثة؛ كما حاول كل فريق من العلماء ردّها إليه، بل تعود إلى الصفات الإنسانيّة الشاملة التي تميّز الكائنات البشريّة عن غيرها من الكائنات الحيّة. لكنّ ذلك لا يعني إنكار أهميّة هذه العوامل في تكوين شخصيّة الإنسان ـ الفرد: فكل عامل من هذه العوامل يسهم، بنصيبه، في تكوين الفرد والأمّة وإغناء شخصيّته الخاصّة التي تكوّن، بالواقع، حلقة من حلقات الإنسانية الشاملة بحيث يؤلّف مجموع حلقاتها مجرىً واحداً ينتظم في سلكٍ موحّد هو التطوّر البشري الشامل.

لا بدّ أن نجد تشابهات أساسيّة عند الإنسان أينما كان وحيثما وُجِد ما دام هو نفسه منشيء الحضارات التاريخيّة المتعدّدة وناقلها ومحوّلها، وهو يحتفظ بميزاته الأساسية:

- من تركيبٍ أساسي (بدائي) في بيولوجيّته يعود للنواة الخلويّة المسؤولة عن تكوينه الفيزيولوجي حتى وإن اعترى تركيبه الكروموزومي بعض التحوّل، كما سبقت الإشارة، عبر الزمان وتوالي الأجيال.
- من نزعاتٍ أساسيّة تتنازعه، إن لم تكن هي ذاتها دون تبدّل أو تغيّر فهي، على كل حال، متشابهة متماثلة على اختلاف الأزمان والأحوال: فالإنسان، دائماً، يتأرجح بين الخير والشر، يؤمن ويشكّ، يسعى إلى إثبات ذاته بشتّى الطرق والوسائل، يحاول معرفة الحق وينشد السعادة... ولولا هذا التشابه لما كان هناك تاريخ وتراث إنساني متراكم ينتقل من السّلف إلى الخلف...
- من نظرة إلى الكون ومفهوم للحقيقة أسبغ على الشعوب الرائدة طابعها الحضاري المميّز لها لأن أنواع النظر إلى الحقيقة هي، بالرغم من تعدّدها، محدودة؛ فهي إمّا حسّية أو عقليّة أو إيمانيّة أو تخيليّة...، لكن الوجوه والأشكال التي تتّخذها تبقى، وإن اختلفت، متشابهة ومتماثلة نظراً لكون الإنسان، كما سبق أن قلنا، هو خالقها ومبدعها. وهذا التشابه المبدئي هو الذي يسّر للشعوب والحضارات المختلفة إمكانيّة الالتقاء والتفاهم فيما

بينها. . . مما مكّنها من الأخذ والعطاء والتفاعل والتبادل الـذي يظهـره لنا التاريخ بأجلى مظاهره وأوضح معانيه.

لكن، إلى جانب ذلك، لا بد أن يكون هناك متغيّرات أسـاسيّة عنـد الإنسان الذي يتميّز عن باقي الكائنات الحيّة بقدرته على التعلّم والاكتسـاب والإفادة من الاختبار: اختبـار من سبقه واختبـاره الشخصي بفضل خـاصّيته الإنسانيّة الأولى ـ العقل ـ التي تمكّنه من السعي إلى الحقيقة واكتساب المعرفة بربط أجزائها بعضها ببعض وضمّ الجديد منها إلى القديم واللاحق بالسابق. وبهذا يتزايد الاختبار الإنساني وتتراكم المعرفة: فبفضـل هذا الـتراكم يتمكّن الخلف من الاستفـادة ممّا تـركه السّلف من إنجـازات وتراث فيعمـد هو إلى الإضافة إليه وتكثيفه.

هذا التراكم الزمني والمكاني يُمكّن المجتمع (المتميّز أساساً ببنية اجتماعية تربط وتوحّد بين مختلف اعضائه) من التأثير في الفرد الذي يعيش ضمن إطاره فيساعده على تمتين قدرته الفطريّة على التأقلم الاجتماعي لما للتاريخ من أثر في تركيب بنيته وتكوين مفاهيمه وطرق السلوك المقبولة فيه بفضل تأثير العادات والتقاليد والأعراف والأساطير ذات المنشأ التاريخي عبر التراكمات التي تتم داخل كل مجتمع.

من هنا يُفهَم تأثير الذهنيّة التي يتميّز بها شعبٌ معيّن والتي تنتـج عن التراكم التاريخي للأفكار والعادات والتقاليد التي اقتبسها ومـارسها. . . عـلى تكوين الفرد الذي ينتمي إليه.

يُفهَم، كذلك، أثر التاريخ في بناء أمجاد بعض الأفراد من قادة ينتمون لمختلف الميادين: العسكرية والسياسيّة والعلميّة والفنّية والأدبيّة والاجتماعية. . .

لا بدّ، في هذا المجال، من التشديد على أهميّة وعي الإنسان لامكانيّاته والحدود التي ترتسم في طريق سعيه لتنفيذ ما ينوي القيام به؛ لكن، هذا الوعي لا يتجسّد، عادة، في مجمل أفراد المجتمع بل في فريق من أبنائـه هم الذين يقودونه في طريق التقدّم والتطوّر. ونحن لن نجد أبداً مجتمعاً تقدّم في مجال

الحضارة وفرض نفسه تاريخياً إلاّ وعلى رأس موكبه عدد قليل من أبنائه (النخبة) يفكّر ويعمل ويحاول تخطّي الحدود والقيود قصد ارتياد آفاقٍ جديدة. . .

تعقيباً على مسألة التشابهات (الثوابت) والتغيّرات عند الإنسان يمكن القول بوجود تكامل عنده ما بين «فرادته» sa singularité و«شمـوليّته» son universalité إن من حيث إرثه البيولوجي (حيث نجد أن اختلاف النوع البشري الخلوي لم يكن أبداً جذريّاً أكان على مستوى أنواع البشر أم على مستوى الأفراد. . .)، أم من حيث إرثه الثقافي (حيث تسيطر صفة الازدواجية على علاقات التفاعل القائم بين العوامل البيولوجيّة والعوامل الثقافية).

بمعنى آخر، يمكن القول إن الضرورة حتّمت على المجموعات البشريّة الاتّصال والاختلاط بعضها مع بعض منذ ما قبل التاريخ فأدّى ذلك إلى ظهور مزيج من الأنواع البشريّة التي تبوتقت عبر العصور بفضل البيئة الجغرافية وانصقلت بفعل الوراثة والطبيعة البشريّة. ولقد ازداد فعل هذه الضرورة، اليوم، نتيجةً لتعقيد متطلّبات المدنيّة الحديثة.

لذا تبقى مسألة «الثوابت» قضيّة نسبيّة نظراً لكون الطبائع العامّة المميِّزة لتجمّعات جغرافيّة واجتماعيّة (قبائل، شعوب، أمم. . .)قابلة دائماً للتغيّر، بالرغم من ثباتها النسبي وذلك لحاجة الإنسان الفطريّة للاختلاط بغيره من الناس الذي يتميّزون بشخصيّات فرديّة خاصّة بكل منهم، ولحاجة هذا الإنسان للتأقلم مع متطلّبات الحياة التي يحياها.

لا بدّ هنا من ذكر أهميّة الشخصيّة الفرديّة لارتباطها بمسألة «الشموليّات» و«الخصوصيّات» إذ يمكن القول بأنّها، وإن كانت فريدة من نوعها، تتميّز بالمرونة والطواعية اللازمتين لتحقيق تأقلمها مع الظروف والمتطلّبات الاجتماعية ـ الثقافية الشاملة لكل أفراد المجتمع. يساعدها على تأمين هذا التأقلم الاجتماعي adaptation sociale توفير المجتمع لعناصر متعدّدة (مثل: اللغة والدين والعادات والتقاليد. . .) موحّدة نسبيّاً ضمن إطاره.

إنّما تجدر الإشارة إلى أن هذه العوامل، وإن ساهمت في توحيد العناصر

المكوّنة للشخصيّات الفرديّة داخل نفس المجتمع، تبقى عاجزة عن توحيد العناصر المكوِّنة للطبائع البشريّة وعن تأمين رابطة ثابتة بين مختلف الأفراد والشعوب وذلك لكونها قابلة للتغيّر والتبدّل والتطوّر بالرغم من رسوخها في أذهان الناس ولكونها أيضاً، خاصّة ببيئة اجتماعيّة معيّنة وتشكّل أساساً، طبائع مكتسبة أي متغيِّرة ومتبدِّلة: لكل مجتمع لغته ودينه (عاداته وتقاليده الخاصّة به).

أضف إلى ذلك مسألة انتقال الصفات المكتسبة التي تشكّل قضيّة تاريخية هامّة جدّاً نظراً لارتباط صفات الكائن الإنساني بالمجموعة الوراثية التي يتلقّاها من والديه عن طريق الخلايا التناسلية من ناحية وبظروف المحيط التي يخضع لها أثناء نموّه من ناحية أخرى، هذا من جهة، ولارتباط هذه الصفات الإنسانية بمرونة الشخصيّة وقدرتها على التأقلم مع تأثيرات العوامل الخارجيّة (من طبيعيّة جغرافيّة كالنور والهواء ونوع الغذاء... وشروط اجتماعية ـ ثقافية) بفضل الجهاز العصبي الذي يتمتّع به الإنسان، من جهة أخرى. هذا بالإضافة إلى الخصائص والقدرات الفرديّة الخاصّة بكل إنسان والتي لها دورها البارز في بلورة هذه الشخصيّة.

ويمكن القول بأن الإنسان الحديث وإن اختلف في أشياء عن الإنسان البدائي فهو يشبهه في أشياء أخرى لا تتبدّل بتبدّل الأزمان والبيئات: يُظهِر التاريخ أن لجوهر الصفات الإنسانية المختلفة والتطوّرات التي تعتريها عبر العصور الأهميّة نفسها المعطاة لجوهر الصفات الإنسانية المستمرّة والثابتة.

لذا يمكن إستخلاص واقعٍ تاريخي ملموس يكمن في نسبيّة الثبات بروح الشعوب وطبائعها الاثنية والوراثية من جهة وفي علميّة المقياس المُتَّخذ لقياس هذه النسبية من جهة أخرى. ويتطلّب الحكم على النسبية مقياسٌ مزدوج: مقياس زمني نسبي بمعنى أن أي حدث يجب أن يُقاس بالنسبة للعصر الذي تمّ فيه، ومقياس تراكمي خلال العصور بمعنى أن الحدث نفسه يجب أن يُقاس، أيضاً، من خلال قدرته على تخطّي مفاهيم العصر الذي تمّ فيه وبالتالي إمكانيّة إسهامه في خلق إمكانات جديدة تندرج ضمن إطار الكسب الإنساني المتراكم

ومآثر الشعوب التي تتعدّى الزمان والمكان إذ هناك الزمني الزائل إلى جانب الأصيل المتبقّي المسؤول عن تكوين التراث البشري الإيجابي.

أضف إلى ذلك واقعاً بشريّاً ملموساً يبرزه التاريخ بشكلٍ واضح ويكمن في صعوبة تغيير الطبائع الأصيلة عند الشعوب، الناجمة عن تأثير البيئة الجغرافية والوراثة و. . . ، أو على الأقل تطلُّب هذا التغيير كي يتحقّق لفترة زمنيّة طويلة نسبيّاً نظراً لقدرة الشخصيّة الفرديّة (أو الشعوب) على تأمين التأقلم مع التمثّلات الثقافية المتغيّرة والمتبدّلة مع الحفاظ، في الوقت نفسه، على ثباتٍ نسبي في الطبع البيولوجي والنفسي وذلك لاشتمالها (أي شخصيّة الفرد أو شخصيّة الأمة) على عناصر ثابتة مسؤولة عن ثبات وحدتها النسبي بالرغم وعبر التغيير الذي تتعرّض له (وإلاّ أصابها الإنحلال والتفكّك المَرضِيّانِ)، إلى جانب عناصر بديلة يسهل استبدالها، عندما تصبح غير منسجمة ومتلائمة مع المتطلّبات الثقافية والاجتماعيّة المتجدّدة، بعناصر أخرى أكثر انسجاماً وتوافقاً مع متطلّبات البيئة التي تعيش ضمنها.

وباختصار، يمكن القول بأن أهم آثار التاريخ في الفرد تكمن في قدرته (أي التاريخ) على النفاذ إلى جوهر الإنسان ولبّه وذلك بفضل حرصه على وضع الفرد في حيّزه الاجتماعي عبر الكشف عمّا في الأحداث من مضمون إنساني ووضع هذا المضمون في إطاره الاجتماعي، وفي حيّزه الزمني عبر الكشف عن العلاقة الجدلية التي تربط بين ماضي الإنسان وحاضره ومستقبله في كل زمان ومكان.

بمعنى آخر، يمكن القول إن أثر التاريخ يتجلّى عبر حياة الفرد المتكاملة (التي تجمع في الوقت نفسه بين فرديّتها واجتماعيّتها)؛ فالتاريخ هو، قبل كل شيء، تاريخ فردٍ أو مجتمع أو أمّة معيّنين، من هنا القول: لا تاريخ بلا إنسان. وهو يساعد الفرد على التحرّر من سيطرة الوهم والتخيّل ويرفع من مستواه الذاتي والكياني فيساعده، بذلك، على التحرّر من أنانيّته وحبّه المَرَضي لذاته؛ وهكذا، يتمكّن الفرد من إدراك ذاته، وإدراك الصلات التي يجب أن تجمع بينه وبين أمثاله من الأفراد على حقيقتها، ممّا يمكّنه من التوجّه نحو الغير، نحو

التعاون والتعاضد مع الآخرين. . . وذلك بفضل الثقافة التأريخيّة التي تؤمّنها له معرفته الواعية للتاريخ والتي تساعده على توسيع اختباره الشخصي وتَعميقه. . .

كل ذلك يؤمّن للفـرد الإمكانيّـات والظروف الضروريـة لبلورة وتفتيح قدراته الإنسانية الكامنة ses capacités en puissance إذ بدون هذه الامكانيّات التي يوفّرها له التاريخ يبقى الفرد انساناً بالقوّة وليس بالفعل[١].

(١) نقصد بالقول: إنسان بالقوّة وليس بالفعل، أن الكائن البشري يولَد مزوّداً بطبيعة بشريّة تتميّز بقدراتٍ كامنة لا تتبلور إلاّ إذا تناولها المجتمع بالرعاية والإهتمام اللازمين. وإذا لم تتوفّر هذه الرّعاية، لا يتمكّن الفرد من استغلال القدرات التي زودّتـه طبيعته بهـا؛ فالـطفل المتـوّحش (فيكتور) الذي ذكرناه اثناء مناقشتنا لهذا الجزء هو أبلغ مثال على هذه الحقيقة.

الفَصْل الثَّاني

أثر الفرد في التاريخ

لقد تناولنا في الفصل السابق أثر التاريخ في تكوين الإنسان (فرداً وجماعةً) وأبرز المظاهر التي يتجلّى من خلالها، وقلنا إن التاريخ والإنسان صنوان لا يفترقان (لا تاريخ بلا إنسان ولا إنسان بلا تاريخ) وإن العلاقة القائمة بينهما هي علاقة تفاعل جدلي ذات وجهين ينتجان عن أثرين متكاملين: أثر التاريخ في الإنسان وأثر الفرد في التاريخ.

سنتصرف في هذا الفصل لتبيان الأثر الثاني أو بالأحرى الوجه الثاني من هذه العلاقة القائمة بين التاريخ والإنسان، لذا سنتطرّق لأهم المظاهر التي من شأنها إيضاح هذا الأثر:

- الإنسان ـ الفرد هو أساس كل تاريخ.
- أثر العظماء في صنع التاريخ ويشتمل أيضاً على أثر المغمورين وأثر مختلف القطاعات التي تكوِّن المجتمع.
- أثر الفرد وشخصيّته في صناعة التاريخ وأثر ميوله في كتابته (كتابة التاريخ) ويتضمّن أيضاً أثر اختيار الإنسان الواعي وطبيعة قراراته في تكوين التاريخ وماهيّته...

باختصار، يمكن القول إن الإنسان (فرداً وجماعةً) هو صانع التاريخ بمقدار ما هو من صنعه:

يرى العديد من المؤرّخين وعلى رأسهم ادوارد كارّ وق. زريق...، أن الإنسان الأكثر وعياً لوضعه الخاصّ هو أيضاً الأكثر قدرة على تجاوزه والأكثر قدرة على تقويم الطبيعة الجوهريّة للفروق القائمة بين مجتمعه الخاص والمجتمعات

الأخرى. يبدو أن قدرة الفرد على الارتفاع فوق وضعه الاجتماعي والتاريخي مشروطة بحساسيته التي يدرك بها مدى تورّطه في هذا الوضع ولقد قيل: «قبل أن تدرس المؤرّخ أدرس بيئته التاريخيّة والاجتماعية»؛ فالمؤرّخ، كونه فرداً، هو أيضاً نتاجٌ للتاريخ والمجتمع (سبق أن ناقشنا تأثير البيئة الاجتماعية في تكوين الفرد).

يُضاف إلى هذا القول قولٌ آخر: «قبل أن تدرس التاريخ أدرس المؤرّخ». إن سلوك الأشخاص كأفراد يثير الاهتمام بمقدار ما يثيره سلوكهم كجماعات، وعلى حدّ قول ودجوود[1] «يمكن أن يُكتب التاريخ على نحوٍ منحرفٍ لجهة أو لأخرى. وهذا لن يزيد أو يقلّل التضليل... إن هذا الكتاب (أي كتابها المذكور أدناه) محاولة لفهم كيف تلمّس هؤلاء الرجال (الأشخاص) طريقهم ولماذا تصرّفوا حسب تقديرهم الخاص كما فعلوا».

قول ودجوود هذا يجمع بين افتراضين: الأوّل أن سلوكهم كأفراد أمرٌ متميّز عن سلوكهم كأعضاء في جماعات معيّنة؛ والثاني أن دراسة سلوك الأشخاص كأفراد يتكوّن من دراسة البواعث الواعية في أعمالهم وتصرّفاتهم.

وعلى هذا، يمكن القول إن ما هو مضلّل فعلاً يكمن في رسم خطٍّ مميِّز بين الفرد كفرد والفرد كعضو في جماعة؛ فالفرد، كما سبق أن قلنا في الفصل السابق، هو عضو في مجتمع معيّن لا يمكن الفصل بينهما نظراً لفشل علم النفس وعلم الاجتماع معاً في فهم الشخص، ذلك الكائن الاجتماعي، إذا لم يتناولا في الوقت نفسه تأثير البيئة الاجتماعية في الفرد وتأثير الفرد فيها، أي إذا لم يتناولا العلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع كعلاقة تفاعل جدلي بين الإثنين إذ يؤثّر الواحد في الآخر ويتأثّر به.

إلى جانب ذلك، هناك من أنكر أهميّة أفعال الفرد الواعية في تحديد الأحداث التاريخيّة بحجة وجود قوى دخيلة وقويّة تقود ارادته غير الواعية. هناك آخرون رأوا، على عكس هؤلاء، أن الإنسان هو القوّة الوحيدة الفاعلة بينها

(1) C.V. Wedgwood, *The kings peace*, 1955, p. 17.

«التاريخ لا يفعل شيئاً إذ أنه لا يملك الثورة الهائلة ولا يخوض المعارك بل الإنسان، الإنسان الحي هو الذي يفعل كل شيء وهو الذي يملك ويقاتل»(1).

مهما يكن من أمر، فهناك حقيقة راهنة تفرض نفسها ومن غير الممكن تجاهلها: الأقليّات (أي الإنسان الحيّ، على حدّ تعبير ماركس) هي التي تبدأ الحركات الاجتماعيّة الفعّالة وهي مصدر الانتاجات المثمرة بيد أن تأثير هذه الأقليّات لا يكتمل إذا لم يتكامل مع تأثير العدد الوافر المكوِّن للمجتمع الكبير (انظر لاحقاً أثر الأشخاص المغمورين في صنع التاريخ): وكلاهما، الأقليّات والعدد الوافر، هما منبع التاريخ المعني بالعلاقة بين المفرد والعمومي ومصدره.

يُستنتج، ممّا سبق، أهميّة الإنسان (فرداً كان أم جماعة) في صنع التاريخ. لذا سنركّز، بادىء ذي بدء، على كون الإنسان ـ الفرد هو أساس كل تاريخ ولا يوجد بدونه.

١ ـ الإنسان ـ الفرد: أساس التاريخ

إذا ما استقطرنا التاريخ بشكلٍ عام وتاريخ كل أمه بشكلٍ خاص وجدنا أن هناك دائماً نظريّة معيّنة في الإنسان الذي هو لبّ التاريخ وموضوعه. وهنا يتبادر إلى ذهننا عددٌ من التساؤلات حول هذا الإنسان وماهيّته: أهو مكوَّن من مادّة وهيولى... (كما يقول بعض الفلاسفة) أم من عقلٍ متفتّح، منتظم ومخطِّط؟ أهو مخلوقٌ حرّ واعٍ أم هو عبدٌ مسيَّر من قِبَل مشيئة عليا؟ أهو وليد الطبيعة الجغرافيّة وصورة يحتّمها المحيط الجغرافي (كما رأى بعض العلماء)؟ أم هو نتاج العلاقات الاقتصاديّة (كما رأى ماركس واتباعه)؟ أم أنّه نتاج العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع الذي يترعرع ضمنه (كما رأى بعض علماء الاجتماع المتطرّفين)؟ أم هو نتاج سيكولوجيّة فرديّة خاصّة به (كما رأى بعض علماء النفس المتطرّفين)؟

ثم هل يمكن اعتباره ككائن مطلق أم أنّه نسبي وتابع لظروف الزمان والمكان ودرجة التطوّر السائدة في هذه الظروف؟ هل هو فاعل أم منفعل؟ هل

(1) Marx-Engels, *Gesanitansgabe* 1, p. 625.

هو صانع للتاريخ أم من صنعه؟ هل هو كائن صالح يميل إلى الخير أم كائن سيّىء ينزع للشر؟ هل هو كائن متطوّر أم أنّه جامد ومتأخّر؟

هذه وغيرها من التساؤلات تُفرَض فرضاً على كل من يحاول استكشاف العلاقة القائمة بين التاريخ والفرد، فيُفرَض عليه، بالتالي، معرفة علاقة التاريخ بباقي العلوم (الطبيعيّة والبيو ـ فيزيولوجية والانسانية والاجتماعيّة والجغرافيا وعلم النفس والفلسفة والفنون والآداب. . .) كيما يتمكن من الإجابة عليها (أي على هذه التساؤلات)، خاصّة وأن الإنسان هو كائن غني ومعقّد بتفاعلاته وتشابك وتداخل العناصر المكوِّنة لشخصيّته وهو موضوع مجمل هذه العلوم، هذا من جهة ؛ أمّا من جهة أخرى، فإن كل علمٍ من هذه العلوم يتناول ناحية معيّنة من الإنسان لأن لكلٍ منها مقصده. لذا لا بد من تضافر جميع هذه العلوم كيما تتكامل الصورة المكوِّنة عن هذا الكائن ـ الفرد لدى كل محاولة تهدف لإدراك الإنسان وفهم التاريخ.

بناءً على ذلك، لا بد من تكوين نظريّة في الإنسان تُستَمد من مجمل هذه العلوم وتُمتَحن على ضوء الحقائق التي يكشف عنها العقل ويؤيّدها الاختبار؛ أي على ضوء الوقائع التاريخيّة لمعرفة ما إذا كانت تؤيّدها أو تدعو إلى تعديلها أو نقضها.

يتبيّن، بعد حكّ مختلف النظريّات، التي ظهرت في مختلف الميادين العلميّة، بمحكّ الاختبار، واقعاً هامّاً يكمن في كون الإنسان: كائنٌ فعّال، يتأثّر ويؤثّر. وهو إلى جانب ذلك، كائنٌ مدرِكٌ وعامِلٌ: فهو لا يكتفي بإدراك العالم الذي يحيط به وإدراك ذاته (ومن ضمن ذلك ماضيه) بل يحاول العمل والتنفيذ والتحقيق. وهكذا يُحدِث أثره في تبديل عالمه وذاته.

لا عجب في ذلك إذ أن الإنسان هو، من بين كل الكائنات الحيّة، الكائن الوحيد الذي يحسّ بالمشاكل التي تعترض طريق تطوّره فيحاول معالجتها على ضوء الإمكانات المتوفرّة له في محيطه باختيار ما يتلاءم منها مع إمكانيّة التغلّب على هذه المشاكل وتأمين وسائل عيشه وكفالة أمنه وحماية ذاته ومن حوله.

معنى ذلك أن الإنسان هو مصدر التقدّم التاريخي الحضاري أي أن العوامل الدافعة للتطوّر البشري ولتكوين التراث الحضاري هي عوامل بشريّة تصدر عن قوى مغروسة في صميم الكيان البشري.

وهذا الإنسان يتميّز بشخصيّة موحّدة متكاملة، كما سبق أن قلنا، وإن كانت تتميّز بعدد من القوى ذات الأثر البيّن في بعث التحضّر والتقدّم أو في تعطيلها وإيقافها؛ ففي الإنسان، حسبما يتبيّن لنا من مطالعة التاريخ ومختلف العلوم، ثلاث قوى إيجابيّة أساسيّة: العقل والضمير والذوق. بالعقل يسعى إلى كشف الحقيقة (حقيقة وجوده وطبيعته وحقيقة وجود العالم المحيط به وطبيعته)، وبالضمير يتوجّه نحو الخير ويسعى إلى تحاشي الشر أمّا بالذوق فيتحسّس الجمال ويتطلّع إليه.

لكن، إلى جانب ذلك، هناك قوى سلبيّة في الإنسان تكمن في ميوله الفطريّة ونزعاته وأهوائه مثل: ميول إلى الكسل والاكتفاء، إلى التوهّم والتخيّل، إلى تعظيم الذات (الذات الفرديّة أو القوميّة) وإلى التحكّم بالآخرين.

تتواجد هذه القوى مع القوى الإيجابيّة وتتصارع معها على حدّ قول مدرسة التحليل النفسي وعلى رأسها سيغموند فرويد؛ أمّا إتّجاه الغلبة لصالح أي من هذه القوى، فمن غير الممكن تحديده بشكلٍ عام وإن كان بإمكاننا القول إنه لو كانت الميول السلبيّة هي التي سيطرت على البشريّة لكان الإنسان لا يزال في طور البدائيّة والهمجيّة. لكن، لحسن الحظ، تحرّكت القوى الإيجابيّة (من تنبّه العقل وتيقّظ الضمير ورهافة الذوق) فكان نتيجة ذلك تقدّم الإنسانية وتحقيق ما توصّلت إليه من تراث بشري تراكمي إيجابي.

من هنا نفهم أن ما حقّقته البشريّة لم يكن هيّناً وسهلاً نظراً لما اعترضها من عوامل سلبية ولا يزال وسيبقى يعترضها ما دامت في الإنسان نزعات سلبية تتواجد مع قواه الإيجابية ، يُفهم كذلك قول الرئيس جون كنيدي الذي أوردناه في المقدّمة: «إنّنا نملك القدرة لجعل هذا الجيل البشري أفضل الأجيال في تاريخ

هذا العالم أو آخر هذه الأجيال» لأن ما حقّقه الإنسان من تطوّر وتقدّم ليس مضمون المستقبل نظراً لخطر العوامل البشريّة عينها إذ أن ثبات هذا التطوّر ونموّه يتوقّفان على ما يبذله الإنسان من جهد لتصبح انجازاته إيجابيّة خيّرة ويتغلّب على ما فيه من سلبيّة ونزوع نحو الشر وليحافظ على هذه الإنجازات.

بمعنى آخر، يتوقّف ثبات التطوّر البشري الحاصل عبر الأجيال حتّى يومنا هذا على قدرة الإنسان في تهذيب طبيعته وتحريرها من الأنانية وحبّ الذات نظراً لسهولة التغلّب، عنده، على طبيعة العالم المحيط به وإدراك أسرارها واستثمار خبراتها بالمقارنة مع صعوبة التغلّب على الطبيعة الداخليّـة وتنقيتها من أدران الأنانية قصد التوجّه نحو حب الآخرين والتعاون معهم.

يقول جواهر لأل نهرو (سبق ذكره، ص ٤٢) في هذا المجال: «... جرت العادة، منذ القدم، أن يتذكر الإنسان حقوقه ويغضي عن واجباته». وفي مكانٍ آخر يقول: «المفروض أن تطوّر البشريّة من الحالة البربريّة إلى المدنيّة هي قصّة التاريخ... ولكن عندما ننظر أحياناً لكي نقف من التاريخ يصعب علينا أن نعتقد أن هذا المثل الأعلى قد تطوّر كثيراً وأنّنا متمدّنون أو متقدّمون كثيراً»، «الحاجة كبيرة اليوم إلى التعاون بدلاً من أن تستبدّ الأنانيّة ببلدٍ وشعب فتحمله على الاعتداء على الغير أو أن نجعل الإنسان يستغلّ إنساناً آخر» (نهرو، سبق ذكره، ص ١٦ - ١٧).

إنّه (أي نهرو) يرى أن الإنسان لم يتطوّر كثيراً، بعد، عن الحيوان في مجالات عديدة، لا بل ربّما كان الحيوان أفضل من الإنسان في نواحٍ كثيرة «فإذا كان التعاون المتبادل والتضحية هما محكّ المدنية فيمكننا القول إن النملة البيضاء والنمل عموماً أكثر تقدّماً في هذا المضمار من الإنسان».

هناك حكمة في أحد الكتب السنسكريتيّة الهنديّة يمكن ترجمتها بما يلي: «ضحِّ بالفرد في سبيل العائلة والعائلة في سبيـل المجتمع والمجتمـع في سبيل الوطن والروح في سبيل العالم بأسره». أما ما هي الروح، فإن القليل منّا من يستطيع أن يعلم عنها الكثير، يقول نهرو. ولكن «كل واحدٍ يمكنه أن يعبّر عنها

بطريقة تختلف عن طريقة غيره. والدرس الذي نتعلّمه من هذه الحكمة السنسكريتية هو نفس درس التعاون والتضحية في سبيل المجموعة الكبرى».

يماثل هذا الموقف موقف المهاتما غاندي (أبرز قادة هذا الزمان) الذي وقف حياته على تحرير شعبه من الاستعمار الخارجي والاستقلال الداخلي؛ لكنه لم ينسَ، في غمرة نضاله، أن ما يقوم به هو جزءٌ من نضالٍ أعمّ وجهادٌ صغير ضمن «جهادٍ أكبر» غايته بعث الضمير البشري وإحياء الكيان الإنساني وسيادة القيم الأخلاقية الحقيقية في السلوك الفردي والجماعي والدولي لأن القوّة المادّية المسيطرة على البشريّة اليوم لا تحلّ إلاّ جزءاً يسيراً من المشاكل المطروحة عالميّاً هذا إذا لم تزد هذه المشاكل وتعقّدها نظراً لسوء استغلالها من قبل الأقوياء اصحاب الحلّ والربط في هذا العالم المائج والمضطرب. فما يساعد على حلّ مشاكل البشريّة (المطروحة على قارّات العالم أجمع) حلاً جذريّاً صحيحاً، يكمن في اكتساب الناس القدرة العقلية ـ المادّية لكن، بشكلٍ خاص، القدرة الخُلقيّة التي تمكّن من سيادة الحق وصلاح الإنسانيّة جمعاء.

هذه الصّرخات وغيرها هي صدى لواقع إنساني يشهده عالم اليوم نظراً للتقدّم البشري غير المنسجم والمتناسق لما يشوبه من مفارقات داخل كل ميدانٍ حياتي وبين مختلف الميادين المتنوّعة. أخطر هذه المفارقات يكمن في تأخّر القدرة على تحرّر الإنسان من أهوائه وأنانيته وعلى احترام كرامة الغير والعمل على تعزيز حقوق الإنسان بشكلٍ عام (إلى أي مجتمع انتمى على حدّ تعبير الأمم المتّحدة) بالمقارنة مع التقدّم التقني الذي تميّز به إنسان هذا العصر بالنسبة لاختراع الوسائل وبالمقارنة مع التقدّم الذاتي الذي احرزه في ميدان اختيار الغايات والقدرة الهائلة في التسلّط على الطبيعة والقدرة المستجدّة في صنع البيئة الاجتماعيّة...

لقد تمّ تطوّر الإنسان عبر الزمان والمكان على ثلاث جبهات رئيسيّة (جبهة الطبيعة، جبهة البيئة البشريّة وجبهة الذات)[1] إنّما بشكلٍ غير متناسق

---

(١) حسب تعبير ق. زريق، «في معركة الحضارة»، سبق ذكره ص ٢٩٦.

إذ لا تزال الجبهة الثالثة الأقل تطوّراً وتقدّماً بالنسبة للجبهتين الاخريين لأسبابٍ سنوردها لاحقاً.

بالجبهة الطبيعيّة نقصد قدرة الإنسان التقنيّة إزاء الطبيعة وتسلّطه عليها: لقد خطا الإنسان، في هذا المجال، خطواتٍ هائلة لا تحتاج إلى دليلٍ وبرهان علميّين إذ يكفي ذكر قوّة الإنسان الحديث على اختراق الحواجز الطبيعية وقدرته على تقليص أبعادها وعلى تقريب مختلف أقطار المعمورة بعضها من بعض وضيق إطار هذه الطبيعة أمام عقله المتفتّح الوثّاب والساعي أبداً إلى غزو الفضاء بعدما غزا العالم...

صحيح أن التقدّم في هذا المضمار لم يكن مستمرّاً خلال كل العهود إذ مرّت على البشريّة أزمنة طغى خلالها الجهل الذي كان يعطّل سير التقدّم ويوقفه... لكن لفتراتٍ معيّنة كانت البشريّة، بعدها، تستعيد مكاسبها وتضيف إليها. والعصر الحديث حافل بالفتوحات العلميّة الباهرة، المتلاحقة والمتعاظمة يوماً بعد يوم، والتي خاض غمارها عقل الإنسان الحديث بسرعة تسلب الألباب.

ثم إن هذا التقدّم هو من نتاج جميع الشعوب مولّدة الحضارات لكن على اختلاف بينها في مدى إسهامها ومبلغ إدائها. إنّما يمكن القول إن المدنيّة الحديثة، حيث تطغى المدنيّة الغربية، قد ساهمت بمقدار عظيم في هذا الميدان نظراً لكون منطلقاتها الأولى تميّزت بالتعلّق بالطبيعة والإيمان بقدرة الإنسان عليها وبسلطة عقله وحنينه، بالتالي، إلى تحقيق هذه القدرة والسّلطة بكل الوسائل الممكنة؛ وبما أن مختلف الفروع العلميّة مرتبطة اليوم، بعضها ببعض فإنّ هذا التقدّم الحديث المتميّز بالسرعة الهائلة قد شمل المعرفة الطبيعيّة بكامل فروعها. هذا إلى جانب انتشار العلم والمعرفة في مجمل طبقات المجتمع، لذا لم يعد التقدّم محصوراً، كما كان في السابق، في عدد من الأفراد والفئات بل امتدّ وتوسّع ليشمل المجتمع بأكمله.

يمكن القول أن هذا التقدّم انتشر واتّسع ويكاد يشمل البشريّة بمجموع

شعوبها نظراً لسهولة اتصال مختلف أنحاء العالم بعضها ببعض وذلك بفضل الاختراعات العلميّة الحديثة مثل الطائرة التي قرّبت المسافات المكانيّة والوسائل الإعلاميّة التي قرّبت المسافات الزمنية والمكانيّة بحيث ساهمت في نشر المعلومات، في الوقت نفسه في مختلف أرجاء المعمورة (بفضل الأقمار الصناعيّة والتلفزيون والصحافة و. . .).

لكن، يمكن القول إن هذا التقدّم، بالرغم من توسّعه وانتشاره، لا يبدو منسجماً ومتناسقاً بل يتضمّنه مفارقات عدّة تطرح اليوم قضايا اجتماعيّة وحضاريّة في غاية الخطورة، يكمن أهمّها في كون الإنتاج محصوراً ببلدانٍ معيّنة يتوجّب على باقي البلدان أن تستورد منها منتجات القدرة التقنية ومصنوعاتها ومظاهرها دون أن تتمكّن من معرفة كيفيّة الإنتاج إذ تبقى صناعة الموادّ الخام والأدوات الأساسية وقفاً على معامل هذه البلدان الصناعية تصدّرها إلى العالم أجمع حتى إلى أبعد اصقاعه نظراً لإقبال مختلف الشعوب عليها وشرائها. . .

فبفضل هذه المنتجات تصبح جميع البلدان متشابهة في بعض مظاهر الحياة لكن دون أن يقابل هذا التشابه تقارباً في امتلاك واكتساب المعرفة التقنيّة والدّربة الفنيّة التي تمكّنها من استغلال مواردها الطبيعيّة وصنع حاجيّاتها. وهكذا تضطر، دائماً، للاستنجاد بالدول المتمكّنة من هذه المعرفة للقيام بذلك فينفتح المجال أمام هذه الأخيرة لاستغلال واستعمار هذه الدول النامية والشعوب المتخلّفة خاصّةً أن القدرة التقنيّة تُعتبر اليوم المحك الأساسي للمدنيّة. . .

وبازدياد سرعة وتنوّع هذا الإنتاج من قِبَل الدول المصدِّرة تزداد المفارقات بينها وبين الدول المستوردة وتتّسع، خاصّةً أن هذه الأخيرة تتراكض لاقتباس فنون الحياة الحديثة ومظاهرها المختلفة.

تكمن خطورة اقتباس نمط حياة الدول المتقدّمة من قِبَل الدول النامية في ـم تكامل استعمالها لمنتجات القدرة التقنيّة مع القدرة النظرية وهذا ما يحرمها ن البواعث motifs الحقيقية الدافعة للخلق والإبداع. لذا يبقى نطاقها ضيّقاً وفعلها وأثرها في المسار الحضاري التراكمي الإيجابي محدودين جدّاً: فنحن

نعرف أن من الضروري تكامل الناحيتين: النظريّة والعمليّة لدى أي شعبٍ أو فرد كيما يتمكّنا من مجاراة المعرفة العلميّة في سياقها وتطوّرها لأن «المفاهيم والمؤسّسات لا ترسخ أو تدوم في أيّة بيئة اجتماعيّة بالاقتباس وحده بل لا بد من أن تكون هناك أصول ومقوّمات في تلك البيئة. وهذه قد تنشط وتتطوّر بالاتّصال بالفكر الخارجي»(١).

هذا بالإضافة إلى ضرورة تمكّن الفرد والمجتمع من مجرَيي الفكر المتفاعلين والمتلاقيين: المجرى النظري والمجرى التقني والتطبيقي الذي يساير النظري ويمدّه ويستمدّ منه فيعملان معاً بقوّة واستمرار في تنمية قدرة الإنسان على الطبيعة وفي توسيع إدراكه لها وفهمه لسننها وقوانينها.

من شأن كل ذلك احداث خللٍ عند الدول النامية ما بين القدرة على استعمال المنتجات الحضارية وعدم امتلاك المعرفة لخلقها وإبداعها... ممّا يؤدّي، بدوره، إلى إثارة العديد من المشاكل التربوية والاجتماعية والحضارية عند الفرد والشعب.

بجبهة البيئة البشريّة نعني الكسب الذي أحرزته البشريّة في مجال الإقرار بحقوق الأفراد والجماعات وفي صيانة هذه الحقوق وتثبيتها عملياً.

فيما يختص بهذا الميدان الحياتي يمكن القول، وإن كان التقدّم فيه ليس واضح المعالم كما في الجبهة السابقة، إن البشريّة أحرزت في هذا المجال تقدّماً ملموساً. يكفي لإدراك ذلك مقارنة المراحل السابقة من التاريخ البشري مع مراحله الحاليّة حيث نلحظ مكاسب حضاريّة ظاهرة وبيّنة في حياة الفرد وفي حياة المجتمع: لقد حقّق الفرد المعاصر مكاسب سياسيّة واقتصادية واجتماعيّة وثقافية فيما يختص بحقوقه كمواطن وكإنسان له الحق في إبراز مواهبه وفي استغلالها إن في مجال الحكم والإدارة وملء المناصب الهامّة أم في مجال العيش وكرامة الحياة أم في إمكانات التثقّف والترقّي الذاتي...، لا يستطيع كائنٌ أن

(١) عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت ١٩٨٤، ص ٩.

ينفي وجودها. وهذه المكاسب تفرض نفسها على كل مُلاحِظ موضوعي نظراً للمكاسب التي أحرزها إنسان اليوم: الفلاّح والعامل والمرأة والأعراق (المضطَهدة منها بشكلٍ خاص) والفئات المحرومة... أي كل مواطنٍ إنسان بوجهٍ عام.

ثم إن العالم يشهد اليوم، بكافة شعوبه وفئاته، ثورة عارمة على الاستعمار والاستغلال بحيث نجد، باستمرار، شعوباً جديدة تنال حرّيتها وسيادتها وتحتل مكانها في منظّمة الأمم المتّحدة وفي الكيان الدولي فتقبل على تنظيم شؤونها الخاصّة وتحاول استثمار مواردها الطبيعيّة في سبيل رفع مستوى معيشتها وإصلاح أوضاعها. يبدو التقدّم، في هذا المجال، ظاهراً وشاملاً لمختلف الأفراد والجماعات والشعوب.

لكن، كنتيجة طبيعيّة للمفارقات التي سبق ذكرها ضمن حديثنا عن قدرة الإنسان التقنية إزاء الطبيعة وتسلّطه عليها، هناك اختلال في الإنسجام والتناسق: فالقدرة على إنتاج المواد الخامّ والأدوات الأساسية تبقى وقفاً على بعض البلدان التي تحتفظ بحقّها في تصدير هذه المنتجات إلى العالم أجمع فتبقى، بالتالي، البلدان المستوردة محدودة القدرة على تحقيق سيادتها نظراً للتفاوت الذي تعاني منه بين سعة انتشار مختلف المنتجات ومظاهرها والقدرة على امتلاك مقوّمات القدرة التقنية (المجرى النظري)... وهذا ما يحدّ من قدرتها على تحقيق حرّيتها بشكلٍ عام.

كذلك القول بالنسبة لتحقيق مختلف مظاهر وأشكال السيادة والحريّة الإنسانيّة من: إقامة أسس الدول ووضع دساتيرها وسنّ قوانينها وأنظمتها حيث يتم الاقتباس من قِبَل الدول النامية والمتحرّرة حديثاً أكثر من كونها تصنع بنفسها القوانين الملائمة لوضعها الخاص، يشكّل ذلك خطراً كبيراً يهدّد هذه الدول بزعزعة كيانها لأن الحريّة الصحيحة والحقيقية لا تكمن، فقط في قدرتها على التحرّر من سلطة خارجية تسيطر عليها بل، خصوصاً، في قدرتها على الإحساس بالمسؤوليّة والقيام بأعبائها. وما دامت رهينة غيرها من البلدان من حيث القدرة على سن القوانين والشرائع الخاصّة بها أو من حيث القدرة على

استثمار مواردها فإنها تبقى عرضه للاستعمار غير المباشر. هذا بالإضافة إلى كون القيام بالثورة بهدف الانعتاق والتحرّر يبقى أسهل وأسرع من القدرة على تحمّل المسؤوليّات والقيام بأعبائها مع ما تتطلّبه من وعي وإدراك ومعرفة شاملة تمكّن الشعب المتحرّر من تدبير أموره بنفسه. . .

هنا أيضاً يبرز التفاوت بين سرعة التقدّم وامتداده في مجال التحرّر الخارجي من جهة وبطء هذا التقدّم في مجال التحرّر الداخلي من جهة أخرى، فينشأ عن عدم تعادل هذين النوعين من التحرّر وتكاملهما مضاعفاتٌ وصعاب لايستطيع تجاهلها كل من يشاء تحرير نفسه وتحرير بلاده (فرداً كان أم شعباً).

أمّا جبهة الذات فنقصد بها قدرة الإنسان على التحرّر من أهوائه وشهواته وأنانيته.

بالنسبة لهذا المجال يجد الكثير من المفكّرين أمثال نهرو وغيره أنّ تطوّر الإنسان في هذا الميدان هو شبه معدوم. لكن، هناك إلى جانب هؤلاء، من يؤكّد حدوث هذا التطوّر ويحتّم وجوده.

أمّا الحكم المنطقي والموضوعي فلا يمكن إبداؤه قبل القيام بملاحظة المناخ العالمي الحديث المسيطر على القرن العشرين وبالأخص على عقوده الأخيرة (السبعينيات والثمانينات). يتأكّد وللأسف على ضوء الملاحظة العلميّة، الشك والإنكار فيما يختص بالتقدّم الحاصل في هذا المجال نظراً لاضطراب الحياة البشريّة في هذا القرن وخصوصاً خلال العقد السابع والثامن منه: فبالإضافة إلى الحربين العالميّتين مع ما رافقهما من مجازر وتهديم وإثارة للأحقاد والفتن والضغائن وما تلاهما من تفاقم الأخطار المحدقة بالبشريّة بسبب اشتداد فاعليّة أدوات القتل والتخريب التي استنبطها دماغ الإنسان الحديث والتي تعرّض البشريّة جمعاء للدمار الشامل. . .، هناك الحروب والفتن التي تظهر هنا وهناك في كل أنحاء المعمورة، وهناك الإرهاب الدولي المسيطر اليوم بكافة وسائله (من تفخيخ لسيّارات وأبنية و. . .، وخطفٍ لأبرياء وهدمٍ لمنشآت كلّفت الإنسانيّة غالياً جداً. .). . .

كل ذلك يدعو للشك في حصول تطوّر إنساني من حيث الكسب الخلقي والروحي وللقول، بالعكس، بحدوث ارتداد الإنسانية إلى الهمجيّة والتوحّش بحيث تسيطر شريعة الغاب على العالم الحديث (إذ يأكل القوي الضعيف ويسيطر عليه. . .)؛ من شأن هذا الارتداد تهديد الحضارة البشرية كما قال الرئيس جون كنيدي، بمصير قاتم وجرّها نحو مهاوٍ لم تشهد مثلها في الماضي عمقاً وهولاً نظراً للقدرات الهدّامة الهائلة التي تمتلكها الحضارة المعاصرة. . . .

لكنّا، بالرغم من كل ذلك، لا نستطيع إنكار ما حقّقته البشريّة في جبهة الذات ويكفي لتأكيد هذا الكسب ما ذكرناه من إقرار متزايد بالحقوق الإنسانيّة ومن مكاسب ملموسة في ميادين الحريّة والعدالة والمساواة. . . كل ذلك يدل على مدى تيقّظ ضمير الإنسانية عن وعيٍ لحقوق الإنسان وحرمته.

على أن الفظائع التي شهدها، ويشهدها، العالم مؤخّراً شكّلت حافزاً، لم تشهده الحقب التاريخيّة الماضية، لتحريك الضمير الإنساني والمطالبة بحقوق الأفراد والشعوب بالحياة الحرّة الكريمة، ممّا أثار القوى والجهود وحفّزها للتضافر قصد الحؤول دون تجدّد هذه الفظائع ولتوطيد أركان السّلام والعدل العالميّين.

لكن التقدّم في ميدان الذات لم يجارِ ذلك التقدّم الحاصل في المجالين الآخرين نظراً للمفارقات الخطيرة التي رافقت هذين المجالين (لقد سبق ذكرها)، من جهة، ولكون هذا المجال أهم الجبهات وأصعبها لأنّه محور البواعث ومصدر الغايات في حين يمكن اعتبار سواه مجرّد اختراع للأجهزة والوسائل والأدوات من جهة أخرى؛ فكما يقول نهرو: يسهل على الإنسان تذكّر حقوقه لكن يصعب عليه تذكّر واجباته. لذا يبقى تقدّم الإنسانيّة، في هذا المضمار، رهناً بما يحرزه الإنسان من وعي شخصي وعزم في اتّخاذ القرار الصعب الهادف لتحرير ذاته من أدران الأهواء الشخصيّة والأنانيّة.

وهكذا نعود إلى نقطة الانطلاق أي إلى تأكيد القول إن ما حقّقته البشريّة لم يكن هيّناً وسهلاً إذ يبقى مصيره مجهولاً ورهناً بسرعة تجمّع الإرادات الخيّرة والبنّاءة وتنبّه وعيها لمسؤوليّاتها الجسيمة واشتداد عزمها ونفاذ أثرها مع كل ما

يرافق ذلك من صعوبات جمّة تنشأ عن أسباب متعدّدة يكمن أهمّهـا في عدم انسجام التقدّم الإنساني وتناسقه وفي المفارقات التي تشوبه داخل كل ميدان وفي مختلف الميادين حيث تشكّل الهوّة الشاسعة التي تفصل بين قدرة الإنسان بالنسبة للطبيعة وتسلّطه عليها وبين عجزه النسبي فيما يختص بقدرته على تحرير ذاته من ميلها لتعظيم الأنا الذاتية بهدف توجيهها نحو حب الآخرين واحترام كيانهم والمحافظة على حقوقه...

أضف إلى ذلك تأكيد واقع ملموس يكمن في إثبات التقدّم الإنسانيّ العام وذلك بمشاركة الحضارات المتعدّدة التي أنجزتها البشريّة وقد ساهمت كلٌّ منها بنصيبها الخاص بها والمرهون بمدى إبداعها وإنجازها وبنوع اتّصالها بالحضارات الأخرى وبمقدار إسهامها في التراكم الإيجابي المكوِّن للتراث البشري.

كذلك، يمكن القول إن هذا التقدّم والتطوّر البشريّين اللذين حصلا، بالرغم من المفـارقات والتنـاقضات التي تضمّنـاها وبـالرغم من الإنتكـاسات والارتدادات التي انتابتها، لم يكونا منحةً مبذولة من قـدرة خارجيّـة أو فعلاً مستقلاً عن الإنسان بل كانا حصيلة المكاسب التي جناها الإنسان نفسه بكدّه ونشاطه وبفضل صفاته وميزاته التي هي قابلة للنمو كما هي معرَّضة، في كل آن، للاندثار والفساد تبعاً لنوع الجهد المبذول والصفات المتكوّنة عنده (أي عند الإنسان) وتبعاً لطبيعة الاتجاه: الإيجابي أو السلبي الذي يبديه بالنسبة للاستفادة من مكاسب هذا الجهد.

بمعنى آخر، يمكن القول إن الوسائل الماديّة التي يستنبطها الإنسان بعد إجهاد فكره وعقله لهي كفيلة بأن تساعده على تحرير نفسه من الجهل بفضل ما تمدّه به من إمكانات تساعده على الرقيّ وعلى رفع مستواه الذاتي والكياني، إذا ما أحسن استعمالها، كما أنّها كفيلة بإزالة حضارته لا بل بإزالته من الوجود إذا ما أساء استغلالها.

ينطبق هذا القول، بشكل خاص، على الموقف الحضاري الحديث الذي يتميّز بمنجزات باهرة تتمثّل في انطلاق المعرفة وتكاثر المنتجات المادّية وبالتالي

حاجات الإنسان الطبيعيّة وتوافر إمكانات الرخاء والرفاهية والتثقّف والترقّي وانتشار الحرّية وازدياد توق الإنسان الحديث، إلى أي مجتمع انتمى، إليها وتيقّظ ضميره في سبيل توفيرها. . .

كل هذه المنجزات تظهر الآفاق المتعدّدة (في حقول المعرفة والإنتاج والسيطرة على الطبيعة وتوفير الوسائل المادّية الضرورية لتأمين رفاهية الإنسان. . .) التي تفتّحت أمام إنسان اليوم. لكن هذه الآفاق تشكّل، بحد ذاتها، حدوداً مرسومة في طريقه نظراً لما يعتري الحضارة المعاصرة من نقائص وفروق عميقة الغور، أصيلة الجذور يكمن أهمّها في:

ـ التباين الشاسع بين تطوّر الشعوب المتقدّمة وتطوّر الشعوب المتخلّفة فيما يختص بالميادين العلمية والتقنية؛ لقد أشرنا، أعلاه، إلى هذا الفرق الناتج عن تحكّم الأولى (الشعوب المتقدّمة مثل الولايات المتحدة وروسيا و. . .) في امتلاك المعرفة التقنيّة والدربة الفنيّة بحيث أحرزت هذه البلدان تقدّماً علميّاً وتقنيّاً هائلاً بينما لا تزال الشعوب النامية متأخّرة جدّاً في هذا الميدان. إذا ما تُرِكت الأمور على ما هي سيزداد الفرق ويتضخّم فيؤدّي، حتماً، إلى تعقّد المشاكل السياسية والاقتصادية والثقافيّة. . . القائمة حالياً (يقدّر بعض الباحثين أن الفارق في مستوى المعيشة، بالمفهوم الاقتصادي، بين البلدان المتقدّمة وتؤلّف أقل من ثلث سكّان العالم، وبين البلدان النامية وتؤلّف أكثر من ثلثي العالم، يعادل واحد على عشرة).

يُخشى، من جرّاء هذا التفاوت القائم في عيش قسمٍ من العالم (علميّاً وتقنيّاً) في عالم اليوم لا بل في عالم الغد بينما يعيش القسم الباقي في عالم الأمس، أن تزداد معاناة الإنسانية في المستقبل القريب فتزداد التأزّمات الحضاريّة بسبب هذا التفاوت.

ـ التباين الظاهر داخل الخط الحضاري نفسه وبين مختلف الخطوط الحضارية: سبق أن أشرنا إلى خطورة عدم وجود تناسق بين مختلف خطوط الحضارة نظراً لضرورة استتباع أي تبدّل يجري في المجال التقني. . .، تبدّلاً

يحدث في الأوضاع العقليّة والذاتية ـ الكيانيّة: يكفي لإبراز هذه الخطورة ذكر الجوع الذي يتعرّض له اليوم ملايين الناس وبشكلٍ خاص الأطفال بالرغم من غزارة إنتاج هذا العهد وقدرته على توفير الرّخاء والهناء: هناك بلدان تُنفِق أكثر بكثير من احتياجاتها للغذاء والكساء... بينما يعجز العديد من البلدان النامية عن تأمين الحاجات الضروريّة لحفظ بقائها ويعاني من سوء التغذية وسيطرة الأوبئة والأمراض... يكفي ذكر هذا المثال دون غيره من الأمثلة المتعدّدة لندرك العار الذي يلطّخ جبين الحضارة الحديثة.

الخطر الأعظم لهذا التباين يكمن في كون الجوع (وأي تهديد يحسّ به الإنسان على حياته) يشكّل، كما يرى علماء النفس بشكلٍ عام والتحليل النفسي بشكلٍ خاص، حافزاً لاواعياً من شأنه دفع الإنسان لتخطّي كل حدود ممكنة لما يُسمّى بالأخلاق والقيم الإنسانية وعبورها دون أي رادع من أجل الحفاظ على الذات... «والويل للشبعان من غضبة الجوعان» كما يقول المثل السّائر؛ عندها لا يُمكن التكهّن بمصير سلام البشريّة وتقدّمها وازدهارها.

ـ يُضاف إلى ذلك الهوّة العميقة الغور التي نشهدها اليوم بين التطوّر التقني والتطوّر الأخلاقي والخلقي وذلك لكون تهذيب النفس وضبط الشهوات والأهواء وتنمية القابليّات الخيّرة من أصعب المهمّات الإنسانية وأبعدها منالاً؛ فكم من أشخاص ومجتمعات أظهروا تفوّقاً باهراً في الميادين التقنيّة والعلميّة بينما بقوا متخلّفين وبدائيّين في ميادين التغلّب على ذاتهم وعلى دوافعهم إذ أن الفرق كبير بين قدرة الإنسان على المعرفة (مهما كان نوعها) وقدرة هذه المعرفة على التسرّب إلى أعماق نفسه وتنمية ملكة النقد الذاتي عنده.... بهذا المعنى، يمكن وصف الدول الحديثة المصدِّرة للمدنيّة المعاصرة بالتخلّف إذ لا يُقاس التقدّم بالمقياس التقني فقط بل، خاصّةً، بالمقياس الإنساني ـ الكياني أي بمقياس القدرة على تحرير الذات من تمركزها حول نفسها والتوجّه نحو حب الآخرين والتعاون معهم وتمنّي الخير لهم.. ولا يمكن القول بأن هذه الدول تتمتّع بهذه المزيّة بل العكس هو الصحيح نظراً لطغيان الماديّة على حضارتها وللأموال الطائلة التي تهدرها على شؤون الحرب واكتشاف الأسلحة واستغلالها في بثّ

الحروب والتفرقة في مختلف أنحاء العالم لتسويق هذه الأسلحة.

لا يخفى على أحد الدور الهام الذي تلعبه هذه الدول في كل حرب أو فتنة تحصل في أي بلد من بلدان العالم؛ هذا إلى جانب ما تنفقه على غذائها وكسائها بمقدار يتجاوز، بكثير، احتياجاتها منها بينما هناك الملايين من الناس الذي يهلكون جوعاً كل عام لا بل كل يوم. . . .

وَضْع العالم اليوم يبدو، كما يراه عددٌ كبير من المفكّرين والمؤرّخين، مدعاة للاضطراب والرعب؛ فعالم اليوم، بنظر توينبي[١]، «مريض بالحرب» إذ «أننا نعيشُ ونحن نلمح يوميّاً طيف كارثة نخشى أن نراها تطبق فوق رؤوسنا. . . . وهذا الخوف يسد في وجهنا طريق المستقبل ويأخذ بمجامع فكرنا ويفرض على أذهاننا شللاً بدأ يستشري فيظهر حتّى في مشاغلنا السخيفة اليوميّة الاعتياديّة».

ينجم هذا الخوف عن التجربة القاسية التي اجتزناها في هذا الجيل والتي علّمتنا درساً مخيفاً لحقيقتين أساسيتين تُفرَضان علينا اليوم لأننا عشنا حربين عالميّتين: «الأولى هي أن الحرب لا تزال مؤسّسة معترف بها في العالم الغربي والثانية أن كل حرب في العالم الغربي لا يمكن إلاّ أن تكون حرب إبادة نظراً للأوضاع التقنيّة والاجتماعيّة الحاضرة».

ثمّ إن «تاريخ العالم الغربي الحديث يرينا أن الحروب تتابعت بدرجة متزايدة من القوّة ومنذ الآن نستطيع القول إن الحرب العالمية الثانية لا تشكّل نقطة الختام في هذه الحركة الصاعدة. فإذا تتابعت سلسلة الحروب فإن التدرّج سيصل إلى درجات تعلو باستمرار إلى أن يصل تطوّر وكثافة وسائل الإرهاب والحرب إلى درجة يصبح تدمير الإنسانية بكاملها أمراً محتوماً» وها هو قد بلغ في الثمانينات هذا الحدّ من القدرة على التدمير الذي تنبّأ به توينبي في الستّينيات.

يُضاف إلى كل ذلك تفجُّر آمال الشعوب، وبشكلٍ سريع، في العيش حياةً حرّة كريمة نظراً لارتباط العالم بعضه ببعض، كما سبق أن قلنا، بفضل

(١) أرنولد توينبي، حرب وحضارة (Guerre et civilisation) ترجمة غيّاث حجّار منشورات دار الإتّحاد، بيروت، ١٩٦٣، ص ١٣.

الاختراعات الحديثة التي قصّرت المسافات وساهمت في سرعة انتشار الأفكار والمعلومات. . . والتي ربطت أوضاع الشعوب بعضها ببعض فوصلت أطراف العالم كافةً. . . وهذا يشكّل، دون أدنى شك، ميزة حسنة جدّاً كونها الشرط الأساسي والمبدئي في دفع الأفراد والشعوب للإبداع والبحث عن إمكانيّات تحقيق هذه الآمال والمطامح.

لكن، خطورة هذا الوضع تكمن في معرفة إنسان اليوم لحقوقه لذا أصبح من الصعب عليه تحمّل حرمانه منها هذا من جهة؛ أمّا من جهة أخرى فإنّ خطره البالغ يكمن في كون الآمال تنبثق من داخل الإنسان وترتبط بقدرته على التخيّل. . . بينما يبقى تحقيق هذه الآمال رهناً بالواقع وبكل المعطيات التي يعيش الإنسان ضمنها والتي من شأنها تحديد إمكانات التحقيق؛ هذا إلى جانب واقع هام جدّاً يكمن في سهولة إيقاظ المشاعر وإلهابها وصعوبة تطوير العقل وتأهيله للإنتاج والإبداع اللذين لا يتأتّيان إلاّ ببطء شديد وبعسر ومشقّة.

لا يُفهمنّ من كلامنا هذا إدانة الشعوب المتقدّمة على تقدّمها: فإنّنا لا نجهل فضلها في تفجير الطاقات البشريّة، لكنّنا نشدّد على ضرورة وعيها للمخاطر الناجمة عن تطوّرها التقني كيما تستطيع المحافظة على مكتسباتها وإلاّ أضاعت، إن لم يكن عاجلاً فآجلاً، كل ما قامت به من جهود نظراً لكون الوسائل التي وضعتها، هي نفسها، بمتناول أيدي البشر اليوم كفيلة بتدمير كل ما جنته لا بل بتدمير ذاتها مع غيرها: فالوسائل التي كانت في يد البشر، سابقاً، وفي متناول أهوائهم وأطماعهم لم يكن لها الفعل المدمِّر والمبدِّد الذي تمتلكه اليوم. هذا، فضلاً عن كون هذه الوسائل إذا ما أُحسِن استعمالها واستغلالها، كفيلة بتعويم البشريّة بالخيرات الوفيرة وبالرقي والازدهار اللذين لم يكن لهما مثيلٌ في التاريخ.

كما أنّنا لا نبرّىء الأفراد والشعوب النامية من مسؤوليّاتهم الجسيمة في تحسين أوضاعهم من:

- تغلّب على التخلّف الذي يعانون منه بسبب ركود عقولهم وفقدانهم

للفضائل الفرديّة والاجتماعيّة التي تكوّنت عندهم بفضل تراثهم الخاص...

ـ قدرة على نقد الذات كونها تشكّل الشرط الأساسي للتقدّم والإبداع: فبفضل هذه القدرة يتمكّن الإنسان من الارتداد إلى ذاته ومحاسبة نفسه... ممّا يمكّنه من إدراك الموقف الذي يتّخذه ووعي النقائص التي تعتوره... فيحاول التغلّب عليها (على النقائص) وتنمية قواه ومداركه...؛ عند ذاك، فقط، تتأمّن عنده ثقته بنفسه وبالآخرين... وبدون هذه الثقة وهذه المحاسبة للنفس لن يتمكّن، الإنسان، مهما ساعده الآخرون، من السّير في ركب التطوّر والتقدّم.

ـ قدرة على التثبّت في الميدان الحضاري إن من حيث المقدرة على استغلال الموارد الطبيعيّة أو من حيث التنظيم والانتظام الاجتماعيان أم من حيث الإبداع... ولا يتأمّن لهم (للأفراد والشعوب النامية) ذلك إلاّ بفضل نشاطهم وفعلهم الخاصّين والهادفين لتأمين تضامنهم واتحادهم وتحقيق العدالة الاجتماعية وإحراز القدرات العقلية والفضائل الخلقية.....

كل ذلك لا يتحقّق للإنسان الخامل والكسول بل للإنسان النشيط الذي يسعى، باستمرار، لتخطّي الوضعيّة الحاضرة الموجود ضمنها. كما أنّه لا يتحقّق إلاّ إذا استند إلى إيمانه بقدرة عقله وتاق إلى الحقيقة وعمل على اكتشافها وبلورتها (مهما كانت صعبة، مريرة وقاسية)؛ فإيمانه بالعقل وتوقه للحقيقة يؤدّيان به للتجهّز بأجهزة العلم واكتساب القدرات التي تمكّنه من الاكتشاف والإبداع واكتساب الدربة الفنيّة التي تمكّنه، بدورها، من السيطرة على الطبيعة واستغلال طاقاتها.

الإنسان الناشط ذو العقل المتفتّح والقوّة الفاعلة الممكنة هو وحده وراء قدرته على التقدّم في ميادين الحضارة ومسايرة ركبها إذ أن الحياة هي لمن يستحقها (من أفراد أو شعوب) أي لمن هو قادر بالعقل والخُلق والفضائل ولمن يفرض نفسه فرضاً بفضل ما أنجزه وليس بفضل ما يدّعيه وهي لمن يتشوّق للإبداع ولمن هو مستعد لدفع الثمن بالعمل الدؤوب والشاق لمعرفة الحقائق

ومن ثمّ القيام بعمله البنّاء على أساسها. . .

هذا الإنسان الناشط هو الذي يصنع التاريخ إذ يقبل على كل ما يتوفّر له من وسائل بعقلٍ متنبّه وفكر متيقّظ واعٍ. والعقل الواعي لا يقبل بأن تُفرَض عليه الأشياء فيخضع لها ويستسلم بل هو عاملٌ فاعل وله من صفاته الشخصيّة ومن القواعد التي يتقيّد بها والْمُثل والقيم التي يستلهمها ما يؤهّله للتحرّر من مادّته وللسيطرة عليها.

هذا هو الفرق الكامن بين الإنسان الذي يحيط بموضوعه من كل جوانبه بفضل عقله المدرك (مثلاً إنسان الدول المتقدّمة بشكلٍ عام) وبين سواه ممّن لم يبلغ هذه المرتبة من التفكير (مثلاً إنسان الدول النامية، بشكل خاص) إذ يكتفي بأخذ ما استنبطه سواه دون إحداث التعديل اللازم عليه كيما يتوافق مع شخصيّته ومُثُله وقيَمه الخاصّة. . . ممّا يجعله عبداً لما أخذه واستعمله.

بالإضافة إلى ذلك، هناك حاجة الإنسان الماسّة لتنمية الصفات والمؤهّلات التي يتطلّبها سعيه إلى الاستنباط، أو على الأقل استعمال منتجات الآخرين حتّى تتأمّن سلامة ما اكتسبه فيصبح موقفه منها إيجابيّاً يسهم في الكسب التراكمي الإيجابي نظراً لكون كل مزيّة من مزايا العقل المدرك الواعي والفاعل ينمّيها الإنسان في نفسه وفي سواه تشكّل مدماكاً ثابتاً في بناء شخصيّته (الحاضرة والمستقبلية) بناءً فعّالاً.

بناءً على ما سبق ذكره يمكن القول إن الإنسان هو محور التاريخ ولبّه ولولاه لما كان هناك تاريخ.

لكن هذا القول لا ينفي أهمّيّة أثر بعض الأفراد الأفذاذ «العظماء» كقلّة في المجتمع في صنع التاريخ بل يتكامل معه ويؤكّده.

٢ ـ أثر العظماء وسيرهم في صنع التاريخ

إذا ما راجعنا تاريخ البشريّة وجدنا أنّ على رأس كل مجتمع تميّز بحضارته الخاصّة به بعض الأشخاص «العظماء» الذين تمكّنوا من تحقيق قدرات جديدة أو

قيم مبتكرة سواء من حيث اكتشاف حقائق مجهولة أم من حيث تطبيق الحقائق المعروفة تطبيقاً مستحدثاً أظهر نبوغهم وتفرّدهم أم من حيث تبيُّن مفاهيم أسمى للحياة جدّوا وسعوا للارتقاء إليها بأنفسهم فكانوا مثلاً يُقتدى به في هذا المضمار، أم من حيث بلوغ اختباراتٍ أعمق لمعاني الحياة وقيمها. . . فهؤلاء الأشخاص كانوا مصدر الإبداع والكيان الذي يتمثّل به الخلق والعطاء.

هناك، بالواقع، مجموعة من الأفراد «النخبة» الذين أدّت جهودهم المتواصلة في مختلف الميادين: السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والفكرية والعلمية وغيرها. . . . ، وكفاحاتهم المتواصلة ونضالاتهم في سبيل تحقيق ما آمنوا به إلى رفع مستوى مجتمعهم (والبشريّة جمعاء) وتحريره من الجهل المسيطر عليه ودفعه في طريق التطوّر والتقدّم، هناك:

المصلحون الاجتماعيّون الذين نادوا بالمبادىء الإنسانية ودعوا إلى محاربة الجهل والتمسّك بأهداب العلم والفضيلة . . . ، كثيرون منهم ضحّوا بأنفسهم في سبيل نشر مبادئهم والعمل بها وتحقيقها في مجتمعهم.

المخترعون الذين استطاعوا، بفضل اختراعاتهم، تبديل وجه حياة الفرد والمجتمع وتسهيلها.

المفكّرون الذين أتوا بشتّى المبادىء وأوضحوها ونظّموا المعتقدات ودافعوا عنها وجنّدوا قوى العقل وقدراته في سبيل تبيان معنى الحريّة والعدالة والمساواة ومحاولة تحقيقها.

الثائرون الذين قاموا على الظلم السائد في مجتمعاتهم وناضلوا ضد قوى العدوان وهدموا الأوضاع الفاسدة والنظم المهترئة وعملوا بجد ونشاط في سبيل إصلاحها واستبدال النظم السلبيّة السائدة بنظم إيجابيّة فعّالة. . .

الحكّام الذين وطّدوا أركان العدل وسنّوا القوانين الرشيدة ونفّذوها وعمّموا فوائدها ومنافعها.

المنظّمون الذين وضعوا الخطط وعبّأوا الجهود واستثمروا الإمكانات الإنسانيّة الخيّرة في سبيل تقدّم البشريّة وتطوّرها.

القادة العسكريّون الذين لعبوا دوراً هامّاً في قولبة القوى التي حملتهم إلى العظمة.

كل هؤلاء وأمثالهم ممّن ذكرهم التاريخ قادة في قافلة التحضّر والتقدّم والتحرّر نظراً لما تميّزوا به من: نبلٍ في المقصد وصدقٍ في الوعي وتفتّح للحقيقة وللخير البشري وعمق نفاذ للفكر والعمل في محاربة الجهل والظلم وتثبيت أركان العدالة والحريّة والنظام وتمكين الإنسان في السيطرة على البيئة (الطبيعيّة والاجتماعيّة) التي يعيش ضمنها بفضل مختلف الوسائل والأدوات التي استنبطوها.

هناك من نفى صبغة العظمة عن هؤلاء الأفذاذ وبالأخص عن الثائرين والقادة العسكريّين بحجّة أنهم ليسوا أكثر من «ألقاب تعطي الأسماء للأحداث» كما قال تولستوي.

هناك إلى جانبهم، الكثير من المفكّرين الذين تساءلوا عن دور الرجل العظيم في التاريخ وكان جواب عدد كبير منهم إن الرجل العظيم هو فرد وكونه فرداً بارزاً فهو ظاهرة اجتماعيّة ذات أهميّة بارزة.

ولقد لاحظ جيبون بأن الحقيقة البديهية تكمن في وجوب تلاؤم الأحوال السائدة مع الشخصيّات الفذّة.

مهما يكن موقف المفكّرين من الرجال العظماء (معهم كان أو ضدّهم) فإن هناك حقيقة يجب أن تُقال وقد عبّر عنها هيجل أصدق تعبير: «إن الرجل العظيم في العصر هو الذي يستطيع أن يعبّر عن إرادة عصره في كلمات ويخبر عصره ما هي إرادته وينيرها. ما يفعله هو قلب وروح عصره، إنّه يحقّق عصره»[1].

والدكتور ليڤيس Leavis[2] يعني شيئاً كهذا حين يقول إن أهميّة الكتّاب

(١) هيجل، فلسفة الحق، الترجمة الإنكليزية ١٩٤٢، ص ٢٩٥.

(٢) ليڤيس. التقليد العظيم، ١٩٤٨، ص ٢٠.

العظام تبرز من خلال تشجيعهم للوعي الإنساني إذ أن الرجل العظيم يمثّل على الدوام إمّا القوى الموجودة مثل بسمارك ونابليون... الذين ساروا إلى العظمة على ظهر قوّة موجودة أصلاً أو قوى يساعد في خلقها عن طريق تحدّي السلطة الموجودة مثل كرومويل ولينين... الذين ساعدوا على قولبة القوى التي حملتهم إلى العظمة.

ولا ننسى، في هذا المجال، أولئك الذين تقدّموا عصرهم بفضل بُعد نظرهم وقدرة تفكيرهم على شقّ طريق المعرفة والتحرّر فلم تعرف أجيالهم مدى قيمتهم، لذا بخستهم حقّهم في حياتهم ولم تدرك عظمتهم إلاّ الأجيال اللاحقة.

ما هو جوهري، بنظر إدوارد كارّ (سبق ذكره، ص ٥٩) يتمثّل في كون الرجل العظيم فرداً بارزاً هو في الوقت نفسه «نتاجٌ للعملية التاريخيّة ومساعد لها؛ وهو، في الوقت نفسه ممثّل وخالق للقوى الاجتماعية التي تغيّر شكل العالم وأفكار الرجال».

إلى جانب هؤلاء العظماء الذين ساهموا، بفضل إبداع كلٍّ منهم في مجاله، في تكوين التراث الإنساني بوجهه المضيء، هناك أشخاص لعبوا دوراً كبيراً في التاريخ إنّما وللأسف دوراً سلبيّاً لطّخ جبين البشريّة لاعتماد هؤلاء الأشخاص الظلم والاستئثار بكل الحقوق واستلاب حقوق الغير ووسائل التعذيب وقتل النفوس والأجساد والتفظيع بالعقول... هؤلاء هم القادة السلبيّون الذين عادوا بالركب التقدّمي الحضاري إلى الوراء وركّزوا قواعد البدائية والهمجيّة.

يجدر بنا التوقّف قليلاً عند أثر النخبة «العظماء» في الرقي البشري وفي التطوّر الحضاري الذي عرفته الإنسانيّة ممّا يضطرّنا للتعرّض، بشكلٍ أساسي، إلى العلاقة المعقّدة والمتشعّبة الأطراف التي تجمع بين الفرد والمجتمع.

سبق أن تناولنا هذا الموضوع بشكلٍ مفصّل وما يهمّنا منه الآن يكمن في القول إن الفرد لا يوجد، على الأقل حضاريّاً، إلاّ في المجتمع؛ والمجتمع يتكوّن من أفراد والتفاعل بين الاثنين قائم دائماً وأبداً. ولقد سبق أن قلنا إن فصل

أحدهما عن الآخر إنّما هو عمل اصطناعي مخالف لسنّة الحياة وسياقها؛ مع ذلك فإنّنا نرى بأن الفرد (العبقري فردٌ من أفراد المجتمع)، بالرغم أو بالأحرى بفضل تفاعله مع مجتمعه، يبقى المصدر الأساسي للفعل والإبداع بحيث يكوِّن المجتمع ذلك المجال الحيوي الذي يتمّ الفعل ضمنه.

من هنا تأثّر الإبداع والإنجاز الفرديّين بالأحوال السائدة في هذا المجال (المجتمع) والتي قد تكون مهيِّئة وميسِّرة له أو، على العكس من ذلك، قد تكون عائقة ومعسِّرة له (أي للإنجاز الفردي). مراجعة التاريخ تنبئنا بأن أي مجتمع من المجتمعات قد زها وتقدّم وفاق غيره بفضل فريقٍ من أبنائه المبدعين في شتّى حقول ومجالات المعرفة والإدراك.

يُدعى هؤلاء المبدعون «النخبة المبدعة والطليعة الرائدة». أمّا سرّ إبداعهم وتميّزهم فهو أمر اختلفت فيه آراء الكتّاب: منهم من قال إن أعمال الكائن البشري ـ الفرد غالباً ما تسفر عن نتائج لم يقصدها أو يرغب فيها الذين قاموا بها أو حتّى من قِبَل أي فردٍ آخر: كم من اختراعات تمّت بطريق المصادفة دون أن يقصدها الأفراد الذين قاموا بها، ومع ذلك فإنّنا لا نستطيع بخس هؤلاء الأفراد حقّهم وعلينا الاعتراف بقيمة أعمالهم إذ لولا دقّة الملاحظة عندهم لما استطاعوا إدراك ما اكتشفوه ووضعه، من ثمّ، حيّز التنفيذ. يقول ماركس في مقدّمة كتابه «نقد الاقتصاد السياسي»: «في الإنتاج الاجتماعي لأدوات الانتاج يدخل البشر في علاقات ضرورة ومحدّدة مستقلّة عن إرادتهم»؛ ويقول تولستوي في «الحرب والسّلم»: «الإنسان يحيا عن وعي من أجل نفسه بيد أنّه أداة غير واعية في تحقيق الأهداف التاريخيّة الشاملة للبشريّة». أمّا البروفسّور بترفيلد[1] فيقول في المعنى نفسه «ثمّة شيء في طبيعة الأحداث التاريخيّة يحرّف مسار التاريخ في اتّجاه لم يقصده إنسان إطلاقاً».

على كل هذا نجيب بأن حقائق التاريخ هي حتماً حقائق حول الأفراد بيد أنّها ليست حول أفعال الأفراد التي أُنجِزَت في عُزْلة والتي يعتقد الأفراد أنّهم

(١) هـ، بترفيلد، الرجل الإنكليزي وتاريخه، ١٩٤٤، ص ١٠٣.

تصرّفوا بموجبها، بل حول علاقة الأفراد بعضهم ببعض في المجتمع وحول تأثير هذه الأفعال في سير البنية الاجتماعيّة بمختلف نظمها والعناصر المكوِّنة لها.

ثم إن الاختلاف في آراء مختلف الكتّاب تركّز بشكلٍ خاص، على دور الثائرين والمتمرّدين في التاريخ أكثر منه على دور أي عبقري نبغ في المجالات الأخرى نظراً لكونه يثير القضية الأساسية التي سبق أن نفينا طرحها أصلاً ألا وهي مسألة الفصل أو التناقض المزيّف بين المجتمع والفرد. ومع ذلك فإنّنا نؤكّد عدم وجود مجتمع متجانس بصورة كاملة نظراً لضرورة تمتّع كل فرد من أفراده بحريّة فرديّة، نسبيّة طبعاً، وإلا أصبح المجتمع مجرّد آلة لتسيير مختلف الأفراد الذين يكوّنونه: لقد سبق أن شدّدنا على فرادة كل شخص (إن من حيث التركيب البيو - فيزيولوجي والوراثي أم من حيث الاختبار الشخصي و...) وعلى تمتّع الشخصيّة الفرديّة بالمرونة والطواعية اللتين تسمحان لها بالتأقلم مع متطلّبات البيئة الاجتماعيّة التي تترعرع ضمنها والتي عليها، هي أيضاً، أن تتمتّع بالمرونة والطواعية اللازمتين لتمكينها من التلاؤم مع غنى وفرادة الأفراد الذين يكوّنونها وإلاّ دفعت بهم، في نهاية المطاف (أي بعد استنفاد كل الوسائل الممكنة والمتوفّرة ضمن المجتمع لحل مشاكله) للثورة عليها؛ إضافة إلى ذلك نقول: يُعتبَر كل مجتمع يتمتّع ببنية سليمة ساحة صراعٍ اجتماعي يتنافس ضمنها الأفراد في سبيل تأمين الأفضل والأصلح.

يدخل كل ذلك ضمن إطار ما يُسمّى بالمجتمع السليم القابل للتطوّر والتقدّم الذي لا يدفع أفراده، أو بعض أفراده، للثورة عليه.

على العكس من ذلك، هناك المجتمع الذي يتميّز ببنية جامدة غير قابلة للتلاؤم مع غنى وطموحات أفراده ممّا يدفع بهؤلاء، أو بأحدهم (لأنّه يتمتّع بالجرأة والإقدام والقدرة على التعبير عن إرادته وإرادة أمثاله وإنارتهم وهدايتهم) للثورة عليه ومحاولة قلب نظمه التي لم تعد متلائمة مع المتطلّبات المستجدّة.

هؤلاء هم الثائرون الإيجابيّون الذين نتكلّم عنهم لا أولئك الأفراد

(١) A.J.P. Taylor, From Napoleon to Stalin, 1950, p74.

السلبيّون والثائرون بالمعنى المَرَضي للكلمة الذين عاثوا في الأرض فساداً وسلّطوا على البلدان غضبهم وأطماعهم (وأطماع أتباعهم) فأعملوا في الناس القتل والتشريد وهدموا المعالم الحضارية وبدّدوها. هؤلاء كان لهم، حقاً، أثرهم القوي، إنما هو أثر سلبي لا إيجابي تميّز بإيقاف الحياة وردّها إلى الوراء لا بل نقضها بدلاً من إنشائها والمساهمة في توجيهها نحو الأمام؛ فكم من طاغٍ مستبد استطاع أن يتحكم لا بشعبه فحسب بل بشعوب أخرى أيضاً زمناً طويلاً فسلبهم نشاطهم وشلّ فيهم روح الحياة فمنعهم من الاكتساب والخلق لا بل أضاع منهم مكاسبهم السابقة (عديدة هي البلدان التي عانت الكثير في هذا المضمار ولا تزال تعاني وتدفع الثمن غالياً ومنها بصورة خاصة بعض البلدان العربية).

أمّا الثائر الإيجابي والقائد الصّالح فهو الذي يجسّد عقل وضمير معظم أفراد مجتمعه والمؤهّل لفعل حضاري مميّز.

كذلك أثار دور القادة السياسيين الكثير من التباين في الآراء: فهناك من قال إن «بالإمكان كتابة تاريخ أوروبا الحديث بلغة الجبابرة الثلاثة: نابليون وبسمارك ولينين» وهناك من قال إن «الحرب الطبقية في فرنسا خلقت ظروفاً وعلاقات مكّنت جملة من الأشخاص المتوسّطي القدرة أن يختالوا في زي الأبطال»[١].

مهما يكن رأي الكتّاب، فإنّنا بغنى عن محاولة الانتقاص من قدر الرجال العظماء وإفراغ عظمتهم كما فعل بعضهم بحجّة أن هناك رجالاً عظاماً أشراراً؛ كما أنّنا في غنى عن تعظيم قدرهم لدرجة العبادة؛ فهؤلاء العباقرة، إلى أي ميدان انتموا، فرضوا أنفسهم على التاريخ بفضل التراث الذي تركوه والذي يُضاف إلى التراث الحضاري الإيجابي فخلّد التاريخ أسماءهم.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الفعل الحضاري والتراث الإيجابي لا يقتصران فقط على هذه النخبة المبدعة أو على ذوي العبقريات والمواهب الفذّة لأن

(١) جيبون، انحلال وسقوط الأمبراطوريّة الرومانية، الفصل التاسع عشر.

نتاجهم، بالرغم من عظمته وروعته لا يؤلّف مجموع الحضارة التاريخية؛ فالحضارة نتاجٌ أعم وأشمل يشترك فيه كل فردٍ من أفراد المجتمع مهما كان شأنه ودوره. إنّها نسيجٌ متشابك حاكته أيدي وعقول متعدّدة ومختلفة فكان لكل منها قسطها وهي تتحدّد، إجمالاً، ببُعدين: بُعد عمودي يدل على درجة السمو والرقي التي بلغتها النخبة المُبدِعة وبُعد أفقي يدل على مدى الانتشار والسعة ويشمل دور الأشخاص المغمورين.

٣ ـ دور الأشخاص المغمورين في صنع التاريخ

إن الفرد والنخبة هما في تفاعل دائم مع مجتمعهما فلا غنى لهما عن جماهير المجتمع كما لا غنى للجماهير عنهما؛ والتطوّر الاجتماعي يتطلّب تجاوباً صادقاً بين الاثنين وإن كان الأساس ينطلق دوماً من خميرة الإبداع «أي العباقرة» الفاعلة في المجتمع نظراً لكونها دوماً مبعث الحيويّة والتجدّد في جسم المجتمع ومصدر تقدّمه ورقيّه خاصّة أن العوامل الحضارية هي، كما سبق أن قلنا، عوامل إنسانيّة اكتسابيّة لا عفويّة وثابتة.

ثمّ إن الحضارة تكوّن نتاج سعيٍ ينمو وجهد يتجدّد وهي تبدأ بجهد اكتسابي ويتوقّف تطوّرها على نوعه ومداه. المهم في هذا الجهد هو أنّه لا يُعطى بل يؤخذ ولا يحصل إلاّ بقدر ما يُبذَل في سبيله لما يقتضيه من كفاح مستمر في شتّى الميادين ولما يتطلّبه من أشخاص لديهم الاستعداد الكافي لبذل نفوسهم في سبيل مبادئهم أكان ذلك في الميادين العسكرية والاجتماعية ـ التنظيمية أم في مختلف ميادين الفكر والعمل.

ولا يقتصر هذا الجهد على الكفاح من أجل الاكتساب والإنجاز فقط بل أيضاً من أجل الحفاظ على المكاسب لأن أي خمود في هذا الجهد أو أي تعطيل له يسبّب عجزاً عن الاكتساب وإضاعة للمكاسب التي أحرزها الإنسان فيؤدّي، بالتالي، إلى ارتدادٍ نحو الماضي والموت المعنوي إذ أن الحياة سيرٌ متدفّق نحو الأمام لا يقبل التوقّف أو العودة إلى الوراء...

ثم إن الاكتساب الحضاري يصقل وعي الإنسان ويبرز قدرته المتنامية

بالنسبة للعوامل الطبيعية وقد كانت هـذه العوامـل أقوى أثـراً في الحضارات الماضية بسبب ضعف العلم وضآلته عند الإنسان القديم وقدرته المحدودة جدّاً على ضبط العوامل وتوجيهها على ضوء العقل والمعرفة؛ لكنّ هذا الأثر قد خفّ كثيراً اليوم بفضل تقدّم العلم بمختلف ميادينه بحيث تكشّفت للإنسان أشياء كثيرة كانت خافية عليه فكان يردّها إلى أثر قوى خفيّة.

وهكذا نرى أن وعي الإنسان ومعرفته العلميّة المتزايدة عزّزا عنده مجال الحريّة أمام فاعليّته في محيطه وفي بيئته وفي نفسه. إنّما مبعث هذا الوعي كان يتجسّد دائماً بالنخبة والطليعة، بمعنى أننا لا نجد مجتمعاً سجّل تقدّماً على غيره في مضمار الحضارة إلاّ وعلى رأسه فريقٌ من أبنائه هم الذين فكّروا وأبدعـوا وكانوا المثل الذي يُقتدى به بتخطّيهم القيود والحدود المرسومة بوجههم من قِبَل محيطهم. . .

لكن ينبغي التذكير بأن عملهم الإفرادي يبقى محدود الفعالية إذا لم يُرفَق بتأثر من قِبَل الجماهير التي تضفي على عملهم مدى وسعة انتشار فعاليته.

والواقع أن للجماهير قوتها التي لا تُنكر وهي تلعب دوراً كبيراً في توجيه مجرى الأحداث: فالأشخاص المغمورون هم الذين يكوّنون الغالبيّة العظمى التي تؤمّن الأرضيّة Back-ground الضرورية لبلورة أهميّة إنتاج العظماء بفضل استعمالهم له واستغلالهم إيّاه إذ ما هي أهميّة أي إنتاج، مهما عظُم (أي اختراع مثل الآلات المنزلية وغيرها. . . وأي نظام اجتماعي. . .) إذا لم يساهم هـذا الإنتاج في تعديل حياة الفرد والمجتمع؟ وإذا لم يشكّل كسباً إنسانياً يندرج ضمن إطار التراث الإيجابي؟

ثم إن «حياة الإنسان العادي» الذي لم يرتفع إلى مراتب الحكم والمسؤولية ولم يتميّز بإبداع خاص لها أهميّتها الكبرى في الدلالة على مبلغ رقي مجتمعـه ومدى حضارته ذلك أن المجتمع لا يقوم فقط بأفراده المبدعين بل يرتكز أساساً على أفراده المغمورين الذين يشكّلون الغالبيّة العظمى.

وكذلك لا يقوم المجتمع بطبقاته السائدة فقط بل، خـاصّةً، بـطبقاتـه

المحرومة والمنسية، لذا علينا، إذا ما شئنـا تكوين صـورةٍ واضحة عن هـذا المجتمع، الحرص على تمثيل جميع طبقاته وكذلك جميع نشاطاتـه وأوضاعـه: فهؤلاء جميعاً يكوّنون المجتمع وينشأون في ظل حضارته لذا فهم يتأثّرون بها ويؤثّرون فيها وهي تفعل فيهم ويفعلون فيها؛ إن الأشخاص يُعتبَرون من أهم حَمَلة العناصر الحضارية ومن أفعل وسائل نقلها، لا بل كانوا في الماضي، قبل أن تتوفّر الوسائل الأخرى (كوسائل النقل ووسائل الإعلام الحديثة) أبرز عوامل النقل الحضاري، تتواصل الحضـارات عن طريقهم وبـواسطتهم تنتقـل معالم المجتمع الحضاريّة داخل المجتمع نفسه وبين مختلف المجتمعات.

ولقد كان النقل الحضاري محدوداً لكنّه اليوم، في عهد التقدّم التقني الهائل الذي عرفه القرن العشرون، شديد الانتشار ويشمل البشريّة كلّها تقريباً وذلك بفضل انتقال الأشخاص السريع والكثير التواتر عبر وسائل الاتّصال والتواصل الحديثة (من وسائل نقل كالطائرة وغيرها... ووسائل إعـلام)، لقد غـدت البشريّة كلها مرتبطة فيما بينها بأوثق الروابط الماديّة والتقنية: إنّنا لا نجد اليوم فرداً لا يتأثّر بمختلف الآراء والأفكار وغيرها من المؤثّرات الماديّة أو الفكرية أو الحضاريّة التي يسمعها عبر أدوات البث الإعلامية (من أقمار صناعية وتلفزيون وراديو وصحف ومجلاّت...) ذات الفعل الخاص في تحـريك مشـاعر وآراء العامّة والخاصّة من الناس وبالتالي، في تبديل معتقداتها وتقاليدها ووجوه عيشها وتفكيرها.

وما يُقال عن الأشخاص يُقال أيضـاً، وبمعنى مختلف، عن القطاعـات الاجتماعيّة: فكـل مجتمع يشتمـل على عـدد لا يُحصى من القطاعـات (قطاع التجارة، قطاع الزراعة، قـطاع الصناعـة، قطاع التعليم، قـطاع العلاقـات العامّة،...)؛ وكل قطاع يُشكّـل مؤسّسة لهـا مكانتهـا الخاصّـة ضمن إطار المجتمع الأكبر.

ثمّ إن لكل مؤسّسة من هذه المؤسّسات أهدافاً محدَّدة تعمل على تحقيقها ويكون هذا التحقيق في ظل النظام السائد. وهي تتميز بدرجة معيّنة من الدوام

والاستمرار نظراً لكونها تتمتّع بنظمها الخاصّة كما أن طرق عملها لا تنتظم إلاّ بعد أن تكون قد أصبحت مقبولة بصفة عامّة لفترة معقولة من الزمن. ودوامها على الأساس نفسه هو السبب في اتّصافها بالجمود في كثير من الأحيان بالنسبة للسلوك الفردي وبالنسبة للنظام الاجتماعي ـ الثقافي ككل.

كما أنها (أي المؤسسات الاجتماعية) تمتاز بكونها تتضمّن تنظيمات من أنماط من المفاهيم والسلوك تعبّر عنها الجماعة من خلال نشاط أفرادها وقيامهم بوظيفتهم الخاصّة. ومتى تكوّنت كل مؤسّسة فإنّها تميل، بعد ذلك، إلى تقوية وحدتها وتوحيد عناصرها المكوّنة لها وتكييف نفسها كوحدة ضمن النظام الثقافي الشامل للمجتمع أي، بمعنى آخر، تقوم بوظيفتها كوحدة ضمن النظام الاجتماعي ككل.

وهكذا يتكوّن المجتمع الأكبر من مجموعة من المؤسّسات التي تقوم بوظائف مختلفة يشكّل مجموعها كلاًّ معقّداً مؤلّفاً من عناصر ثقافية معقّدة تبقى، رغم ذلك، كلاًّ متكاملاً إذ أنها تصب كلّها في وحدة المجتمع الأكبر وهي تحدّد للفرد مركزه الاجتماعي والدور الذي يقوم به داخل مجتمعه.

لذا لا تتكامل الصورة الحضاريّة التاريخيّة المكوّنة عن مجتمع معيّن إلاّ بتكامل مختلف قطاعاته (مؤسّساته) ومجالاته الحيويّة الفاعلة حيث يشكّل الشخص، أيّ شخص، المحور الأساسي الكفيل ببلورة حيويّتها ونشاطها نظراً لكونه يشكّل العماد الأساسي الذي يقوم عليه عبء تحقيق مختلف النشاطات والفعاليّات. . .

من هنا تُفهَم أهميّة الأشخاص المغمورين في بلورة الأحداث التاريخيّة. ينطبق هذا القول على كل العهود وبشكلٍ خاص على القرن العشرين الذي يتميّز بالتواصل الدائم بين مختلف الأفراد داخل المجتمع نفسه وبين مختلف المجتمعات؛ كما أنّه يتميّز بتشابك العلاقات الإنسانية عبر العالم أجمع وبارتباط البشريّة فيما بينها بروابط فاعلة ومصالح مُتبادلَة لا بل بمصير واحد مشترك. ولا يخفى ما لهذه الروابط والتبادلات من أثر في تكوين الأحداث التاريخيّة والمولّدات

الحضاريّة. ثم إن هذه الروابط لا تقتصر على أشخاص معيّنين بل تشمل الجماهير المتعدّدة وإن بدت أقوى عند بعضها منها عند بعضها الآخر وذلك لاختلاف الأشخاص تبعاً لشخصيتهم وقدراتهم الخاصّة (ماديّةً كانت أم فكريّة أم ثقافيّة) وتبعاً لنوع وطبيعة عملهم... وما إلى ذلك من أسباب تجعل بعض الأشخاص أكثر قدرة على التنقّل والانتقال (داخليّاً وخارجياً) من غيرهم ولا يُخفى ما لانتقال الشخص من قدرة على تمتين التواصل وتنويعه...

ثم إن دور الفرد في صنع التاريخ يتعدّى أثر العظماء والأشخاص المغمورين ليشمل أثره في صناعة هذا التاريخ وأثر ميوله وأهوائه الخاصّة في كتابته.

٤ ـ أثر الفرد وشخصيّته في صناعة التاريخ وأثر ميوله في كتابته:

ذكرنا مراراً وتكراراً أن الإنسان هو محور التاريخ ولبّه وأنّه، أيضاً، كائنٌ اجتماعيّ لا يستطيع التجرّد من اختباراته الشخصيّة ومشاعره الموروثة والمكتسبة والجو الذي نشأ فيه والتقاليد السّائدة في محيطه وعصره: «فالإنسان، أي إنسان، هو وليد أحداث وملتقى عوامل متطوّرة مطوّرة تعمل في نفسه ومجتمعه» كما يقول ق. زريق («نحن والتاريخ»، سبق ذكره، ص ٥١).

ولقد قلنا، أيضاً، إن المعنى العميق لكون الإنسان تاريخياً يكمن في كونه كائناً حياً فاعلاً وبهذه الصفة لا يتأثر بالواقع فحسب بل يؤثّر فيه.

يُفهم من كل ذلك أن الإنسان هو الذي يصنع التاريخ إذ «لا يوجد تاريخ بدون إنسان»؛ من هنا تأثير ميول وأهواء المؤرّخ ـ الفرد في كيفيّة كتابته للتاريخ، ممّا يتطلّب ميزات علميّة على كل مؤرّخ التقيّد بها والتزامها للحد من تأثير ذاتيّته وميوله. من هذه الميزات: قول الحقيقة، الدقّة، التجرّد، الموضوعيّة العلميّة، الشعور بالمسؤولية، الأمانة وكلّها صفات ذات اتّصال مباشر بالأصول الخلقيّة عند المؤرّخ وبجذور هذه الأصول الخلقيّة.

ضرورة الالتزام بهذه الميزات تُفسَّر بأسباب متعدّدة يبقى أهمّها: استخدام الإنسان (مؤرّخاً كان أم قارئاً) للتاريخ في الماضي، ولا يـزال يستخدمـه في الحاضر، لأغراض عديدة: لقد كتب بعض المؤرّخين للترفيه عن القارىء أو إثارة خياله أو إرضاء لذّته الفنيّة، وقصد آخرون منه الدفاع عن سلطة سياسيّة معيّنة أو عقيدة دينيّة أو رأي فلسفي، وأراد سواهم أن يبعثوا بواسطته الهمم أو يلهبـوا العواطف أو يثيروا الأحقاد والفتن ورغب غير هؤلاء وأولئك في أن يستخرجوا من خلاله العِبَر ويستخلصوا القواعد التي يجب أن تُتبَع في السلوك الفردي أو في السياسة والحكم.

هذه الأغراض هي، كما نرى، على أنواع ومراتب: فمنها ما يصدر عن شهوة أو هوى أو إرضاء نزعة خاصّة ومنها ما يهدف، بـإخلاص، إلى نفـعٍ وفائدة وخدمة عامّة ومنها ما هو على درجات متباينة بينها.

على أنّه يمكن القول إن الأفراد يطبعون التاريخ بطابعهم الخاص، بحيث يُفهَم التاريخ الخاص نفسه بالمجتمع نفسه بشكل يختلف باختلاف المؤرخـين والقـرّاء وميولهم الخـاصّـة (السيـاسيّـة والفكـريـة والـدينيّـة والأيـديـولـوجيّـة والنفسيـة...)؛ أبلغ مثال عـلى ذلك يـظهر من خـلال الأحكـام المتتـابعـة للمؤرّخين الفرنسيّين، في القرن التاسع عشر، عن نابوليون التي عكست النماذج المتغيّرة والمتنازعة للحياة السياسية والفكر الفرنسي عبر القرن نفسه: منهم من افتتن بشخصيّة هذا القائد وعدّد صفاتها ومميّزاتها الخاصّة... ومنهم من جرّدها من صفات العظمة وردّ شهرتها إلى كونها سارت إلى العظمـة على ظهـر قوّة موجودة أصلاً.

لنا في الدول العربيّة وفي لبنان بشكلٍ خاص أفضل نموذج على ذلك: فإن تاريخ لبنان فُهِم ويُفهم دائماً بشكلٍ يختلف، تماماً، بـاختلاف الكتّـاب ونزعاتهم (السياسية والطائفيّة والأيديولوجيّة...) وباختلاف القرّاء ونزعـاتهم الخاصّة.

من هنا يُفهَم القول التالي: «فكر المؤرّخين كفكر باقي البشر تجري قولبته

من قِبَل البيئة حسب الزمان والمكان» (إدوارد كار، سبق ذكره، ص ٤٦)، كما يُفهَم سعي أكتون، الذي أدرك هذه الحقيقة، لأن يجد مهرباً منها في التاريخ نفسه بقوله: يجب أن يكون التاريخ منقذنا ليس من التأثير المفرط لزماننا فحسب ولكن من التأثير المفرط لذواتنا ومن طغيان البيئة وضغط الهواء الذي نتنفسّه.

لكن كيف يكون التاريخ ذلك المنقذ من تأثير الزمان والذات، فهذا ما يتحقّق بالتزام المؤرّخ للميزات العلميّة التي أشرنا إليها في كتابة التاريخ والتي هي، في نهاية الأمر، عملٌ علمي يتكوّن نتيجة صفات يكتسبها المؤرّخ وينمّيها؛ كما أنّها حصيلة فضائل يكوّنها جهاد العقل والنفس. إنّما تبقى قيمة أي بحث يقوم به مرتبطة بقيمته كإنسانٍ باحث ولا تعلو عليها.

في مقدمّة المزايا المطلوبة والفضائل المكتسبة: الجدّ والمثابرة. فالباحث المنتج هو الذي يروّض نفسه على الجدّ والجلد وعلى العمل الشاق المستديم وعلى الصبر لأن البحث يبعث، أحياناً، في نفس الباحث شعوراً بالوحدة والانزواء لما يدعو إلى التأمّل والعناء والانكباب على العمل الذي يتطلّب، غالباً، جهد سنوات بكاملها يقضيها الإنسان في تتبّع كل ما يعنيه والتدقيق به ومعالجته.

وقيمة البحث العلمي تكمن أساساً في العمل الدؤوب والمستمر بمقدار ما تكمن في سرعة الخاطر ولمعان الذهن والحذق في التصرّف إذ على الباحث التضحية بالنتائج اليسيرة والسريعة في سبيل النتائج الأبقى والأرسخ على المدى البعيد وإن كانت بطيئة وصعبة التحقيق.

ومن المزايا التي على المؤرّخ التحلّي بها: الشك والنقد، فنقد ما يُقال والشك فيه ومحاولة التعرّف على صفات من يرويه وامتحان مضمونه يُكسِب الكتابة التاريخيّة صفة علميّة لأن الإنسان ميّال بفطرته إلى التصديق؛ فما أكثر ما يتناقله الناس من أخبار دون محاولة التدقيق في صحّتها ونحن في المجتمع الشرقي نعاني أكثر من غيرنا من تأثير الشائعات على سمعتنا الاجتماعيّة والشخصيّة إذ يكفي بثّ شائعة مُغرِضة ضد من نكرهه حتّى تسري هذه

الشائعة على كل لسان. . . . حتّى العلماء الذين اعتادوا ممارسة الشكّ وتطبيق أساليب النقد في حقول اختصاصهم يتصرّفون، أحياناً، تصرّف العامّة فيما يختص بقبول إشاعة سارية أو تناقل خبر معيّن لمجرّد كونه نُشِر في صحيفةٍ ما أو ورد على لسان شخصٍ هام. . : أبلغ مثال على ذلك، التسابق الذي نشهده اليوم في مضمار الدّعاية لتأمين انتشار سلعةٍ معيّنة أو خبر معيّن. . . .

كل هذه الأساليب ما كانت لتُحدِث أثرها لولا ميل الإنسان الفطري إلى تصديق ما يسمع بعكس الحس النقدي الذي يتطلّب منه تطوّراً فكريّاً وثوريّاً وممارسةً وجهداً مستمرّين. فالشك والنقد (نقد الغير ونقد الذات) يؤمّنان للعقل المنفتح انضباطاً وعمقاً بينما يقود التصديق إلى شيوع التقليد والاهتمام باللفظ دون المعنى وبالظاهر دون الباطن.

ثم إن التاريخ مجالٌ واسعٌ جدّاً تكثر فيه الأسباب التي تدعو لسيادة الميل إلى التصديق على حاسّة النقد: يرتكز هذا العلم على الوثائق الماضية التي تكتسب على مرّ الزمن، حرمة وقداسة يحميانها من خطر الشك والنقد. ثم إن موضوعه (أي موضوع التاريخ) يتأثّر، أكثر من باقي العلوم، بالأهواء الفردية والنزعات الاجتماعيّة التي تتسرّب إليه من كل ناحية وتفعل فيه فعلاً قويّاً، منتشراً؛ هذا إلى جانب صعوبة تأمين وسائل النقد لما يتطلّبه من جهدٍ في التفتيش عن مصادر متعدّدة يتعذّر، أحياناً، إيجادها وإذا ما وُجدت فهي غالباً ما تكون متناقضة. . .

إنّما بالشك نقصد ذلك الشك المتّزن وبالنقد الحس النقدي الواعي لأن التطرّف وعدم العلميّة والموضوعيّة في هذا المجال يؤدّيان إلى مزالق ومخاطر (مثل التجريح والتعرّض لكرامة الأشخاص والشعوب. . .) تضاهي بخطورتها تلك التي يؤدّي إليها انعدامها إذ تنعدم، عندها، الفائدة الإيجابيّة المرجوّة منها.

تأمين الاتّزان يتطلّب من المؤرّخ مزيّة أخرى هي: الدقّة والأمانة (إن في النقل أو في التفكير أو في التعبير). فالدقّة تشكّل شرطاً أساسيّاً من شروط أي بحث علمي، وعاملاً من عوامل تقدّمه وتطوّره نظراً لميل الإنسان إلى أن يصول

ويجول في ميادين الخيال، آنفاً من الانضباط ومؤثراً التعميم على التخصيص لما يتطلّبه الانضباط والتخصيص من بحثٍ عن مصادر متعدّدة ينبغي استقصاء ما تحتويه بدقّة ورويّة وإمعان قصد التثبّت من صحّة النص والتعرّف على المؤلّف ومكانه وزمانه ومقارنة هذا النص بأدلّة ظاهرة في النص نفسه أو في سواه من النصوص. . .

ولكي يتمكّن المؤرّخ من تحقيق كل ذلك عليه أن يتحلّى بمزيّة التجرّد من ميوله وأهوائه الخاصّة كيما يتمكّن من النظر، بموضوعيّة علميّة، في ماضي امتهِ أو في ماضي سواها من الأمم: ما حقّقته هذه الأمّة أو تلك في ميدان الحضارة وما أصابها من وَهَن وانتكاس وعودة إلى الوراء. . .

كثيرون هم العلماء الذين حاولوا اكتساب هذه المزيّة إنّما قلّة هم الذين استطاعوا ذلك نظراً لما يتطلّبه التجرّد من دقّة وحدّة بصيرة وقدرة على النفاذ إلى أعماق الأفراد والجماعات الذين يتحدّث المؤرّخ عنهم كيما يستطيع إدراك إحساساتهم وتلمُّس أهوائهم واختبار ميولهم ورغباتهم وآمالهم وأمانيهم والظروف التي كانت تحيط بهم وتأثّرهم بها وتأثيرهم فيها. . . وصعوبة تحقيق التجرّد تكمن، أساساً، في كون الماضي الذي يتناوله بالبحث هو حصيلة ميول وإرادات ومطامع ومعتقدات وتبادلات حيّة بين الفرد ومجتمعه من جهة وبين مجتمعه وباقي المجتمعات من جهة أخرى.

لذا، لا بدّ للمؤرّخ أن يفهم الماضي على حقيقته وفيه ما يحب وما يكره، ما يُقرّ به وما ينكره، ما يعجبه وما لا يعجبه. وكما يقول ق. زريق («نحن والتاريخ»، سبق ذكره، ص ١٠٠)، بفضل التجرّد العلمي، لا يصبح عمل المؤرّخ مجرّد تلقٍ وانفعال كما أنه لا يصبح هو «مجرّد مرآة تنعكس عليها الصور أو شريط تسجّل فيه الأحداث وإنّما يغدو ذهناً تتلاقى فيه أفكار الماضي ومعتقداته ونفساً مفعمة بمشاعر الأجيال واختباراتها على ما فيها من شَبَه واختلاف ومن هدوء وصخب ومن تجاذب وتنافر وتناقض. لقد استطاع أن يجعل الماضي حيّاً فيه، فاكتسب تجرّده صفة إيجابيّة فاعلة».

بفضـل ذلك، يتمكّن المؤرّخ ومعـه القارىء من النفـاذ إلى المضمـون الإنساني من خلال الأحداث الماضية فيدرك ما في هذا المضمون من غنىً وتعقّد وترابط صلات وما يجيش فيه من حركة وما يتّصف به من صيرورة فيسعى، بالتالي، للوقوف على أسرار هذه الصيرورة (سنفرد لها جزءاً خاصّاً، فيما بعد: البعد التاريخي) من حيث اتّجاهها ومصيرها والعوامل الـدافعة لهـا ومدى مـا تتضمّنه من تراكم وتقدّم ومن وحدة وتكامل.

وهكذا يساهم المؤرّخ في بلورة معنى **التاريخيّة الإنسانية** فيساعد الإنسان على اكتسابها نظراً لكونه يذكر المـاضي لكنّه، أيضـاً، يعيش الحاضر ويخطّط للمستقبل.

لقد شدّدنا سابقاً على أهميّة الحاضر والمستقبل في إنسانيّة الشخص الذي، بالرغم من حنينه إلى الماضي، يتعرّض خلال حياته لمشاكل يسـاعده اختبـاره الشخصي واختبار من سبقه على حلّها فيتمكّن، بالتالي، من إشباع وسدّ حاجاته الطارئة والدائمة؛ كما أنّه يعاني من قلق ناتج عمّا يخبّئه له الغد فيساعده اختباره على التطلّع للمستقبل برويّة وإمعان يساعدانـه في التخطيط لـه ورسم بعض التوقّعات الممكنة. . . .

بمعنى آخر، لا يحيا المؤرّخ في الماضي وحسب بل يعيش الحـاضر أيضاً ويختـبره كإنسـان يتميّز بشخصيّـة فرديّـة واجتماعيّـة لها معتقـداتهـا ومـواقفهـا وإحساساتها المتأثّرة بالماضي والمؤثّرة فيه عبر عمليّة تبادل وتفاعل ديناميين، إنّما لا يمكنه تحقيق هذا التفاعل الدينامي إذا لم يُدرك (كونه مؤرّخاً وفرداً في الوقت نفسه) الحدود الفاصلة بين اختبار الماضي واختبار الحاضر ووظيفة كل منهما فلا يسمح بطغيان الواحد منهما على الآخر.

يمكن القول باختصار إن ما يُطلَب من المؤرّخ لا يعني انطفاء شخصيّته لأن طبيعة الإنسان قائمة، بمقدار كبير، على الشعور والإرادة والإيمان. . . . ما يُطـلَب منه يكمن في وعيه لمشاكل عصره ومن ثم محاولة معالجتها على ضـوء مجريات الحضارة السابقة لزمنه والمعاصرة له على حدّ سواء. ويكفي إلقاء نظرة

على الإنتاج التاريخي في الماضي كي ندرك أن أشهر المؤلّفات وأعظمها ذكراً وأبقاها أثراً هي تلك التي وضعها أشخاص تميّزوا بمعتقداتهم الأساسيّة الحيّة الخاصّة بهم وبإحساساتهم المرهفة والواعية لمشاكل عصرهم كما تميّزوا بتأثّرهم بمجرى الحضارة وتأثيرهم فيها.

يقودنا هذا للحديث عن مزيّة تكمن وراء جميع المزايا الأخرى، المذكورة أعلاه، ونقصد بها: محبّة الحقيقة؛ فقيمة كل جهد وعمل تاريخيّين ترتبط بشكلٍ مباشر بدرجة التزام المؤرّخ بقول الحقيقة ومحبّته لها مهما كانت مؤلمة ومرّة المذاق أحياناً، ولولا هذه المحبّة لما كان هناك صبرٌ في السعي وحرصٌ على الدقّة ولا إحساس بضرورة تحكيم الشك المتّزن والحس النقدي الواعي. . . .

تحقيق المؤرّخ لهذه المزيّة ليس بالأمر السهل نظراً لارتباط التاريخ بجذور الإنسان وأهوائه ورغباته وآماله وأمانيه؛ أضف إلى ذلك ما سبق أن قلناه في هذا الإطار بالنسبة لاستخدام التاريخ، ماضياً وحاضراً، لأغراض عديدة يبقى أهمها الغرض القومي الذي ينشد من التاريخ بعث الأمجاد الماضية وتركيز أصول الأمة وإثارة الهمم لبناء النهضة القوميّة المرتجاة.

كل هذه الصعوبات لا بدّ منها، هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فإن محبّة الحقيقة يمكن أن تحقّق غايتها، بالرغم من وجود هذه الصّعاب، إذا ما كان قائلها أميناً وواعياً للمفاهيم التي هو بصدد الدفاع عنها وعياً دقيقاً مفعماً بروح الإخلاص، منزّهاً عن الشوائب الخلقية وجاهداً ما استطاع في استطلاع الحقيقة، عاملاً على جلائها والدفاع عنها بموضوعيّة، أي يحسن استعمال التاريخ واستغلاله لكي يكون أثره إيجابياً والابتعاد عن سوء استغلاله له كوسيلة لدعم نظامٍ قائم وتبرير وجوده أو لدعم معتقدات خاصّة غير مبرّرة بالاختبار العلمي. . . .

من شأن ذلك (سوء استغلال التاريخ)، أن يؤدّي إلى نتائج مغايرة لمصلحة الشخص نفسه أو لمصلحة أمته ولخير الإنسانية الشاملة إذ كثيراً ما غذّت المؤلّفات التاريخية من ضغائن وشرور أدّت، فيما بعد، إلى حروب ومجازر

أو، على الأقل، إلى بثّ التفرقة بين طبقات وأفراد الشعب الواحد أو بين مختلف الشعوب (لنا في المؤلّفات التاريخية التي كُتِبَت حول البلدان الأوروبية وفي تلك التي كُتِبَت في لبنان أبلغ برهان على ذلك: كثيراً ما يعود مختلف الفرقاء المتنازعين للتاريخ نفسه لتبرير مزاعمهم ونواياهم... بالرغم من اختلافها وتنوّعها...).

رأينا، خلال سياقنا لأهم المزايا، التي على المؤرّخ التحلّي بها، صعوبة تحقيقها بمعنى أنها لا تأتي هبة ومنحة بل تتطلّب تدرّباً عقلياً ومجالدةً نفسيّة لا تتأتّى لجميع من يشاء خوض غمارها إذ يُطلَب منه، إلى جانب ما ذكرناه سابقاً، التحلّي بروح المسؤولية: فمن يخوض هذه المعركة العلميّة لن يتمكّن من الوصول إلى هدفه إذا لم يتملّكه شعورٌ بنبل عمله وبضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقه ممّا يستوجب، أساساً، صفات إنسانية ذات اتّصال مباشر بالأصول الخُلُقيّة عند المؤرّخ ـ الفرد وبجذورها.

لا ينجح المؤرّخ في أداء رسالته الجسيمة إذا لم يكن يتميّز بأخلاق تساعده على ضبط نفسه وعلى ضبط مختلف النزعات التي تتنازعه إذ عليه دائماً أن يتوخّى الأمانة والصدق إن في عودته للمراجع التي يعتمدها في عمله أم في شعوره بضخامة المسؤوليّة الملقاة على عاتقه، أم في مراقبة نفسه ونقد ذاته ومحاسبتها... كل ذلك يتطلّب منه اكتساب الفضائل الخلقية التي ينمّيها في نفسه إحساسه بالمسؤولية الذي يرتكز، أساساً، على قدرات كامنة في شخصيّته... نظراً لكونه يتعرّض، بشكل شبه دائم، لسيطرة نزعاته وأهوائه الشخصيّة.

باختصار نقول: إنّ التعرّف على الميزات التي تتطلّبها الصناعة التاريخية لا يشكّل سوى شرط من شروط التأريخ إذ يكمن الشرط المبدئي والضروري له في اتّساع أفق المؤرّخ ـ الفرد وميزاته الفردية والنفسية وعمق اختباره بحيث يستطيع النفاذ إلى مضمون الأسلوب العلمي فيعرف، بالتالي، حدوده ويستطيع، من ثمّ، مناقشة موضوع علمه والمعطيات التي يتناولها وربط نتائجه

بنتائج سـواه من المؤرّخين أو المفكّـرين أو العلماء في مختلف الميادين الفكـريّة والعلميّـة الأخرى. . .

لقد سبق أن شدّدنا على الإنسان، كلبٍّ للتاريخ ومحتواه، وراء أي أثر أو نقش أو كتاب أو أيّة بقيّة من بقايا الماضي (موضوع التاريخ الأساسي)، على إنسان أو أناس عاشوا وعملوا بجدّ وكد، أحبّوا وكرهوا، فرحوا وتألّموا واختبروا الحياة بشكلٍ يمكن أن يكون مماثلاً لاختبار الإنسـان المعاصر أو مختلف عنـه لكنّه، على أي حال، اختبار إنساني يكوِّن، في نهاية المطاف، ركيـزة الماضي ومحتواه.

فوراء كل الأحداث المرويّة والأسماء المـردَّدة والآثار المخلَّفـة. . . أفراد وجماعات حـاكوا المـاضي بنسيج مشـاعرهم وتفكـيرهم وعملهم. . . من هنا إمكانيّة اتّصال مختلف الجماعات البشريّة بعضها ببعض زمنيّاً ومكانيّاً من حيث كون جوهر هذا الماضي يكمن في الإنسان، فرداً ومجموعاً.

وهذا ما يُفسّر قولنا السابق إن التاريخ يضع الإنسان في حيّزه الاجتماعي (الزمني والمكاني) نظراً لصورة الحياة التي يقدّمها مع كـل ما يعـتريها من غنى وتشابك وتعقّد إن من حيث الناحية الفرديّة أم من حيث الناحية الاجتماعية أم من حيث تداخل الاثنين وتفاعلهما التاريخي بعضهما مع بعض.

هذا ما يُفسِّر، أيضاً، تناولنا للمقياس المزدوج: المقياس الزمني النسبي والمقياس المتراكم خلال العصور وعبرها، فيما يختص بحكمنا على أهميّة الإنتاج البشري (تاريخيّاً كـان أم خاصّـاً بأي مجـال من مجالات العلم والأدب والفن المتعدّدة) الذي يمكّننا، بدوره، من الحكم على هذا الإنتاج بالنسبة إلى مرحلته الزمنية من جهة وبالنسبة إلى إسهامه في إغناء التراث البشري الإيجابي المتراكم كما تجلّى في التاريخ، فنستطيع، بالتالي، تصنيفه إمّا ضمن المآثر الخالدة التي تتعدى قيمتها الزمان والمكان اللذين نشأت فيهما، وإمّا ضمن الأعـمال المؤقّتة العابرة التي تزول قيمتها بانقضاء الزمن الذي حدثت فيه. . .

خلاصة جزئية

يتبيّن، ممّا سبق ذكره، أهميّة وعي الإنسان واختياره وطبيعة قراراته في صنع التاريخ؛ فقد قلنا إن الإنسان يتعرّض خلال حياته لمشاكل يحاول حلّها... وقد عنينا، ضمناً، حرّيته في التصرّف ووعيه لحرّيته هذه وإدراكه للحدود التي ترتسم في طريقه؛ فالإنسان الحيّ الفاعل هو ذلك الذي يدرك ويعي الإمكانيّات المتوفّرة له والحدود التي يفرضها عليه المحيط حيث يترعرع فيُحسِن، بالتالي، اختيار القرارات التي يُقدِم عليها بمعنى أنّه يدرك ويعي بأن حياته مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنوع اختياره وطبيعة قراراته وبأنّها تتأثّر بما يعتزم القيام به وبما يحقّقه. كما أنّها تتوقّف، إلى حد بعيد، على مؤهّلاته الشخصيّة من عزم واعٍ وقدرة على التمييز بين الإمكانات المتوفّرة له والقيود التي تفرضها عليه بيئته الطبيعيّة والاجتماعيّة من أحوال (نفسية واجتماعية واقتصاديّة وثقافيّة...) حتى لا تتعدّى طموحاته إمكانات التنفيذ عنده فيصبح، آنذاك، أسير الرؤى والأحلام...

يمكن القول، بحق، إن رقيّ الإنسان يُقاس بنوع المشاكل التي يتحسّسها والتي تثير اهتمامه وبنوع إقباله على حلّها وقدرته على تجاوزها.

سبق أن تحدّثنا عن القيود والحدود الناجمة عن عوامل المحيط ودوافع المؤسّسات الاجتماعية التي تعترض طريق الإنسان أثناء قيامه بتنفيذ ما عزم عليه أمره؛ لكنّنا تحدّثنا، في الوقت نفسه، عن حريّة المرء وقدرته على الاختيار وأثره الخاص في ما يُقدِم عليه من فكر وعمل ولولا ذلك لبقيت البشريّة على ما كانت عليه ولم يكن لدينا ذلك التراث الإيجابي الذي نفاخر به وتلك الفتوحات الباهرة التي حققها الانسان في شتى الميادين والتي لم تتقيد بحدود الكرة الأرضية، رغم اتساعها بل تجاوزتها لاقتحام عالم الفضاء وكواكبه المتعدّدة....

والحريّة هي، بنظر ن. بردیائف(١) حق من حقوق الإنسان، لكنها التزام

---

(١) نيكولاس بردیائف، العزلة والمجتمع Solitude and Society (نصوص فلسفية)، ترجمة فؤاد كامل، المنشورات الجامعية، لبنان ١٩٨٥.

ولا يستطيع الإنسان أن يحقّق رسالته إلاّ في ظل الحريّة؛ والحريّة تتضمّن قبول التبعة وواجب الإنسان يُلزِمه قبول التبعة والمسؤولية، ولكل إنسان استعداداته الخاصّة ومواهبه التي يتفرّد بها كما أن لكل إنسان نصيب من القدرة على إصدار الأحكام المستقلّة. لكن إنماء شخصيّته وممارسة قدرته على الإبداع والخلق والاستمتاع بالاستقلال يتوقّف، إلى حد بعيد، على حرّيته والإنسان الذي يرفض هبة الحرّية ينكر طبيعته الحقّة وينزل عن حقوقه الروحية.

ثم إنّ الحرية مطلب كل الناس لكنها، في الوقت نفسه، مصدر رهبة نظراً للمسؤولية التي تلزمهم بقبولها؛ لذا يستلزم تحقيق الحريّة الحقّة بطولة وجهاداً ومعركة وقبولاً لمأساة الحياة وصبراً على آلامها إذ ليس في استطاعة الإنسان تحقيق وجوده الكامل وتنمية قواه الخالقة ـ المبدعة (الحريّة معناها الخلق والإبداع) وهو مُستعبَد لإشباع شهواته ومنهمك في إرضاء حبّه للراحة والنجاح والنفوذ والمتع. الحريّة وحدها هي التي تمكّنه من توجيه جهوده إلى قنواتٍ تعود بالخير عليه وعلى الإنسانية.

لكن في طبيعة الإنسان ازدواجاً أي أنّها حقلٌ لصراع وتجاذب نوعين من القوى والميول: ميول تقوده نحو الخير وميول أخرى تدفعه نحو الشر، ولا يتم تحقيقه الكامل لروحه الإنسانية بدون معركة. ثم إن نيل حرّية الروح هو الغرض التاريخي للإنسان والمشكلة الأولى تكمن في مقاومة القوى المتأتيّة من داخل الإنسان ومن المؤثّرات الخارجية التي تحاول استعباده:

هناك، من ناحية، استعباد الإنسان لنفسه حيث ينزل في كثير من الأحيان عن حرّيته بمحض اختياره... نتيجة استعباد شهواته له وحبّه للسيطرة وطلبه للمجد والسّيادة و... (يشكّل كل ذلك مصدراً عظيماً من مصادر الاستعباد). ولا يستطيع الإنسان التخلّص من ألوان الاستعباد هذه إلاّ ببذل جهود جبّارة، كما أنّ الشخصيّة لا تستطيع أن تتجمّع وتتماسك وتقاوم عوامل الانحلال والتفكّك إلاّ إذا كانت مالكةً لحرّيتها ومتسامية على الأهواء التي تعصف بها والميول التي تتنازعها مستلهمةً ومستمدّة القوّة على الثبات والكفاح من قدرتها على الخلق والإبداع ومن حبها للإنسان (الإنسان بشكلٍ عام).

هنـاك، من ناحيـة أخرى، استعباد المجتمع لـلإنسـان: لقـد كـانت الشخصيّـة في الجماعـات البدائيـة تذوب في المجتمـع. لكن، خلال التقـدّم التاريخي للبشريّة والاكتشافات الهائلة التي توصّل إليهـا عقلها الخـلاّق المبدع أدرك الإنسان، شيئاً فشيئاً، تنوّع الأفراد وتفاوت شخصيّاتهم الإنسانيّة وفرادتها وخصوصيّتها حتى من جهة تركيبها البيو ـ فيزيولوجي والوراثي. . . فأدرك معها بأن قيمته كإنسان تكمن أساساً في اعتباره فرداً يتميّز بروح مُحِبَّة خلاّقة لها الحق في الحرّية وفي التعبير المستقل عن ذاتهـا. ولقد تعـزّز هذا الإدراك والشعـور بشكلٍ سريع خلال هذا القرن، لذا، على المجتمع الذي تتبلور هذه الشخصيّة الفرديّة في إطاره أن يتميّز بالطواعية والمرونة كي يسمح للأفراد الذين يكوّنونه بحـرّيـة الحـركـة داخله حتى يتمكّنـوا من ممـارسـة وتـطبيق مختلف قـدراتهم وإمكانيّاتهم ضمن إطاره وحتّى لا يضطرّوا للثورة عليه وعلى مؤسّساته لتحقيق ذلك. . .

لكن، وللأسف، نجد المجتمع في الكثير من الأحيان، يُكبّل الإنسان ويعوق قدرته الفرديّة على التعبير عن حاجـاته التلقـائيّة بفـرضه مجمـوعة من العادات والتقاليد والقوانين والمفروضات التي يتقبلها الفرد ويخضع لها لأسباب متعدّدة منها: ـ حاجته لأن يكون مقبولاً من قِبَل بيئته الاجتماعية لأن العكس يعني بالنسبة له: العزل والموت المعنوي؛ لكن البيئة تفرض عليه، مقابل ذلك، التقيّد بقوانينها ومفروضاتها والخضوع لها. ـ ضعفٌ في شخصيّته يدفعه لتهيّب المواقف والخوف من تحمّل المسؤوليّات الناجمة عن عزمه لتحقيق حرّيته كفرد.

لا يُفهمنّ من كـلامنا هـذا أن القوانـين والمفروضـات الاجتماعيّـة هي بمجموعها قيمٌ سلبية، بل العكس هو الصحيح إذ هناك الإيجابي منها والمسؤول عن تأمين العناصر الضروريّة لربط مختلف الأفراد وتوفير المناخ الملائم لتعاونهم وتعاضدهم؛ لكن هناك، إلى جانب ذلك، السلبي منها نظراً لتجاوز الزمن لها والتي يجدر بالمجتمع والفرد استبدالها بأخرى تكون أكثر تلاؤماً مع المتطلّبـات المستحدثة.

هذا النوع الأخير من القيم الاجتماعيّة هو المسؤول، لدى خضوع الفرد

الأعمى له، عن اضطراب التوازن الداخلي المُحقّق ما بين مختلف القوى النفسيّة المكوِّنة لشخصيّته:

تتميّز شخصيّة الكائن البشري بـ «أنا» Moi تخضع إجمالاً لضغوطات وقوى متناقضة تتجاذبها: ضغوطات داخليّة تفرضها النزوات الليبيديّة والتمنّيات والرغبات الممثّلة للـ «هو» Le ça (القطب النزوي في الشخصيّة) وضغوطات خارجيّة تفرضها القوانين والقواعد الاجتماعيّة الممثّله للـ «أنا الأعلى» le Sur-moi.

الهو ⇄ الأنا ⇄ الأنا الأعلى

يكمن دور الأنا الممثّلة لشخصيّة الفرد في إقامة توازن شبه دائم بين الهو من جهة والأنا الأعلى من جهة أخرى بحيث لا تسيطر عليها النزعات الداخلية والأهواء الذاتية إنّما، في الوقت نفسه، لا تكون صدى أو مرآة للبيئة الخارجية إذ على الإنسان معرفة متى وكيف ولأي درجة يمكنه إشباع نزواته وحاجاته (أي إشباع النزوات الناجمة عن الهو) أو، على العكس، التقيّد بالضغوطات الخارجيّة أي بمفروضات الأنا الأعلى لكن دون الإساءة لاستقلاليتها الخاصّة بها. تحقيق هذا التوازن يتطلّب نضج الأنا (نضج الفرد) ووعيها مسؤوليّة ما تقوم به.

وهكذا إذا ضعُف الشخص سهُل على المجتمع استعباده وتوجيهه وتحطيم استقلاليّته الخاصّة.

هناك، أيضاً، استعباد الحضارة للإنسان ونراه، بشكلٍ خاص، في مدنيّتنا الحديثة حيث أصبح الفرد عبداً للآلات المتعدّدة التي اخترعها بفضل جهوده وإعمال عقله وفكره. وهذه السرعة الجنونية التي بلغتها حياة الإنسان الحديث جعلته يجد صعوبةً كبرى في تحديد حاجاته المتّسمة بالطبيعية والملّحة هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فإنّه يجد صعوبة كبرى في الاستجابة لها نظراً لتعقيد وجوده وتعدّد الأشياء وتنوّعها وتنوّع الحاجات الطبيعيّة تبعاً لها.

لا نقصد، بذلك، القول إن المدنيّة والحضارة هما شيء سلبيّ، بل نقصد ما سبق أن قلناه من أن إبداع العقل الإنساني ذو وجهين: إيجابي إذا أُحسِن

استعماله وسلبي إذا أُسيء استغلاله ففي الحالة الثانية تصبح المنتجات الآليّة هي المسيطرة على الإنسان بدلاً من أن يكون هو الموجِّه لها والُمسيطِر عليها.

لقد بلغنا نهاية هذا الفصل الذي تحدّثنا فيه عن أثر الفرد وشخصيّته في صنع التاريخ حيث تقصّينا مختلف المظاهر التي تُبرِز هذا الأثر. . . ؛ إنّنا لنجد أنفسنا أمام حقيقة راهنة تفرض نفسها ألا وهي: الإنسان (فرداً أو مجموعاً) هو صانع التاريخ الذي لا يوجد بدونه.

أمّا قدرته على صنع هذا التاريخ فتتوقّف على مقوّمات متعدّدة منها ما يدخل في إطار العناصر المكوِّنة لشخصيته الفرديّة من قابليّات وقدرات تمكّنه من سلوك سبيل التقدّم والتطوّر في مراحله المتتابعة بفضل قوى العقل والروح التي تتميّز بها والتي تضم بدورها مجمل مكوّنات الشخصيّة من: نفسيّة وعاطفيّة وبيو - فيزيولوجيّة وعقليّة واجتماعيّة - ثقافية وخُلُقيّة و. . .

ومنها (أي المقوّمات) ما يدخل في إطار المميِّزات التي على المؤرّخ - الفرد التحلّي بها لدى كتابته للتاريخ والتي تتداخل، بدورها، مع قابليّات الإنسان واختياره الواعي وطبيعة قراراته. . . .

لكنّ الصورة التي قدّمناها حول أثر التاريخ في سيكولوجيّة الفرد لا تكتمل، بالرغم من العلميّة الموضوعيّة التي ميّزت مناقشتنا لها، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار البعد التاريخي الذي يضفي على الشخصيّة الفرديّة فرادتها وأصالتها والذي يؤدّي إلى بلورة التأثيرات والتأثّرات المتبادلة القائمة بين التاريخ والسيكولوجيا الفرديّة.

الفصل الثالث

البعد التاريخي وأثره في نمو شخصيّة الفرد وتطوّرها

تناولنا في الفصلين السابقين أثر التاريخ في الفرد وأثر الفرد في التاريخ بمختلف مظاهرهما المتشابكة والمتداخلة لدرجة يصح معها القول إن بعضها يمكن أن يُعبِّر عن الأثرين معاً (مثلاً: استعمال التاريخ من قِبَل المؤرّخ لأغراض متعدّدة يجعل فهم التاريخ نفسه متنوّعاً بتنوّع الأفراد. . . ؛ أثر التاريخ في صنع العظماء وأثر هؤلاء العظماء في صنع التاريخ ؛ . . .). وبالرغم من أهميّة ما قيل تبقى مناقشة موضوع «أثر وتأثر التاريخ بسيكولوجيّة الفرد» غير مكتملة نظراً لنقص عاملٍ هام يجمع بين الإطارين ويكشف عن تكاملهما.

لذا سنتناول، في هذا الفصل (الفصل الثالث)، دراسة البعد التاريخي بمعانيه المتكاملة: وعي الزمن، البشريّة ببعدها الإنساني الشامل، الصيرورة، حتّى تتكامل الصورة المكوَّنة عن أثر التاريخ في نمو شخصيّة الفرد وتطوّرها.

١ ـ وعي الزمن وارتباطه بالبعد
الإنساني الشامل للبشرية:

بادىء ذي بدء نقول إن نمو كل فرد له تاريخ لا بل إنّه بحد ذاته تاريخ: تاريخه الخاص الذي لا يُفهم إلاّ بالعودة إلى صفاته الفرديّة الخاصّة بـه وإلى الثقافة والتاريخ اللذين يتحدّر منهما ولكلٍّ من هذين تعقيداته وتناقضاته الخاصّة به.

يُشكّل ما سبق أن ناقشناه، الإطار العام الذي سننطلق منه لدراسة هذا البعد (البعد التاريخي). لقد تحدّثنا، سابقاً، عن وجود عوامل متعدّدة تساهم في

تكوين فرادة الشخصيّة وشموليّتها في آنٍ معاً: فهي تساهم في تكوين ثبات الطبع عند الفرد نظراً لتركيبه البيو ـ فيزيولوجي الثابت نسبيّاً بالرغم من إمكانيّات التغيير والتحوّل التي تعتري تركيب الإنسان الكروموزومي أثناء تكوينه داخل الرحم وفيما بعد أثناء نموّه، ولشمول نظرته إلى الطبيعة والكون التي تبقى، بالرغم من تنوّعها، إنسانيّة المحتوى والمظهر وبالتالي متشابهة عند مختلف الأفراد، وللنزعات الإنسانية التي تتنازعه والتي يشترك بها مع غيره من الناس... ممّا يساعده على المساهمة، كفرد له مميّزاته الخاصّة به، في تكوين التراث البشري المتراكم الذي ينتقل من السَّلف إلى الخَلَف.

كما أنها (أي العوامل) تساهم في تكوين الصفات الخاصّة بالفرد وذلك بفضل الخصائص الإنسانية التي يتميّز بها عن سائر الكائنات الحيّة ونقصد بها: عجزه التام عند الولادة وحاجته، بالتالي، إلى رعاية المحيط الذي يترعرع ضمنه، طواعية شخصيّته ومرونتها ممّا يساعده على التأقلم مع محيطه وعلى التعلّم والاكتساب والإفادة من الاختبارات التي يمر بها ومن تلك التي يمر بها غيره من الأفراد...

ولقد أولينا، في هذا المجال، أهميةً خاصّة لأثر وعيه واختياره وطبيعة قراراته في تطوّر شخصيّته وفي صنع تاريخه الخاص وتاريخ البشريّة الشامل، ممّا يعني، ضمناً، حريّته في التصرّف ووعيه لحريّته هذه وإدراكه للحدود التي ترتسم في طريق سعيه لإثبات ذاته وتنفيذ ما ينوي القيام به...

كما أننا شدَّدنا على أهميّة التكامل والتفاعل الجدلي الدينامي الذي يتمّ، ويجب أن يتمّ، ما بين مختلف العناصر المكوِّنة لشخصيّته إن من ناحية فرادتها أو، من ناحية شموليّتها. ولقد ركّزنا، بشكلٍ خاص، على ضرورة توافر إمكانات التفاعل عند الفرد الذي يتمتّع بالمرونة والطواعية اللازمتين لمساعدته على تحقيق تأقلمه مع الظروف والمتطلّبات الجغرافيّة والاجتماعية ـ الثقافيّة، وعند المجتمع الذي يؤمّن، إجمالاً، عناصر موحّدة نسبيّاً ضمن إطاره مثل: الظروف

البيئيّة الطبيعيّة والاجتماعيّة (من لغة وتقاليد وعادات و. . .) والذي يُفترَض منه تأمين الطواعية والمرونة اللازمتين لمساعدته على التأقلم مع المميّزات والقدرات الفرديّة المتنوّعة. . . .

ثم إنّنا شدّدنا، بالإضافة إلى ذلك، على مسألة ارتباط الصفات الوراثية عند الكائن البشري بظروف المحيط الذي يترعرع ضمنه: الظروف البيئية الجغرافية والظروف الاجتماعيّة ـ الثقافية وذلك بفضل الجهاز العصبي الذي يتمتّع به من جهة وبقدرات وإمكانيّات الفرد الخاصّة والتي لها دورها البارز في بلورة شخصيّته من جهة أخرى.

معرفة هذه الأمور وغيرها ممّا ناقشناه في الفصلين السابقين تساعدنا على فهم استمراريّة النمو عند الفرد وعلى فهم تاريخه الخاص بفضل ما قدّمته لنا من إيضاحات حول الإطار الثقافي العام الذي يساعده على التعلّم والاكتساب وحول كيفيّة انتظام وديناميّة القوى المحرِّكة لهذا النمو في الحاضر بالنسبة للماضي. . .؛ ممّا يمكّنه من بناء تاريخه الفردي الذي يسمح للمحلِّل بتوقّع مستقبله بشكلٍ تقريبي نظراً لارتباط ماضي الإنسان بحاضره ومستقبله في كل زمان ومكان.

قلنا «توقّع المستقبل بشكلٍ تقريبيّ» نظراً لما يعتور هذه المعرفة من إهمال لعدد من العوامل التي يجب أخذها بعين الاعتبار كي تصبح معرفة النمو وتطوّره أكثر دقّةً ووضوحاً هذا من جهة، ولتدخّل عوامل متعدّدة في هذا النمو يصعب بلورتها حتّى وإن كان من الممكن التكهّن بفعاليّتها وتأثيرها. من جهة أخرى:

ينبغي، بادىء ذي بدء، التذكير بواقع لا يزال له صداه الحيّ في الكثير من الدراسات النفسيّة التحليليّة بالرغم من تجاوز علماء النفس التكويني له. يكمن هذا الواقع في اهتمام علماء النفس التقليديّين بدراسة الطفولة من خلال الرشد وعبره وبالاعتماد على المنهجيّة المطبّقة في علم نفس الراشد إذ يُعتبَر

الطفل، بالنسبة إليهم، رجلاً صغيراً ينبغي تعليمه وتثقيفه، وهو (أي الطفل) لا يختلف عن الراشد إلاّ كمّياً (أي بكميّة الخبرات الشخصيّة التي عاشها) وليس نوعيّاً (يعني اختلاف عالم الطفولة عن عالم الرشد).

فبالرغم من اهتمام أرباب علم النفس التكويني (أمثال: فرويد وبياجيه وجيزيل وڤالون وغيرهم. . . .) بدراسة الطفولة كعالم خاص قصدوا الكشف عنه من خلال دراسة المفهوم الوظائفي للنمو الذي يمر بمراحل متعدّدة متتابعة والذي يتم بتأثير عوامل متنوّعة (بيو ـ فيزيولوجية نفسيّة وعاطفية، اجتماعية وثقافية، أخلاقية، . . .)، معتمدين بذلك على طرق ومنهجيّة جديدة خاصة بالطفل (كالطريقة الطولية méthode longitudinale والطريقة العرضية méthode transversale وغيرها من الطرق. . .).

وبالرغم من تشديدهم على أهميّة وجوب عدم الخلط بين تفكير وإحساس الطفل بتفكير وإحساس الراشد نظراً لتميّز الطفل بطرق تفكيرٍ وإحساسٍ خاصّة به ولكونه يعيش حياةً كاملة في كل عمر بمعنى أن كل مرحلة من مراحل الطفولة مهمّة جدّاً لأنّه (أي الطفل) يعيشها بكل إحساساته واهتماماته. . . ؛ وإذا لم يعش كل مرحلة من هذه المراحل بشكلٍ طبيعي وكامل فإن احتمال ظهور اضطرابات مستقبليّة عنده، يعود إلى عدم إشباع هذه المرحلة أو تلك من نموّه، ليبدو مرتفعاً جدّاً. مثالاً على ذلك نذكر عودة الكثير من الأشخاص الراشدين ونكوصهم إلى مراحل معيّنة لم يشبعوها في طفولتهم؛ من هنا، تصرّفهم بشكلٍ لا يتناسب مع سنّهم أو وضعهم أو مكانتهم الاجتماعيّة. . .

فبالرغم من كل ذلك، نجد أن محلّل النمو البشري يتأرجح، غالباً، بين قطبين متناقضين: بين الذاتية والموضوعيّة، بين التأثيرات المنظورة والتأثيرات غير المنظورة، بين التأكيد والتقريب. . . ؛ وهو يخلط، أحياناً، بين ما يحرِّك عواطف الطفل البشري وبين خبرته الشخصيّة وما تمثّله من انفعالات تعتري نفسه وتأثّرات تُحدِث في شخصيّته أثرها الفعّال. . . لذا، فإنّه (أي المحلّل) يكتفي

غالباً بتسجيل مرور هذا الطفل من حالة السلبيّة والتأثّر إلى حالة الإيجابيّة والتأثير. . . لكن دون إعطاء سياق الأحداث وتسلسلها وتلاحقها الأهميّة اللازمة الكفيلة بإيضاح كيفيّة مرور الطفل من المرحلة الأولى (السلبيّة) إلى المرحلة الثانية (الإيجابيّة).

وهو (أي المحلّل) يخطىء حين لا يأخذ بعين .الاعتبار الكيفيّة والنوعيّة التي يتم معها التعاطي مع الطفل من قِبَل المحيط وحين يهتم فقط بما يُقدَّم له. فنحن نعرف اليوم أن المهم لا يكمن، فقط، في تقديم الرعاية للطفل بل، خاصّةً، في الطريقة التي يتمّ معها تقديم هذه الرعاية: لنأخذ مثلاً على ذلك تغذية الطفل: لقد تبيّن اليوم، على ضوء العديد من الدراسات والأبحاث النفسيّة، أن تغذية الطفل بالرضّاعه le biberon تصبح أكثر فعاليّة وإيجابيّة في نفس الطفل ونموّه من تغذيته من الثدي إذا ما رافق العمليّة الأولى (التغذية بالرضّاعه) دون الثانية (التغذية من الثدي) تفاعلٌ وتبادل إيجابيان بين الطفل والأم (أو بديلتها) كاحتضان الطفل بحنان ومناغاته ومداعبته. . . . يمكن القول، بمعنى آخر، إن الطريقة التي ترافق عمليّة التغذية لها أهميّة، تساوي بل تفوق أحياناً أهمية نوع الغذاء المُقدَّم للطفل.

لا يُفهمنَّ من قولنا هذا تشجيع الأمّهات على تغذية أطفالهنّ بالحليب المجفَّف بدلاً من تغذيتهم من الثدي بل جُلّ ما نقصده يكمن في لفت انتباههن إلى أهميّة الطريقة التي يجب أن يتّبعنها لدى تقديمهن الغذاء للطفل لأن إرفاق عمليّة التغذية من الثدي بالرعاية والاهتمام اللذين أشرنا إليهما لتتجاوز بكثير، من حيث الإيجابيّة والفعاليّة، عمليّة التغذية بالرضّاعة إن توفّرت الشروط نفسها.

وما ينطبق على عمليّة التغذية ينطبق، بشكل عام، على مجمل التبادلات التي تحدث وتتم بين الفرد ومحيطه أثناء تطوّره (أثناء طفولته المبكرة بشكلٍ خاص).

باختصار نقول، يعيش الطفل في حالة استثارة دائمة: فهو يتلقّى الرسائل المتعدّدة والمتنوّعة الموجَّهة إليه من قِبَل الآخرين، من قِبل الأم، بشكلٍ عام، وخصوصاً خلال فترة الرضاعة، ويستجيب لها. يعطي المتخصّصون في علم النفس التكويني أهميّة بالغة لهذا الأمر؛ فالعلاقات الموضوعيّة relations objectales التي تكوِّن المصدر الأساسي لأي علاقة يقيمها الطفل البشري، فيما بعد، مع أفراد محيطه، تشكّل بنظرهم انطلاقاً من هذه العلاقة الدائرية المتبادلة ما بين الطفل ووالدته أثناء الرضاعة (تبتسم الأم للطفل فيستجيب لها الطفل بابتسامة؛ تفرح الأم وتعيد الابتسام والمناغاة فيستجيب الطفل مجدَّداً وهكذا دواليك. . .).

يُفهم، من ذلك، السبب الذي حدا ببعض العلماء أمثال ميلاني كلاين وغيرها بربط نوع وجوهر تأثير الأم في نمو الطفل بنوع الرضاعة: ثديٌ مُشبع بكل ما لكلمة إشباع من معنى (تغذية جيّدة، رعاية وتبادل إيجابيّين. . .) يعني أماً جيدة، ممّا يعني بدوره توفير إمكانيّات متعدّدة لنمو وتطوّر إيجابيّين عند الطفل نظراً لتوافر العوامل المثيرة لنمو إيجابي لاحق؛ وبالعكس من ذلك، يعني الثدي غير المشبع بأن الأم غير صالحة ومثيرة للقلق والحرمان في نفس الطفل وفي نموّه وتطوّره المستقبليّين.

ويرى معظم علماء النفس وعلى رأسهم فرويد أن هذا القلق المُحدَث خلال هذه الفترة من نمو الكائن البشري يُشكّل خزّاناً لكل حالات القلق التي يعيشها فيما بعد، في حياته المتعدّدة المراحل والحقب. . . .

معرفة هذه الخصائص المميِّزة لطفولة الإنسان حد بنا لدعوة الأهل، أثناء المحاضرات التي كنّا نقوم بها، للتعرّف على نوعيّة تقبّل أطفالهم لما يقدّمونه لهم من تضحيات ورعاية واهتمام وحثّهم على التقرّب منهم (من الأطفال) كيما يتمكّنوا من معرفة الأسباب التي تدفع بهؤلاء (الأطفال) لرفض ما يقدّمونه لهم.

من شأن هذه المعرفة إزالة العديد من التوتّرات التي تعتري العلاقة

القائمة بين جيلي الأهل والأبناء في العالم أجمع وبتقريب مختلف وجهات النظر التي تفصل وتباعد بينهما.

يُضاف إلى كل ما سبق ذكره حول مهمّة المحلِّل النفسي صعوبة تجـرّد الإنسان، وإن كان محلِّلاً نفسيّاً (إذ هو قبل كل شيء إنسان) عن ذاتيّته لدى تناوله للمواضيع التي ينوي دراستها بشكلٍ علمي وموضوعي. فممّا لا شك فيه أن لكل إنسان تفضيلاته الخاصّة النابعة من الجذور العميقة المتأصّلة في لاوعيه أي البعيدة عن متناول إدراكه الواعي وهي التي توجّه تأمّلاته وتوحي له بها بشكلٍ عام (فرويد): كما أن تأويل أي موضوع ينطوي، عامّةً، على تأمّلات ذاتية تبقى عرضةً للشك العلمي نظراً لما تتضمّنه من إيحاء ذاتي لاواعٍ (هايمن Heimann).

أضف إلى ذلك صعوبة فهم الشخصيّة الإنسانية إذا ما أُهمِل عامل الزمن le facteur-temps الذي يكوّن بعداً من الأبعاد المحدِّدة في تكوينهـا ألا وهو **البعـد التاريخي** la dimension historique: فـالإبقـاء عـلى وحـدة الشخصيّـة والمحافظة عليها، بالرغم من مرور الزمن وتغيّر الوضعيّات الحياتيّة التي يعيشها الإنسان ويختبرها يشكّلان في الحقيقة، المهمّة الرئيسيّة التي يجب أن تُقاس على ضوئها قدرة التنظيم العضوي l'organisation de l'organisme عند الكـائن البشري على مجابهة وتحدّي مختلف الوضعيّات التي يمر بها في سياق حياته (سبق أن تحدّثنا عن هذا الموضوع وبالتفصيل ولا لزوم لإعادة ما قلناه).

فما ينبغي التشديد عليه الآن يكمن في القول التالي: ينشأ عن النجاح في ملء هذه المهمّة الأساسيّة تطوّر فريد من نوعه يشكّـل، بحد ذاتـه، تاريـخ الإنسان أي التاريخ الفردي الخاص بكل شخص والـذي سبق أن قلنا بـأنه يكوّن حلقة من حلقات تاريخ البشريّة الشامل.

لكن اعتبار الشخصيّة كتاريخ يفترض التفتيش، ليس فقط عن قوانين عامّة (وهذا ما فعلناه حتّى الآن) بل، خاصّةً، عن قوانين خـاصّة تمكّن من

معرفة وتفسير السياقات[1] المتنوّعة التي يتم معها التطوّر الداخلي الذي يتأمّن ضمن هذه القوانين العامّة.

لتجسيد ما نقوله بالنسبة لمسألة قوانين التطوّر التاريخي الفريد والخاص بكل شخصيّة نعطي مثالاً حسّياً على ذلك؛ لنأخذ مثل الحرمان الغذائي عند الطفل، فالقول إن حرمان الطفل من الغذاء يحدّد سلوكه المستقبلي يعني شيئين:

- أولاً: إن لهذا الحرمان أثراً محتّماً على سلوك الفرد في المستقبل (مثلاً الراشد المحروم أثناء الطفولة يجب أن يتصرّف بشكل محدّد مسبقاً).

- ثانياً: إن فعاليّة هذا التأثير تتعلّق بعوامل متعدّدة مثل: وضعيّات خاصّة يمر بها الطفل (موت أحد الوالدين أو فقد أحد الأشخاص الأعزّاء، مرض يؤدّي إلى جعل الطفل معاقاً، تعرّض لحادث معيّن يترك أثره الخاص فيه، . . .)، تكوين ردّات فعل دفاعيّة متأخّرة (مثلاً تكوين ردّة فعل دفاعيّة خاصّة تجاه معاناة معيّنة مرّ بها الشخص في سن المراهقة أو في سن الرشد. . .)، تنظيم بُنى جديدة بالإضافة إلى تلك التي كانت تميّز شخصيّته سابقاً (مثلاً اتخاذ موقف حيطة وحذر متطرّفين نتيجةً لمروره بأزمات ثقة مُني بها من قِبَل أشخاص وثق بهم واطمأن إليهم كالأصدقاء والأهل). من شأن كل هذه الوضعيّات التأثير ببنية شخصيّة الإنسان وتكوينها فتطبعها بطابعها الخاص.

كل ذلك يجعل «توقّع المستقبل» تقريبيّاً كما سبق أن قلنا نظراً لكوننا لا نستطيع الجزم بمثل هذه الأمور الدقيقة والحسّاسة التي يتعلّق تطوّرها بعوامل نعرفها ونستطيع، بالتالي توقّع تأثيرها مسبقاً وبعوامل أخرى لا نستطيع التنبّؤ بحدوثها وحدوث تأثيرها بشكلٍ مسبق إذ أن كل فرد يعيش حياةً خاصّة ويمر بظروف استثنائيّة. . . . إذا ما عدنا إلى مثل الحرمان فإننا لا نستطيع سوى القول في مثل هذا الوضع: من الممكن أن يثير حرمان الفرد أثناء طفولته سلوكاً معيّناً عنده إذا ما عانى في المستقبل من وضعيّات شبيهة بالوضع السابق من

(١) نقصد بكلمة «سياق» التعبير عن سير العمليّات (ذهنيّةً كانت أم نفسية أم بيولوجية أم فيزيولوجية أم عاطفيّة أم اجتماعيّة - ثقافية، . . .) وسياقها وتطوّرها التدريجي المتتابع والمتكامل.

شأنها أن تثير في داخله المعاناة الماضية التي مرّ بها. ثم إن هـذه الوضعيّات الحرمانيّة لا تثير عنده ردّات فعل مَرَضيّة واضطرابيّة كالقلق والصّراع . . . ، إلا إذا كان قد تكوّن عند الفرد ميولٌ عدوانيّة وانطوائيّة يعود سبب تكوينها لأسباب أخرى غير الحرمان الغذائي . . . .

بمعنى آخـر، . لفهم تأثـير ماضي الإنسـان في حاضره وتـأثـير خـبراتـه الشخصيّة في سلوكه الحاضر لا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار تفاعـل وتداخـل وتكامل مجموعة العوامل (منها ما هو غير قابل للتحليل لتدخّله الفجائي في حياة الشخص) المسؤولة عن تكوين الشخصيّة ومجموعة الشروط التي يجب أن يتم هذا التفاعل ضمنها.

فمثلاً، لا يُفسّر القانون التالي: مثير ـ استجابة Stimulus-Réponse غنى الشخصيّة وتعقيدها إلاّ بالتضافر مع مجموعة من القوانين الأخرى منها: قانون الإعـادة (إعادة وتكـرار ما سبق أن تعلّمـه الإنسان)، قـانون تعـدّد المثيرات والاستجابات من جهة وتحوّل المثيرات إلى استجابات من جهة أخرى. إذا ما أخذنا نفس المثل السابق: عمليّة التغذية والتبادل الحاصل بين الرضيع والأم يمكن القول إن ابتسامة الأم لطفلها تشكّل مثيراً يستجيب له بابتسامة تشكّل، بدورها مثيـراً لاستجابـة أخرى عنـد الأم. . . وهكذا دواليـك؛ تفسير هـذه الابتسامة وأثرها الإيجابي في نمو الطفل يتـطلّب مجموعـة من المعلومات حـول خصائص ومميّزات النمو عند الطفل.

باختصار، يمكن القول إننا لا نستطيع تأويل الـترابط القائم بـين المثير والاستجابة بالسببيّة البسيطة (مثير ـ استجابة): إذا ما كانت الاستجابة للمثير الأوّلي تخضع لقانون السببيّة البسيـطة، فإنّها (أي الاستجـابة) تصبـح، بحد ذاتها، مثيراً تتعزّز درجة إثارته أو تنخفض (لدى حدوثه) بتدخّل عوامل أخرى متعدّدة لها أثرها الفعّال في تكوين الطفل ونموّه.

يُضاف إلى ما سبق ذكره ما يطرحه التأويل التحليلي في علم النفس من تفسيرات متعدّدة تفترض تداخل عوامل متنوّعة لها كلّها فعاليّتها وأثرها اللذان

ينبغي أخذهما بعين الاعتبار لدى تفسير الترابط الموجود بين استجابتين معيّنتين. لتفسير تداخل مختلف العوامل والمعطيات والشروط... تنشأ ما يُسمّى بالمدارس التحليليّة مثل: مدرسة التحليل النفسي psychanalyse، التحليل العيادي النفساني psychologie clinique، وغيرهما....

يصعب، في الواقع اعتبار البيئة والمناخ الاجتماعيين اللذين يعيش الكائن البشري ضمنهما كمعطيات موضوعيّة يمكن تحديدها علميّاً من قِبَل أي مراقب خارجي، مهما كانت كفاءته العلميّة وموضوعيّته. من هنا كان من أهم شروط البحث العلمي في العلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا الاستقصاء والعمل الميداني (أي ذهاب الباحث إلى ميدان البحث) اللذان يستوجبان إقامة الباحث في المحيط (المجتمع) الذي يُجري عليه بحثه والعيش فيه مدّة، تطول أو تقصر حسب مقتضيات البحث، كيما يتمكّن من فهم هذا المجتمع (فهم معتقداته، عاداته، تقاليده...) لأن القوى الموجودة ضمن مجتمع معيّن والمميِّزة له لا توجد فعليّاً إلاّ بفضل العلاقة الدينامية القائمة بين مختلف مكوِّناته (من إنسان وبيئة طبيعيّة وبيئة اجتماعيّة وحيوان... فكل ما يوجد في المجتمع يُعتبَر ظاهرات فاعلة فيه). لذا على المحلّل أخذها بعين الاعتبار لدى تفسيره للشخصيّة (فرديّةً كانت أم جماعيّة).

سبق أن قلنا إن الوضعيّة الحاضرة هي نتاجٌ للماضي، فكل الوضعيّات تقريباً، تُقارَن بوضعيّات سابقة إنّما لا ينفي ذلك قدرة الفرد، الذي يعيش ضمن الوضعيّة الحاضرة، على إضافة أنماطٍ جديدة وخلق تصرّفات أخرى تساهم في بناء مصيره الشخصي.

يُستنتَج، ممّا سبق قوله، أن تطوّر الشخصيّة يتعلّق بسياق processus التفاعل المعقّد بين محدّدات بيو ـ فيزيولوجية ونفسية ـ عاطفية واجتماعيّة ـ ثقافيّة وأخلاقية وتاريخيّة...، هذه السياقات التي يلعب من خلالها متغيّر «الشخصيّة» دوره الخاص بفضل ديناميّة داخليّة توفّرها له الخصائص التي تتميّز بها الشخصيّة ونعني بها: الطواعيّة والمرونة و....

هناك جدليّة تاريخيّة متكاملة تستمر من الطفولة إلى المراهقة ومن المراهقة إلى سن الرشد والشيخوخة، يمكن أن تشكّل تشعّباتها (أجزاؤها) الكلاسيكيّة خطوةً نحو تكوين أكثر من وحدة في شخصيّة الإنسان بالرغم من تغيّر الزمن وبفضله؛ بمعنى آخر، يمكن أن تؤدّي هذه الجدليّة، بسبب تشعّباتها، إلى نوعٍ من تعدّد الوحدات داخل مفهوم الشخصيّة إذا لم يؤخذ بعين الاعتبار التكامل المفروض في عمل كل هذه التشعّبات ضمن مجموعة الأجزاء المتكاملة والمكلّلة بالتاريخ نفسه نظراً لضرورة إعطاء الأهميّة اللازمة دون مبالغة أو نقصان لعمل كلٍّ من هذه الأجزاء داخل العمليّة المتكاملة المسؤولة عن استمرار وحدة واحدة لا غير.

إن تنوّع الحُقب في حياة الكائن البشري يمدّ الإنسان بالغنى والتنوّع والتكامل وذلك بفضل الخبرات التي يعيشها أثناء حقبة من حياته؛ لكنّه يمدّه، أيضاً، بتشعّبات يمكن أن تظهر للمراقب السطحي وكأنّها مجموعة من الوحدات «مجموعة أنوات» خاصّة بكل دور يلعبه المرء وبكل حقبة يمر بها في حياته ؛ إن ردّات الفعل التي يكوّنها الطفل تجاه المواقف الثقافية والفرديّة المنتشرة في محيطه تكوّن، عنده، مجموعة من التشريطات والعادات وردّات الفعل الأساسيّة التي تشكّل، بالتفاعل مع مميّزاته الفرديّة الخاصّة به، هيكل شخصيّته: الأنا الكبرى؛ Le Moi[1]. وهذه الأنا هي المسؤولة، لاحقاً، عن استفادته (استفادة الطفل) من الاختبارات التي يعيشها وعن الاختيار الواعي الذي يقوم به بالنسبة لرفض بعض النماذج والمثيرات المفروضة من قِبَل المحيط لكونها غير متلائمة مع

(١) بالأنا الكبرى «Moi» نقصد تلك التي تمثّل الشخصيّة الفرديّة؛ إنها تتميّز، بالواقع، عن مجموعات الأنا الصغرى «les moi» التي تتكوّن عند الفرد لدى قيامه بمختلف الأدوار (أدوار متنوّعة أثناء الطفولة: مثلاً لعب دور الأم أو الأب أو الطفل أو الجندي أو السارق أو. . . ، وأدوار اجتماعيّة متنوّعة لاحقاً: يكون المرء تلميذاً إنما في الوقت نفسه، يترتّب عليه واجبات تجاه أهله كما يكون، أيضاً، عضواً في جماعة تضمّه مع عددٍ من الرفاق. . . ؛ أو يكون أباً مسؤولاً ويشغل منصباً معيّناً لتأمين قوته وقوت عياله كما يمكنه أن يكون، في الوقت نفسه، عضواً في جماعات ونوادٍ مختلفة. . .). كل هذه الأدوار تشكّل مجموعة من الأنوات الصغرى التي تصب كلها في المصب الأكبر «الأنا الكبرى» Le Moi وتغنيها. وهذه الأنا Moiهي المسؤولة عن المحافظة على وحدة الشخصية عبر الزمن وبالرغم منه وعبر تنوّع الأدوار. . . .

شخصيّته وقبول بعضها الآخر باعتباره أكثر تلاؤماً مع فرديّته؛ من هنا نقضُنا لوجهة نظر بعض العلماء الذين رأوا بالطفل صفحةً بيضاء يطبع عليها المجتمع والثقافة ما يريدان.

الحديث عن وحدة الأنا عبر الزمن أي عن ثبات طبعٍ دائم عند الفرد يطرح قضيّة من أهم القضايا التاريخيّة: الهويّة الشخصيّة L'identité individuelle؛ لكن الهويّة لا تعني، بحد ذاتها، ثباتاً لأنها ليست جامدة بل هي الهويّة من خلال التغيير. إنّها الوحدة أو المرجع الأساسي الحاضر دائماً بالرغم من كل التغييرات الناتجة عند الفرد عن العمليّات المتعدّدة (الذهنيّة والعقلية والنفسية والعاطفيّة والاجتماعيّة - الثقافية والبيو - فيزيولوجية والأخلاقية والتاريخيّة) التي تجسّد عمله الدائب والمستمر قصد تأمين وحدته الشخصيّة التي تتحقّق بفضل مختلف التماهيات Identifications[1] (بأشخاص، بنماذج، بأدوار، . . .) حيث يساهم تعدّدها، لا في تكوين تعدّد الوحدات في الشخصيّة وإحساسها بالغرابة وحسب، بل في إرساء دعائم بنيته الدينامية. تُعتبَر هذه البنية الدينامية، مبدئيّاً، المسؤول الأوّل عن توفير عناصر وحدة الفرد عبر تداخل وتفاعل مختلف العوامل الفاعلة في تكوين شخصيّته.

عطفاً على ما سبق قوله نضيف: الهويّة، ليست كما يعتقد برادين Pradine تلك الفكرة البسيطة المنظّمة للماضي لأنّنا لا نستطيع إدراك أنفسنا متشابهين فقط لما كنّا عليه في الماضي، بل هي أيضاً الإحساس بالحاضر: إنها الهويّة الحاضرة ضمن الوضعيّة الحاليّة، لأن وعي الذات هو دائماً معاصر (حالي). وهذا الوعي المعاصر يشكّل قصداً (تخطيطاً) بالنسبة للمستقبل؛ فبمقدار ما هو (أي الوعي المعاصر) محدّد بالوقت أي بمراجعة الماضي كما هو، فهو أيضاً قصدٌ وعزم للحاضر والمستقبل.

(١) «التماهي» هو رغبة لا شعورية عند الشخص في التشبّه بأشخاص آخرين، إنّما، كي يتم هذا التماهي على الشخص التعرّف إلى ماهيّة وفحوى دور هؤلاء الأشخاص الذين أعجب بهم كيما يستطيع التمثّل بهم. يلعب هذا التماهي دوراً هامّاً جدّاً في حياة الإنسان بأكملها؛ إنّما تبقى أهم التماهيات وأقواها أثراً تلك التي يحقّقها الإنسان في المراحل الأولى من حياته (خصوصاً خلال المرحلة الأوديبية) لدى تماهيه بوالديه. . . .

لكن، علينا أن لا ننسى أن هناك تاريخاً فريداً من نوعه «تاريخ الفرديّة» بمعنى أن كل شخص يملك فرديّته الخاصّة به بفضل سمات متعـدّدة سبق أن ذكرناها؛ وبالتالي، إن مصيره لا يشبه، بالواقع، مصير أي شخصٍ آخر. هنا يتبادر إلى ذهننا سؤالٌ هامّ: كيف يمكن أن تكون الشخصيّة الفرديّة، التي هي من إبداع المجتمع، فريدة من نوعها؟

في الواقع، سبق أن تكلّمنا عن هذا الموضوع، إنّما للردّ عليه بعمق علينا دراسة تأثير وفعالية عوامل ووقائع مختلفة:

أوّلاً: يجب الأخـذ بعين الاعتبـار المحدِّد التكـويني (الوراثي والبيـو - فيزيولوجي) الذي يفرض على الفرد بالرغم من تفاعله مـع البيئة (الـطبيعيّة والاجتماعيّة) طابعه الخاص: كل إنسان يرث عن أهله مجموعة من العنـاصر البيولوجية التي تبقى، بالرغم من تشابهها عند مختلف الأفـراد المتحدّرين من العائلة نفسها خاصّة به. كما أن النشاطات الفيزيولوجيّة الخاصّة بكل فرد تخلق تنويعاً في الدوافع الأساسيّة وفي السلوك الكلّي عنده نتيجة تفاعلها مع تخصّصه الفردي بصفات يتميّز بها عن غيره من الأفراد (حتى وإن كانوا من أسرته).

يمكن القول، ثانياً، إن الوحدة التي هي الميزة الرئيسيّة لكـل شخصيّة تتكوّن نتيجةً للتفاعلات المتعدّدة والمتتابعة بين الطبيعة البشريّة والبيئة (الطبيعيّة والاجتماعيّة) ضمن عمليّة النضج ومختلف الوضعيّات المحيطة بالفرد. إنّه لمن المستحيل، بالتالي، القول بتتابع متشابه عند عددٍ من الأفراد لهذه التأثيرات لأن المجتمع معقّد جدّاً، كونه يتألّف من جماعات وعناصر ثقافيّة مختلفة ومتعـدّدة يمكن أن يلتقيها فردٌ ما بينما لا يلتقيها أي فردٍ آخر في المجتمع نفسه.

هناك، أيضاً، الأحداث التي لا يمكن توقّع حدوثها بشكلٍ مسبق بالنسبة لأي فرد لدى أيّة محاولة لمعرفته بشكلٍ عام (مثلاً: موت الوالدين أو أحدهما يغيّر، غالباً، وبشكل شبه كلّي، الإطار الذي ينمو الطفل ضمنه) والتي تلعب دوراً هامّاً في تحديد مصير الفرد بالمستقبل. في الواقع، يعتبر التحليل النفسي فَقْدَ الطفل للوالدين أو لأحدهما مناسبةً، في الكثير من الحـالات، لإحياء عقـدة

مَرَضيّة معيّنة عنده. هذا بالإضافة إلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار، لدى دراسة وحدة الشخصيّة، المحيط الطبيعي والمحيط الفيزيكي والمحيط الثقافي والتفاعل القائم بين هذه المحيطات.

يمكن القول، أيضاً، بوجود اختلاف في شخصيّات الأطفال الذين عانوا من الصّدمة نفسها أو مرّوا بالمواقف المؤلمة نفسها بالرغم من تشابهها في بعض النواحي نظراً لكون الوضعيّة المسبِّبة للصدمة، لها أثرها الخاص بالنسبة لكل إنسان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن لحظة حدوث هذه الصدمة عند الشخص (طفلاً كان أم راشداً) الفريد من نوعه لا بد أن تؤثّر بشكلٍ فريد على شخصيّته وبالتالي، فإن استجابته لها (للصدمة) ستكون هي أيضاً فريدة من نوعها.

يُستنتَج، ممّا سبق قوله، أن لوحدة الشخصيّة محدّداتها الخاصّة وبأن كل السياقات التي وصفناها سابقاً تلعب دورها الفعّال في بناء مصيرٍ لا يستطيع إلاّ أن يكون فريداً.

يمكن القول، إذاً، إن الفرد هو نتاج الثقافة والمجتمع إنما، هناك في الوقت نفسه تخصّص في إرثه البيولوجي وفي محيطه الحسّي من حيث العدد والطبيعة والنظام الزمني للوضعيّات الحسّاسة التي يلتقيها خلال مجرى حياته وأخيراً، في طريقة كونه وفي صيرورته son devenir.

كما يمكن القول إن التاريخ الفردي يعمل ضمن إطار تواريخ فرديّة أخرى أي ضمن إطار التفاعل الحاصل بين الأشخاص والذي يساهم في تكوين تاريخ البشريّة نفسها. بمعنى آخر نقول: الشخصيّة هي تاريخ ضمن تاريخ أوسع وأشمل، إنّها بناء إنساني يستحيل فهمه إذا لم نضعه ضمن إطار الحركة التطوّرية المسيِّرة للمجتمعات التي هي نفسها بناءات ذاتيّة خلقت خلال تعاقب العصور والأجيال.

وجهة نظر ن. بريادئف (سبق ذكره، ص ٥ ـ ٦) تدخل ضمن هذا الإطار التحليلي لشخصيّة الإنسان؛ فهو يرى أن الإنسان يتلقّى مؤثّرات بيئته

الماديّة والاجتماعيّة ويتأثّر بتجارب التاريخ البشري لكنّه في استجابته لهذه المؤثّرات جميعها حرٌّ في جوهره وكائنٌ فعّال خالق. حتّى في المستويات الدنيا للوعي الإنساني، لا يتأثّر الإنسان تأثّراً آلياً إلاّ بالأفعال المنعكسة لكنّه لا يُقدَّر إلاّ بالمستويات العالية لوعيه وبما في استطاعته أن يبلغه ويحقّقه؛ فمن هذه الناحية لا يمكننا إلاّ أن نعترف له بالروح الخلاّقة المبدعة القادرة على تنسيق جهوده وضمّ أشتاته وجمع أجزائه لتكوّن منها كلاًّ مركّباً وترسم له، في حرّية وطلاقة، طريق عمله وميدان جهاده فيتمكّن، عندها، من الانتفاع بالمادّة التي يسّرتها له الطبيعة والمجتمع والتاريخ لتكوين شيءٍ فريد يحمل طابعه الخاصّ ويعبّر عن فرديّته. وهذه الروح تُدرِك بالبداهة وجود القيم الأخلاقيّة.

وهو أي (برديائف) يرى أن الإنسان، وإن كانت تتحكّم فيه البيئة إلى حد محدود، يستطيع أن يعيد خلق البيئة على الصّورة التي يريدها، لذا يؤدّي التقصير في إدراك الفرق الجوهري الكامن بين عالم الروح وعالم الحريّة والنشاط الخلاّق عند الشخصيّة الإنسانيّة من جهة وبين عالم الطبيعة الذي تتجلّى فيه السيطرة الآليّة والقوانين الجبريّة... من جهة أخرى، إلى سوء فهم مشكلة الإنسان برمّتها إذ أن لكل إنسان رسالة تتضمّن تحقيق شخصيّته تحقيقاً كاملاً.

والشخصيّة، عنده، ليست وسيلة بل غاية قصوى تكمن في النمو الحرّ الكامل لكل شخصيّة ولمختلف الشخصيّات؛ وهي مثلٌ أعلى يجاهد الإنسان طوال حياته في سبيل تحقيقه عبر الكفاح المستمر والجهاد الدائم والانتصار المتواصل على الاستعباد (أكان استعباداً للذات أم استعباداً للمجتمع والحضارة...). لذا، من الممكن أن تظلّ الشخصيّة قوّة كامنة بمعنى أنّه من الممكن أن لا تتبلور وتتحقّق نظراً للصعوبات المتعدّدة التي تواجه الفرد أثناء عمله الدائب في سبيل تحقيقها؛ من هذه الصعوبات نذكر، بالإضافة إلى ضرورة إمكانيّات الجهاد واحتمال الآلام، إمكانيّة خضوع الفرد للقوى الخارجيّة والانقياد لها أو الانقياد للقوى الداخلية من شهوات وأهواء ونزعات خاصّة... . من شأن كل ذلك تعطيل نموّه ومن ثم نضجه وفقد حرّيته، ممّا يساهم في ازدياد فرص إصابة شخصيّة الفرد بالانحلال وفقد استقلالها

الروحي. ومتى أصيبت هذه الشخصيّة بالمرض العام الشامل لمجمل الأفراد، أصيب المجتمع الذي يضمّهم.

في الواقع، يمكن تصوير علاقة الشخصيّة السليمة بالمجتمع السليم كالتالي: يتكوّن المجتمع السليم من أشخاص يتمتّعون بالصحّة؛ وكلّما كان هؤلاء الأفراد أصحّاء لا تواجه قواهم ما يعترض نشاطها كان المجتمع أقدر على احتوائهم ومعالجة المشاكل التي تواجهه وعلى مواجهة الأحداث وإزالة العقبات من طريقه أي، بمعنى آخر، كان أقدر على صنع تاريخه الخاص المكوَّن من تفاعل وتكامل شخصيّات أفراده.

وهكذا، يتضافر تاريخ الفرد وتاريخ مجتمعه، عبر المجتمعات العالميّة الشاملة، على تكوين التاريخ البشري الشامل الذي يشكّل التاريخ الفردي والاجتماعي حلقة من حلقاته المترابطة والمتكاملة.

يُطرَح أمامنا، هنا، تساؤلٌ هام: ما التاريخ؟

٢ ـ ما التاريخ؟

كان علينا بدء كتابنا بهذا التساؤل وبالإجابة عليه كما جرت العادة عند مختلف المؤلّفين؛ لكنّنا آثرنا تأجيل طرحه حتى الآن، عن قصد، لأسباب متعدّدة نذكر أهمّها:

ـ توفير أكبر عدد ممكن من الفُرَص التي من شأنها المساعدة على حصر المعاني والمواضيع المتنوّعة التي تناولها مختلف المؤرّخين بعد أن توضّحت وانجلت أثناء مناقشتنا لتأثيرات وتأثّرات التاريخ بسيكولوجيّة الفرد (والمجتمع) مقرونةً بالأمثلة والوقائع الحيّة.

ـ كذلك القول فيما يختصّ بضرورة إيضاح الالتباس الذي وقع به مختلف المؤرّخين بالنسبة لمعنى لفظة «التأريخ» كعلم ينتظم فيه الوعي التاريخي عند الأفراد والشعوب والذي انساب إلى مجمل مواضيعه بحيث نرى هذه اللفظة «التأريخ» تُطلَق تارةً على الماضي البشري وطوراً على الجهد المبذول لمعرفته

(معرفة الماضي) ورواية أخباره ووقائعه. ولقد تناول الالتباس معظم اللغات الحيّة (فرنسيّةً كانت أم إنكليزيّة أم ألمانيّة أم عربية...).

يعود ذلك، برأينا، إلى شعورٍ أصيل عند الإنسان بالارتباط الدقيق الموجود بين معرفة الماضي والماضي نفسه؛ يزداد هذا الشعور، بصفة خاصّة، بازدياد إحساسه بماضيه وتلفّته إليه وتأثّره به (كما هو حال الإنسان اليوم) (ق. زريق، «نحن والتاريخ»، سبق ذكره، ص ١٤).

لإيضاح هذا الالتباس في معنى التاريخ وموضوعه، سنكتفي بإيراد عدد محدّد من تحديدات تاريخيّة (متعدّدة، متنوّعة ولا يمكن حصرها) وردت على لسان عددٍ من المؤرّخين، من شأنها، بالإضافة إلى ما أوردناه سابقاً، إعطاء فكرة واضحة بهذا المجال.

قال أحد كبار الدبلوماسيّين الفرنسيّين في القرن التاسع عشر: إن التاريخ هو سياسة الماضي وسياسة الحاضر هي تاريخ المستقبل».

أكّد هذه الحقيقة عدد من مؤرّخي وفلاسفة وعلماء القرن العشرين وإن تناولوها بعبارات مختلفة:

قال المؤرّخ الفرنسي جاك بانفيل Banville: «بغير الحاسّة التاريخيّة لا وجود للسياسة أو أنها تقتصر على تركيبات لا مستقبل ولا أهميّة لها. من هو رجل الدولة الذي يجهل التاريخ؟ هو طبيب لم يذهب إلى المستشفى ولا إلى العيادة ولم يدرس الحالات ولا السوابق»[١].

وقال المفكّر بول ڤاليري Valéry «إن الماضي... يفعل في المستقبل بقوّة توازي قوّة الحاضر ذاته... فالمستقبل، في تحديده، لا صورة له. لأن التاريخ وحده كفيل بإعطائه الوسائل التي تساعده على تصوّره»[٢].

وقال المؤرّخ ج. كورنيس «إن رجل الدولة الذي يُعنى بتحسين النظام الاجتماعي عليه، كي يقوم بهذه المهمّة، أن يُلم تماماً بجوانب تكوين بلده

(1) Jacques Bainville, *Réflexions sur la politique,* P.34.
(2) Paul Valéry, *Regards sur le monde actuel,* P.19.

انطلاقاً من نمط الحياة والطبائع والأماني الخاصّة وكذلك مجمل التراث الروحي والمادّي لهذا البلد وللبلدان التي تجاوره على السّواء ويستحيل عليه ذلك إذا أغفل تطوّرها التاريخي. . . »[١].

«بدون معرفة الحاضر تبدو معرفة الماضي ناقصة. وفي المقابل، لمعرفة أحداث اليوم، لا بد من معرفة العهود الماضية» كما قال رانك كبير المؤرّخين الألمان[١].

وقال ساديلّلو Sédillot «إن السوابق التاريخية لها أهميّتها كدروس وعبر، لأن إنسان اليوم يشبه إنسان الأيّام الماضية. . . فهو لم يتغيّر: فلا يزال محتفظاً بأهوائه وميوله وانتماءاته وآماله شأنه اليوم شأن سلفه بالماضي»[٢].

ورأى كروشيه، في مطلع القرن الحالي (القرن العشرين)، أن التاريخ بأجمعه هو «تاريخ معاصر» بمعنى أن التاريخ يتألّف بصورة أساسيّة من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله وأن عمل المؤرّخ لا يكمن في التدوين بل في التقويم الذي يمكّنه من معرفة قيمة الأشياء التي تستحق التدوين.

كما رأى كولينغوود («فكرة التاريخ»، ١٩٤٥) الذي تأثّر بآراء كروشيه، بأن فلسفة التاريخ، لا تهتم بأي من «الماضي في ذاته» أو بتفكير المؤرّخ حول الماضي بذاته وإنّما بالأمرين معاً في علاقتهما المتبادلة لأن الماضي الذي يقوم المؤرّخ بدراسته ليس بالماضي الميت ولكنّه، بمعنى ما، «ماضٍ لا يزال يعيش في الحاضر» بيد أن ما جرى فعلاً في الماضي هو فعلٌ ميت أي لا يعني بالنسبة للمؤرّخ شيئاً ما لم يفهم الفكرة التي تكمن خلفه. من هنا فإن التاريخ بكامله هو تاريخ الفكر وهو إعادة تَمثُّل الفكر في ذهن المؤرّخ للتاريخ قيد الدرس. ثم إن إعادة تشكيل الماضي في ذهن المؤرّخ أمرٌ يتوقّف على الدليل التجريبي.

بيد أنّه لا يُعتبَر عمليّة تجريبيّة بحدّ ذاته كما أنّه لا يتوقّف فقط على مجرّد

(1) J.Kornis, *L'homme d'Etat,*

(2) *René Sédillot, L'histoire n'a pas de sens,* P.182.

سرد للحقائق إذ أن عمليّة إعادة التكوين كحكم هي عمليّة اختيار وتأويل لحقائق وهذا ما يجعل هذه الحقائق تاريخيّة.

يقول أوكشوت الذي يلتقي كولينغوود عند هذه النقطة «التاريخ هو تجربة المؤرّخ، إنّه ليس من صنع أحد باستثناء المؤرّخ، وكتابة التاريخ هي الطريقة الوحيدة لصنعه»[1].

يُلقي هذا القول الضوء على بعض الحقائق المهمَلة سابقاً وإن دعا إلى بعض التحفّظات:

- إن حقائق التاريخ لا تصل إلينا مطلقاً بصورة «بحتة» لأنها لا توجد ولا يمكن أن توجد بصورة بحتة، بل تنعكس دائماً من خلال ذهن المدوِّن؛ يترتّب على ذلك صبّ الاهتمام على المؤرِّخ الذي كتب العمل التاريخي أكثر منه على الحقائق التي يتضمّنها هذا العمل.

- حاجة المؤرِّخ لفهم تصوّري لأذهان الناس الذين يتعامل معهم وللأفكار التي تكمن خلف أفعالهم. فالتاريخ لا يُكتَب، ولا يمكن أن يُكْتَب إذا لم يستطع المؤرِّخ أن يحقّق نوعاً من الاتّصال مع أذهان أولئك الذين يكتب عنهم.

- بالإمكان النظر إلى الماضي وتحقيق فهمه فقط من خلال عيون الحاضر، فالمؤرّخ هو ابن عصره وهو مقيَّد به بحكم شروط الوجود الإنساني، ووظيفته ليست صحبة الماضي ولا تحرير نفسه منه إنّما هي استيعاب هذا الماضي وفهمه كمفتاح لفهم الحاضر.

كل ذلك يطرح تساؤلات وصعاباً متعدّدة حول التزام المؤرّخ بحقائقه، لكن إدوارد كار (سبق ذكره، ص ٢٢ ـ ٣٢) يرى أن الحالة ليست مستعصية كما يبدو وإن كانت صعبة نظراً لكون علاقة المؤرّخ بحقائق التاريخ تؤدّي إلى حالة غير مستقرّة تكمن في الوقوف بين نارين: نار نظرية تقول إن التاريخ هو

---

(1) M. Oakeshott, *Experience and its Modes, 1933, P.99.*

تجميع للحقائق وتنادي بسيادة الحقائق على التفسير (نظرة للتاريخ تمتلك الماضي كمركز للجاذبية) ونار نظرية أخرى تقول إن التاريخ هو نتاج ذاتي للمؤرّخ الذي يرسّخ حقائق التاريخ ويفهمها فهماً كاملاً من خلال عمليّة التفسير (نظرة للتاريخ تمتلك الحاضر كمركز للجاذبية).

فهو (أي إدوارد كار) يرى أن هذه الحالة تستدعي مواجهة تفرّعات ثنائية مماثلة للحقائق والتفسير وتكمن في: الخاص والعام، التجريبي والنظري، الموضوعي والذاتي لأن حالة المؤرّخ هي انعكاس لطبيعة الإنسان الذي، باستثناء مرحلة طفولته المبكرة أو شيخوخته المتأخّرة، لا يندمج كلّياً في بيئته كما أنّه لا يخضع لها بدون شروط. فهو (أي الإنسان) ليس مستقلاً كلّياً عنها ولا سيّدها التام.

وعلاقة المؤرّخ بموضوعه تشبه، أو هي، علاقة الرجل ببيئته بمعنى أن المؤرّخ ليس الخادم لوقائعه ولا سيدها الطاغي لذا يجب أن تكون علاقة المؤرّخ بوقائعه علاقة مساواة وعلاقة أخذ وعطاء؛ وهذه العلاقة التبادليّة تضمّ، أيضاً، التبادل الحاصل بين الحاضر والماضي لأن المؤرّخ هو جزء من الحاضر بينما تنتمي الحقائق إلى الماضي؛ وكلا الاثنين: المؤرّخ ووقائع التاريخ، هما ضروريّان أحدهما للآخر إذ أن المؤرّخ بلا وقائعه عقيم وبلا جذور كما أن الوقائع بدون المؤرّخ تبقى عديمة الحياة والمعنى.

على ضوء هذه الحقائق يُفهَم تحديد كارّ (سبق ذكره، ص ٤٩) للتاريخ بأنّه «عمليّة مستمرّة من التفاعل بين المؤرِّخ ووقائعه وحوار سرمدي بين الحاضر والماضي».

يُفهَم أيضاً تحديد ق. زريق («نحن والتاريخ»، سبق ذكره، ص ٣٢) القائل إن «التأريخ هو السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه»[1].

---

(١) يستعمل ق. زريق لفظة «التأريخ» عندما يعني دراسة الماضي و«التاريخ» عندما يعني الماضي نفسه وذلك، كما يقول، لاجتناب الالتباس الذي يعتري هذه اللفظة (وإن كان يُقرّ بأن هذا التمييز ليس من البيان والوضوح بحيث يؤدّي، على أفضل شكل، الغرض المقصود منه).

كما يُفهَم تحديد ج. بولس[1] «التاريخ هو علمٌ يعكف على بسط تطوّر المجتمعات البشريّة بسطاً وصفيّاً».

«فمنذ ظهور الكتابة والتاريخ يلعب دور الذاكرة الإنسانية. فبفضله يمكن إعادة تمثيل الحياة الإنسانية في تسلسلها الزمني وفي مركّباتها العديدة، عنيت: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية».

يظهر، من كل ما سبق ذكره، الالتباس في المعنى والموضوع التاريخيين؛ لكن مهما يكن من أمر، فإن باستطاعتنا القول إن النهضة العلميّة التي حدثت خلال هذا القرن (وبالأخص خلال العقود المتأخّرة منه) أفادت التاريخ وساهمت في جعله علماً قادراً على التحرّر من المفهوم الكلاسّيكي (التقليدي) للتاريخ كسرد وقائع وأحداث ووصفها وترتيبها وتحليلها والقفز إلى مفهوم متقدّم معاصر، بحيث غدا علماً اختباريّاً على غرار علم الطب والطبيعيّات والحياة، له قواعده وسننه المُستخلَصة من تكوّن الشعوب وتطوّرها عبر العصور منذ نشأتها حتّى اليوم، وله منهجيّته العلميّة الخاصّة به.

وهكذا، بات بإمكاننا معرفة السنن والقوانين التي تهيمن على حياة الشعوب وتحرّكاتها ونشاطاتها في مختلف الميادين والتي رأينا أنّها موجّهة، بدورها، بعوامل متعدّدة مثل: العوامل الطبيعية أو الجغرافية، العوامل الوراثية، العوامل المكتسبة (كالدين واللغة والعادات والتقاليد) وغيرها من العوامل ذات الفعل والأثر البالغين في تكوين الشخصيّة الفرديّة والجماعيّة... (سبق أن ركّزنا على هذه العوامل في سياق المناقشة التي قمنا بها ضمن إطار هذا الكتاب، لذا نعيد القارىء إليها).

أمّا كيف أصبح التاريخ علماً فيمكن تلخيص ذلك بقول بولس (سبق ذكره، ص ١٦) التالي: «التاريخ كعلم science ظهر في أوروبّا في القرن التاسع عشر كنتيجة للثورة الفنيّة والتقنيّة والصناعيّة، وانتقلت إليه معالم تلك الثورة في طريقة البحوث العلميّة ومنهجيّتها. ثمّ تطوّر إلى علم اختباري أو

(١) جواد بولس، «التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام» ، دار عوّاد للطباعة والنشر، بيروت، ص ١٤.

تجريبي science expérimentale في العصر الحديث أسوة بسائر العلوم؛ وهكذا بات في متناولنا مشروع التاريخ العلمي أو التوليفي والفلسفي - «histoire scientifique ou synthétique».

وبفضل هذه النقلة الثورية أصبح باستطاعة المؤرّخ القيام بنظرة شاملة إلى الأحداث الماضية في تسلسلها وتتابعها وترابطها المنطقي والمتواصل منذ القدم، ممّا مكّنه من البحث عن السنن أو الثوابت التاريخية والكشف عن الأسباب العميقة المسيِّرة لمجرى الأحداث نظراً لترابط المراحل المتعاقبة في التطوّر التاريخي بعضها ببعض إذ لا يمكن فصل الماضي عن الحاضر ولا الحاضر عن الماضي.

هذا ما حدا المؤرّخ الفرنسي هـ. بير Berr[1] للقول «إن التاريخ، في المفهوم العلمي، هو البحث عن الأسباب التي أنتجت الحضارة منذ أقدم العصور... ودفعتها قِدماً عبر الكثير من الأزمات».

وسبب كل ظاهرة على الصعيد العلمي لا يعني، إذاً، مجرّد سرد لوقائع الماضي بل يعني، بشكلٍ خاص، فرز هذه الوقائع وتركيبها وتأليفها... لأنّها (أي الوقائع أو أحداث الماضي) تشكّل مواداً أوّلية (معلومات) يتزوّد بها المؤرّخ لكي يكوِّن موضوع تاريخه العلمي. من هنا، قول بوانكاريه Poincaré[2] «يُبنى العلم على وقائع، كما يُبنى البيت بحجارة. ولكن تكديس الوقائع ليس علماً كما أن كومة الحجارة ليست بيتاً».

ثم إن سرد وقائع الماضي ووصفها لا يُمكّن من استخراج الدروس والعِبَر إذ ينقص هذه الطريقة الدرس العلمي والمنطقي الذي يعتمد، أساساً، على البحث عن الأسباب العميقة للأحداث الماضية وللسنن والثوابت التاريخية التي ولَّدت هذه الأحداث ووجّهت تطوّرها والتي تمكّن من شرح تسلسلها.

والبحث عن الأسباب البعيدة التي تؤثّر في تطوّر الإنسان الاجتماعي يقود

(1) H.Berr, *La synthèse en histoire*, avant-propos, P.711.
(2) H. Poincarré, *La science et l'hypothèse*, 1902, P.168.

للبحث ومن ثمّ لمعرفة سنن التعايش الاجتماعي المحدِّدة لتطوّر المجتمعات التاريخية زمنيّاً ومكانيّاً عبر العصور.

بالعودة إلى المعنى المقصود بانصباب التأريخ على الماضي يمكن القول إن ذلك لا يعني فصل الماضي عن الحاضر والمستقبل نظراً لكون الحياة في سيرها وحدة متكاملة بحيث تتأثّر المواقف المتَّخذَة من الماضي بمعتقدات الحاضر وآمال المستقبل وتؤثّر فيها خصوصاً أن التاريخ يشمل الحياة البشريّة الماضية بجميع مظاهرها: النظم الاقتصاديّة، العلاقات الاجتماعيّة، الاعتقادات والتقاليد الدينية، المذاهب الخلقية والأساليب الفنيّة والأدبيّة... . فكل هذه المظاهر تدخل، من حيث تطوّرها الماضي، في نطاق الاهتمام التأريخي لأنّها كلها وجوه لحياة واحدة؛ ولئن كانت بعض هذه الوجوه كالأحداث السياسية والوقائع الحربية...، ظاهرة أكثر من سواها فإن الأحداث الأخرى كالتطوّرات الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة... لا تقلّ عنها أهميّةً وفعلاً لا بل كثيراً ما تكون هي المسيِّرة لها.

ولا يعني ذلك أن الحياة مؤلّفة من أجزاء ووجوه منفصلة وأن التاريخ مجموعة تواريخ خاصّة (بالسياسة والأدب والاقتصاد والفن...) بل يعني أن الحياة البشريّة هي في الماضي مثلها في الحاضر: وحده عضويّة تتفاعل فيها مختلف العناصر وتتكامل. فكل حدث (ظاهراً كان أم خفياً، صغيراً أم كبيراً) هو ملتقى تفاعل وتداخل مجموعة من العوامل والمؤثّرات؛ والحياة تتكوّن من مجموع الأحداث التي تشكّل كياناً معقّداً متشابكاً إنّما هو مترابط موحَّد يأبى البتر والانقسام. لذا لا يُفهَم أي حدث من أحداث الحياة إذا لم نضعه ضمن إطاره الكلّي.

الماضي البشري يعني، إذاً، الحياة البشريّة بوحدتها المتعدّدة المظاهر والعوامل ولا يتم إدراكه عن طريق التوهّم أو التخيّل والتصوّر بل عن طريق إحياء الماضي بمختلف مخلّفاته وآثاره (هنا يلتقي التاريخ مع الجهود العلميّة الأخرى المنصرفة إلى اكتساب المعرفة الإنسانية ويتغذّى منها ويستفيد من منتجاتها القيّمة) وذلك باتّباع أسلوب له قواعده وضوابطه العلمية (سبق أن

تحدّثنا عنها) التي تساعده على مجاراة الغرض العلمي الخالص إذ أن قيمة أي إنتاج تأريخي تُقاس بصحّة ودقّة الإدراك والمعرفة وبسلامة وبساطة التعبير.

لا يمكن إدراك هذا الماضي، إذاً، دون سعي المؤرّخ وجدّه وبذله الجهود الشاقّة لتحقيق ذلك: لا شك في أن كل جهد إنساني هو سعي إلى غاية، إنّما السّعي بالنسبة للتأريخ له معنى خاص نظراً لطول مدى الماضي ووسع مجاله وتداخل عوامله وتشابكها وتعقّدها. هناك: حقبة طويلة متعدّدة في تاريخ البشريّة وأحداث متتابعة متشابكة وأمم تعاقبت على مسرح الوجود مخلّفة وراءها حضارات خاصّة بها تنبىء عن وجودها وشعوب تصارعت وتفاعلت وأنتجت وأجدبت وحضارات تتالت مؤثّرةً بعضها في بعض فكان تفاعلها ظاهراً في بعض الأحيان وخفيّاً في أكثرها.

هذا هو الماضي الذي على المؤرّخ السّعي لإدراكه: حياة البشرية بمختلف القوى الفاعلة فيها وتنوّع العناصر المشتركة في تكوينها: من خوالج وأهواء ونزعات ومطامع، إلى انطلاق خيال، إلى نفاذ فكر وتيقّظ عقل وتفتّحه، إلى قوى مزدوجة الاتّجاهات تميل بها تارةً نحو الخير وطوراً نحو الشر، إلى سلسلة متماسكة من الأحداث ترتبط فيها مختلف الاهتمامات: السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والنفسيّة والأخلاقية. . . . كل هذه القوى والعناصر يتفاعل بعضها مع بعض: تفعل وتنفعل، تؤثّر وتتأثّر. . ، فينتج عن ذلك نتاج متموّج يصعب على المؤرّخ معرفته والنفاذ إلى أعماقه إذا لم يتمتّع بسعة الفكر وبصفات علميّة تمكّنه من الوصول إلى تحقيق الهدف الذي يصبو إليه.

حتّى وإن تمتّع المؤرّخ بهذه الصفات فإن تعقّد الحياة البشريّة وتعدّد الأسرار التي تكتنفها من جميع وجوهها لتجعل من النتائج التي تتوصّل إليها العلوم الإنسانية بعيدة عن التأكيد والبتّ وخاضعة دائماً وأبداً للتعديل والتجديد خاصّةً وأن محورها هو الإنسان الغني بتعقيداته وتفاعلاته و. . . بعكس النتائج التي تتوصّل إليها العلوم الطبيعيّة حيث المادّة الجامدة (التي هي محور أبحاثها) تبقى أبسط تركيباً وأسهل منالاً. لكن يكفي المؤرّخ، مثله مثل أي عالم في مجال العلوم الإنسانية الأخرى، أن يكون قد قام بواجبه من السعي للكشف عن

الحقيقة وبطريقة علميّة. . .، فيكون قد ساهم بنصيبه من الجهد العقلي لبلوغ الحقيقة والمعرفة.

هذا بالإضافة إلى تميّز علم التاريخ، شأنه شأن باقي العلوم، بأسلوب يضمن له بلوغ الغاية ويقيه من الانحراف والانزلاق وبصناعة يتدرّب عليها ويتقيّد بقواعدها ويلتزم بحدودها:

فالأسلوب التأريخي يتطلّب من المؤرّخ، فضلاً عن التفتيش عن الوقائع والأحداث عبر مختلف المصادر ومقارنتها بعضها ببعض، جمع ورصف وتركيب المعلومات كي يكوّن منها بناءً كاملاً (أو أقرب ما يكون إلى الكمال)؛ ممّا يتطلّب، بدوره، معرفة شاملة لعديد من نواحي الحياة الإنسانية، معرفة دقيقة ومتعمّقة في بعضها. لا يتيسّر هذا الأسلوب وهذه المعرفة إلاّ لمن يقوم بمتطلّباتهما العسيرة التي تقتضي منه جهداً كبيراً. . . كما أن المؤرّخ لن يتمكّن من تحقيقهما إذا لم يكن يتمتّع بصفات وشمائل متعدّدة أهمّها: الشعور بالمسؤوليّة، الجدّ والمثابرة، الشك والنقد العلميّان، التجرّد العلمي، محبّة الحقيقة والالتزام بها، الأمانة والدقّة (بالفكر وبالتعبير وبالعودة للمراجع والوثائق) وهي، بمعظمها، فضائل خلقيّة ينمّيها بنفس المؤرّخ التزامه بعمله الذي يساعده على مراقبة نفسه ونقد ذاته ومحاسبتها. . . . سبق أن تحدّثنا، بالتفصيل، عن أهميّة هذه الصفات وما تكرارنا لها إلا للضرورة التي تحتّمها علينا محاولتنا لتحديد التاريخ كعلم من جهة، وسعينا لمعرفة أثر التاريخ في سيكولوجيّة الفرد نظراً لكونها ترتبط، بمجملها، بقدرات الإنسان وإمكانيّاته من جهة أخرى.

يُضاف إلى ذلك حاجتنا إلى تجنّب الالتباس الذي وقع فيه المؤرّخون (ولا يزال عدد كبير منهم يقع فيه) بالنسبة لمعنى وموضوع التاريخ الأساسيّين فنساهم، بالتالي، في بلورة هذا المجال الحيوي الذي لا وجود لحياة البشريّة بدونه، باتفاق الجميع.

لا نقصد بكلمة «وجود الحياة البشريّة» وجودها بالقوّة son existence en puissance إذ ان كل انسان مرّ على مسرح هذه الحياة يعيش، إنّما نقصد

وجودها بالفعل son existence active بمعنى وعي الإنسان لها وتحقيق ذاته ولن يستطيع ذلك دون أن يعي تاريخه ويتحسّس ماضيه ويتأثّر به خاصّةً في هذا العصر الذي يتميّز، كما قلنا في مقدّمة كتابنا هذا، بتنبه الإحساس التاريخي وانتشاره ويتيقظ وعي الأفراد والشعوب لحقوقها.

لقد سبق أن ركّزنا على اتّصال ماضي الإنسان بحاضره ومستقبله وعلى أثر التراث الذي يتوارثه الفرد عن أجداده في تكوين شخصيّته الفرديّة وفي تكوين شخصيّته القوميّة: كما أنّنا شدّدنا على أهميّة الثقافة التأريخيّة في تحرير الإنسان من ذاته ومن الآخرين. . . لذا لا ولن يمكنه تحقيق وجوده الفعلي إذا لم يستفد ممّا تؤمّنه له ثقافته التأريخيّة. ثمّ إنّه لن يتمكّن، بدونها، من مجابهة الاضطراب المسيطر عليه والمهدِّد له وللبشريّة جمعاء بمخاطر وكوارث لا يستطيع العقل تصوّرها نظراً للتقدّم التقني الذي توصّل إليه الإنسان والذي لم يترافق، مع الأسف، بتقدّم مماثل في معرفة الذات والقدرة على ضبطها وضبط الأنانيّة المسيِّرة لها.

هذا ما أدّى إلى طغيان المذاهب المتنافرة والعقائد المتناحرة على الأفراد والجماعات والأمم فتوجّهوا توجّهات متباعدة نمّت في نفوسهم روح العداء والتخاصم والتنازع.

تظهر أهميّة ما نقول إذا ما نظر الإنسان إلى مختلف هذه المذاهب والعقائد فيجد، عندها، أن للتاريخ دوراً أساسيّاً في نشوئها وفي إعطائها مبرِّراً لوجودها. في الواقع، يشتمل كل مذهب من هذه المذاهب على تعليل معيّن للماضي وللعوامل التي سيّرته وعلى فهمٍ خاص للأسلوب الذي يواجه به ويعالج عبره عمليّة بناء حاضره وإعداد مستقبله. هذا بالإضافة إلى عدم استطاعة أي إنسان اتّخاذ موقف معيّن من حاضره أو مستقبله إذا ما أهمل الماضي الذي ينساب في جميع جوانب حياته، لذا قيل بأن «تمكين الإنسان من فهم مجتمع الماضي وزيادة سيطرته على مجتمع الحاضر هي المهمّة المزدوجة للتاريخ». ويعني ذلك أن التعلّم من التاريخ ليس مجرّد عمليّة باتّجاه واحد لأن التعلّم من الزمن الراهن على ضوء الماضي يعني، أيضاً، التعلّم من الماضي على ضوء الزمن الراهن، ووظيفة التاريخ هي أن تحفز الفهم الأعمق لكل من الماضي والحاضر عبر الترابط بينهما.

ثم إن اعتبـار التاريـخ كعلم يطرح مسألة الفـرضيّة hypothèse التي يستخدمها المؤرّخ في عمليّة البحث والتي تشكّل أداة لا غنى عنها للتفكير وإن بقيت عرضة للتحقّق من صحّتها أو تعديلها أو نقضها؛ مثلاً على ذلك: تقسيم التاريخ إلى حقب زمنية لا يشكّل واقعاً بل فرضيّة ضروريّة من شأنها إيضاح الأمـور لأنها تعتمد عـلى منهجيّة التعليـل والتحليـل الكفيـلان ببلورة مختلف العوامل والمؤثّرات الفاعلة، ممّا يساهم بتأكيد صحّتهـا أو نفيها. ينـطبق هذا القول أيضاً على تقسيم التاريخ إلى قطاعات جغرافية الذي يُعتبَر كفرضيّة علميّة وليس واقعاً.

كذلك، يـطرح التاريـخ كعلـم مسألـة التنبّؤ pronostic التي تكمن في التمييز بين العام والخاص، وبين الشمولي والمفـرد: فالمؤرّخ مُلزَم بـأن يعمِّم وبفعله هذا يؤمِّن توجيهات عمومية للعمل المقبل تمتاز، وإن كانت غير محدَّدة، بأنّها سليمة ومفيدة. مثلاً، إصابة طفلين أو أكثر بالحصبة في إحدى المدارس تمكّن من الاستخلاص بانتشار الوباء ممّا يدعو المسؤولين إلى اتّخاذ الحيطة والحذر المتوجّبين في مثل هذه الأمور. . . ؛ يستند هذا التنبّؤ (أو التعميم) إلى تجارب مماثلة حصلت في الماضي وهذا دليل مفيد وسليم للعمل. لكن القدرة على التنبّؤ بالأحداث المستقبليّة تبقى محدودة نظراً لتداخل وتفاعل عوامل متعدّدة، منها ما يمكن توقّع أثرها وفعاليتها بشكلٍ مسبق ومنها ما يفلت من إطار قدرة الإنسان على التنبّؤ بحصولها، مهما بلغت درجة معرفته من العمق والشمولية، لارتباط هذه العوامل بالمصادفة وبالصفات الفرديّة الخاصّة بشخصيّة كل كائن بشري والمكوِّنة لتاريخه الخـاص به. بمعنى أن الأفـراد والجماعـات يختلفون من حيث القدرة الفطرية والمكتسبة ومن حيث التعرّض لأحداثٍ معيّنة تترك بصماتها في نفوسهم؛ كما أنهم يختلفون من حيث الحريّة الذاتية. . . ولولا هذا الاختلاف لكان الأفراد مجرّد صدى بعضهم لبعض، ولولا هذه القدرة والحريّة وإمكانات التخطّي لما كان هناك عظماء غيّروا وجه البشريّـة ودفعوهـا في طريق التقـدّم والتطوّر ولظلّت الحياة في ركودها وظلامها. . . .

يُستنتَج من ذلك، أهميّة التنبّؤ وبالوقت نفسه ضيق حدوده ومجالـه لأن

محور التاريخ هو، كما سبق أن قلنا، الإنسان الغني بتعقيداته وتفاعلاته. . . ممّا يفرض على المؤرِّخ، بعكس البيولوجي مثلاً، عدم الاكتفاء بدراسة بنية الإنسان الجسديّة بل عليه النفاذ إلى أشكال السلوك الإنساني التي تلعب فيها إرادة الشخص ووعيه دوراً فاعلاً كيما يتمكّن من التيقّن من السبب الذي حفز البشر الذين هم موضوع الدراسة إلى التصرّف حسبما فعلوا. ويطرح ذلك مسألة العلاقة المميَّزة القائمة بين المراقِب وموضوع المراقبة (بين الباحث وموضوع بحثه) حيث تدخل وجهة نظر المؤرِّخ، شأنه شأن العالِم في الميادين الإنسانية الأخرى، بكل ملاحظة يقوم بها؛ لقد كان هذا وجهاً من وجوه التحليل الذي عنيناه، في بداية هذا الفصل، بتجاذب المحلّل بين قطبين: الموضوعيّة والذاتية، التأكيد والتقريب، التأثيرات المنظورة والتأثيرات غير المنظورة. . . .

ثمّ إنّ عمليّة المراقبة تؤثّر في موضوع المراقبة وتكيّفه بشكلٍ متواصل؛ وكذلك تتميّز العلوم الإنسانية والتاريخ بشكلٍ خاص بسمة التغيّر بصورة متواصلة: فالتاريخ يعني الحركة والحركة تعني، ضمنياً، المقارنة.

التفكير التاريخي هو، باختصار، كالحياة الجائشة ذاتها التي يحاول المؤرّخ إدراكها: متغيّر وثابت ولا يمكنه استيعابه أو على الأقل الحكم عليه إلاّ من الناحيتين معاً.

من هنا يُفهَم تشديدنا السابق على المقياس المزدوج (المقياس الزمني النسبي والمقياس المتراكم خلال العصور) كمحك يُتّخَذُ لتقييم أي جهد في التاريخ (فرديّاً كان أم جماعيّاً).

وكما يقول إدوارد كار (سبق ذكره، ص ٩٣) «المؤرّخ الجدّي هو المؤرّخ الذي يدرك الطبيعة المتكيّفة مع التاريخ لكل القيم وليس المؤرِّخ الذي يزعم لقيَمه موضوعيّة تتجاوز التاريخ. إن المعتقدات التي نتمسّك بها ومقاييس الحكم التي نقيمها هي جزء من التاريخ وهي خاضعة للبحث التاريخي بمقدار ما يخضع له أي جانب آخر من أوجه السلوك الإنساني».

وهو، أي المؤرّخ، يتناول دراسة الإنسان وبيئته أي تأثيرات الإنسان في

بيئته وتأثيرات بيئته فيه وغرضه من ذلك هو، على غرار العلماء الذين ينتمون إلى العلوم الإنسانية الأخرى، زيادة فهم هذا الإنسان لبيئته وتحكّمه بها.

أمّا مستلزمات وطرائق البحث التي يعتمدها فيمكن تلخيصها بالأسلوب العلمي الذي سبقت الإشارة إليه والذي يستند أساساً، على السؤال والجواب بمعنى أن المؤرّخ يسأل باستمرار: «لماذا؟» بحيث تتمحور كل مساجلة تاريخيّة له حول مسألة أولويّة الأسباب التي تتطلّب، بدورها، التعليل والتحليل.

فيما يختص بالتعليل والتحليل العلميّين يقول بوانكاريه[1] إنّهما يتقدّمان والزمان معاً باتّجاه «التنوّع والتعقيد» وباتّجاه «الوحدة والبساطة» حيث تشكّل هذه العمليّة المزدوجة والمتناقضة شرطاً ضروريّاً للمعرفة كما يشكّل قانون السببيّة الوسيلة الأكثر ملاءمة لتكييف أنفسنا مع العالم[2].

يُفسّر ذلك كون علاقة المؤرّخ بأسبابه تحمل الطابع المزدوج والمتبادل الذي تتميّز به علاقته بوقائعه: فالأسباب تحدّد تعليله للعمليّة التاريخيّة في حين يحدّد هذا التعليل اختياره للأحداث وترتيبه إيّاها، ذلك أن تعاقب الأسباب والمغزى النسبي لسببٍ ما أو لسلسلة من الأسباب بالنسبة لسلسلة أخرى هو جوهر عمليّة التعليل.

التاريخ هو، إذاً، عمليّة اختيار بالاستناد إلى معايير المغزى التاريخي وهو يبدأ مع تناقل التراث الذي يعني حمل عادات ودروس الماضي إلى المستقبل، ويبدأ بحفظ سجلّات الماضي من أجل إفادة الأجيال المقبلة إذ أن التاريخ هو التقدّم عبر نقل المهارات المكتسبة من جيل إلى آخر.

أمّا فيما يختص بالموضوعيّة العلميّة في التاريخ فهي لا تعني موضوعيّة الوقائع التي لا تصبح تاريخية إلاّ تبعاً للمغزى الذي يضيفه المؤرّخ عليها، بل تعني موضوعيّة العلاقة القائمة بين الماضي والحاضر والمستقبل وبين الماضي وتفسيره لأن المؤرّخ لا يتعامل مع مطلقات بل مع أمور نسبيّة (كل حدث أو

(1) H. Poincarré, **La science et l'hypothèse**, 1902, P202-203
(2) J.Rueff, **From the physical to the social sciences**, 1929, P52.

جهد إنساني هو أمر نسبي)؛ لذا تكمن موضوعيّة المؤرّخ في اختيـاره السليم للوقائع بحيث تعكس نظرته إليها المجتمع الذي تمثّله كما تكمن في استخدامه معيار المغزى السليم لأن التاريخ سياقٌ يتحرّك باستمرار والمؤرّخ يتحرّك ضمنه.

على ضوء كل ما تقدّم ومن وجهة نظرنا كعالمة نفس عياديّة نحدّد التاريخ كونه «العلم الذي يسعى لإدراك الإنسان الحيّ الفاعل بشتّى الأبعاد المكوِّنـة لشخصيّته (الفرديّة والجماعيّة) وبمختلف العوامل الفاعلة في بنائها».

في الواقع، لا يبدأ التاريخ إلاّ حين يبدأ الناس في التفكير بانقضاء الزمن بوصفه سلسلة من الأحداث التي ينخرطون فيها ويؤثّرون فيها بصـورة واعية وليس بوصفه سياقاً طبيعيّاً لدورة السنين والفصول والأشهر والأيّام. إنّه، بمعنى آخـر، نضـال الإنسـان السـاعي، بشكـلٍ دائم، لفهم بيئتـه (الـطبيعيّـة والاجتماعيّة. . .) ومحاولة التأثير فيها إذ أن غاية الجهود الإنسانيّة الإيجابيّة هي تكوين الشخصيّة الإنسانيّة الحرّة، المسؤولة والمنتظمة.

ينطبق هذا القول على الإنسان في كل زمان ومكان إنّما بشكلٍ خاص على إنسان اليوم الذي أضاف إلى التاريخ بُعداً جديداً نظراً لكون العصر الحالي هو أكثر العصور نزوعاً إلى التفكير بصورة تاريخيّة: فإنسان اليوم، يعي ذاته وبالتالي التاريخ بشكلٍ لم يسبق له مثيل. إنّه يمتلك ذخيرة علميّة تجمع بين الكميّـة والكيفيّة والمادّة والأسلوب والصفات المكتسبة نتيجة العمل الـدائب لتحقيقها (تحقيق الذخيرة العلمية) ممّا أهّله لمعرفة الطبيعة والتحرّر من قيودها واستغلال مواردها فساعده ذلك على التدرّج في معرفة الطبيعة الإنسانيّة والعلاقات البشريّة وعلى تقدير المشاكل التي تجابهه بإعادتها إلى جذورها وتبيُّن نتائجها وتمييز الهام من التافه فيها؛ كما ساعده على تحديد الأسس التي يجب أن يتَّخذها أساسـاً لأحكامه والغايات التي يجب أن يستهدفها وعلى تصنيف هذه القيم والغايات وترتيبها. . . .

لقد أحرز إنسان اليوم تقدّماً هائلاً في ميادين التحرّر؛ لكنّ أبرز مظاهر هذا التقدّم حصل في ميدان التحرّر من الطبيعة وبدرجة أقل في ميدان التحرّر

من البيئة الاجتماعيّة، بينما لا يزال أمامه طريقٌ طويلٌ وشاقٌّ جدّاً لإحراز تقدّمٍ مماثل في ميدان تحرير الذات من الأهواء الشخصيّة ومن الأنانيّة مع أن هذا المظهر من التحرّر هو أسمى المظاهر لكنّه أصعبها منالاً. فهو الشرط الألزم لصحّة أي نوعٍ من التحرّر كما أنّه الغاية القصوى التي على كل جهد إنساني أن يستهدفها.

باختصار نقول: إن مجموع الإنتاجات الأصيلة، البشريّة الجوهر والمضمون، المتنوّعة بتنوّع نظراتها وباختلاف تحقيقاتها للقيم ساهمت في بلورة إنسانيّة الكائن البشري وفي إدراك تاريخيّته ووعيه؛ وهذا مبدأ أكّدناه مراراً في سياق دراستنا، ذلك لاعتقادنا أن الإنسان التاريخي ليس وليد عوامل خارجيّة محتّمة (كالقدر أو القوى الغيبية المتسلّطة. . .) أو عوامل طبيعية أو جغرافيّة ثابتة، كما أنه ليس نتاج ميزات جنسية أو عرقية غالبة على فعل إرادته الواعية وجهده الاكتسابي. صحيح أن لهذه العوامل الطبيعية والبيئية والإرثية أثرها الذي لا يُنكَر خصوصاً في مراحل تحضّره الأولى، لكن أقوى العوامل في بناء شخصيّته التاريخيّة تظل العوامل الإرادية الفعلية، أي عزم هذا الإنسان على الإنجاز والاكتساب وجدّه في سبيل تحقيق ذلك.

هنا، ينطبق رأي أرنولد توينبي عن نشوء الحضارة ونموّها القائل إن الدافع الأساسي يكمن في ثورة المجتمع على تبيّن التحدّيات التي تجبهه سواء من محيطه الطبيعي أو من بيئته الاجتماعيّة أو من داخل ذاته وعلى الردّ على هذه التحدّيات؛ ينطبق هذا القول على الفرد، كما على الحضارة: إنّه (أي الفرد) يشكّل الدعامة الأساسيّة لكل مجتمع وحضارة. فالمجتمع الذي لا يكتسب أفراده هذه القدرة يظل في مستوى الحياة البدائية (مثلاً، الفرد في المجتمعات البدائية كان يذوب في مجتمعه ويتميّز بانعدام القدرة، عنده، على وعي ذاته. . .)؛ والمجتمع الذي يخسر هذه القدرة بعد امتلاكها ينحدر إلى دركات الجمود والانحطاط. وحده المجتمع الناشط الدينامي الفعّال مولّد الحركة الحضارية ومنمّيها هو الذي يعي التحدّيات ويرد عليها؛ فهو كلّما وعى

التحدّيات وردّ عليها أثارت ردوده تحدّيات جديدة يحاول الردّ عليها، وهكذا دواليك. . . .

هذا التفاعل بين التحدّي والردّ الواعي عليه يشكّل مفتاح التاريخ الإنساني الدافع دائماً للغنى والعطاء والتفاعل الحيّ بين الإنسان ومحيطه (الطبيعي والاجتماعي) من جهة وبين الإنسان وذاته من جهة أخرى.

هذه هي، إذاً، الدعائم التي يرتكز عليها التاريخ كعلم: صحّة وعي الإنسان وإدراك قدرته على توليد الحضارة وانمائها وسعيه الدائم والدائب في سبيل ذلك. وما حضارته تلك سوى تعبير عن قيم حفظها ونمّاها؛ وهذه القيم هي إنسانيّة بكل معانيها نظراً لاتّصالها بالحياة الإنسانيّة ذاتها لا بالمنتجات الماديّة التي تحصل نتيجة إجهاد الفكر الإنساني وإعمال العقل والتي لا تشكّل، بحد ذاتها، سوى وسائل ضرورية لتحضّر حياة الفرد وتقدّمها ورفع مستوى عيشه. . . من جهة، ونظراً لقدرتها على ربط المجموعات البشريّة بعضها ببعض إذ أن المنتجات البشريّة الخالدة هي التي لا تنحصر في الأقوام الذين نشأت عنهم بل تتعدّاهم إلى سواهم لأنها تعبّر عن حاجات ونزعات بشريّة أصيلة تخاطب الإنسان من حيث هو إنسان (حيثما ومتى كان، أي عبر الزمان والمكان).

يُضاف إلى ضرورة وعي الإنسان وإدراك قدرته على توليد الحضارة، كدعائم أساسيّة لعلميّة التاريخ، الأسلوب والصفات التي سبق ذكرها والتي تشكّل ضرورة علميّة من شأنها بلورة الجهد التأريخي وتمتين قدرته على التغيير بحيث يتمكّن من بلوغ الغاية التي يهدف لتحقيقها. لذلك، لا بدّ من أن تتوفّر لمن يقوم بهذا الجهد (للمؤرّخ) التقنيّة التي تمكّنه من عدم الانحراف عن الغاية التي رسمها لنفسه وعن ضبط سيرها وانتظامها وتحقيق أوفر النتائج بأيسر جهد وأقصر وقت لأن العلم، بمعناه الأصيل والشامل، يفرض التزاماً بأسلوب وصناعة technique كما يتطلّب التزاماً بغاية.

هذا الالتزام المزدوج هو الذي أدّى إلى رقيّ العلوم وتوافر نتائجها وتعاظم

أثرها. والتاريخ يحتاج إلى هذا الالتزام المزدوج مثل سائر العلوم، إن لم يكن أكثر حاجة إليها نظراً لاتّساع موضوعه وشموليته: فهو يشمل الإنسان بمختلف قدراته وإمكانيّاته كما يشمل مختلف النتائج التي توصّل إليها عقل هذا الإنسان الساعي والجادّ دائماً وأبداً في تحسين أوضاعه...

يُستنتَج ممّا سبق ذكره أن التاريخ علمٌ يسعى لإدراك الإنسان الحيّ، الناشط؛ فمحوره ولبّه الأساسيّان هما الإنسان (لا تاريخ بدون إنسان)؛ لكن هذا الإنسان يتميّز، بادىء ذي بدء، بشخصيّة فرديّة تميّزه عن غيره من الناس (لقد ركّزنا مطوّلاً على فرادة الشخص إن من حيث تركيبه البيولوجي أم من حيث تفاعله مع محيطه الطبيعي والاجتماعي).

هذه الشخصيّة، المكوَّنة بفضل تداخل وتفاعل وتكامل عدد من الأبعاد والعوامل، تشكّل بحدّ ذاتها عماد المجتمع الذي يشكّل الإطار الحي الضروري لبلورة الشخصيّة الفرديّة.

ثم إن المجتمع والفرد هما متمّمان أحدهما للآخر وليسا ضدّين، كما سبق أن قلنا، ويستحيل تخيّل وجود الواحد منهما بشكلٍ مستقلٍ عن الآخر إذ لا يكتسب الفرد إنسانيّته خارج إطار المجتمع الذي ينمو ويترعرع ضمنه ولا يتشكّل المجتمع بمعزل عن الأفراد....

ولقد سبق التشديد على كون التاريخ ينصبّ على دراسة التراث الحضاري البشري بمجموعه أي على التراث الذي يتوجّه إلى الإنسان في أي زمان ومكان؛ إذا صدق هذا على التراث الكامل فأحرى به أن يصدق على ذلك الرافد من روافده الذي يُفترَض به أن يُعبِّر أصدق تعبير عن النفس الإنسانيّة وما يختلج فيها من مشاعر وأحاسيس، ونعني به الشخصيّة الفرديّة.

فالشخص، بأحاسيسه الإنسانيّة والمحاولات الجادّة التي يقوم بها لاختبار إنسانيّته وتحقيقها عبر الجهد الواعي الذي يبذله لتأكيد شخصيّته الخاصّة به وإظهار مدى ما تجسّده هذه الشخصيّة من قدرات عقليّة وقيم أخلاقيّة وفنية وأدبية...، تشكّل، بنظرنا، لبّ المقاييس التاريخيّة وأهم محكّات التاريخ

العلميّة. والواقع أن إبداع مختلف أنواع المنتجات ونشرها وتعميمها وإقامة النظم التي تكفل تنميتها وتوزيع خيراتها وما إلى ذلك من مميّزات التحضّر التي تتناول الأبحاث التاريخية بالدرس والتحليل، هو، قبل كل شيء، أثر الجهد الذي بذله فردٌ معيّن أو مجموعة من أفراد المجتمع.

سبق أن بيّنا دور النخبة في صنع التاريخ ولا لزوم لتكرار ما سبق ذكره؛ إنّما ينبغي التذكير هنا بأهميّة حياة الشخص في هذا المضمار نظراً لكون أبلغ المظاهر التي يتناولها التاريخ بالدرس والتحليل يتجلّى في حياة الفرد وحياة أمثاله من الناس بما تضم من مطامح وآمال ومن معتقدات واهتمامات وتصرّفات...؛ وبمعنى آخر بمجموع عناصر شخصيّتهم المترابطة والمتفاعلة داخل الفرد وما بين مختلف الأفراد، خاصّة وأن تصوير الشخصيّة العامّة التي يتّصف بها أبناء حضارة معيّنة وتقدير القيَم التي تتجلّى بها، يُعتبَر من أهم المقاييس التاريخيّة وأجلّها.

فضلاً عن ذلك، يتناول التاريخ الحياة في صيرورتها لأن موضوعه ليس جامداً ثابتاً بل هو الأحداث البشريّة التي هي، بحدّ ذاتها، تغيّر وتبدّل دائمان.

ما الصيرورة؟

٣ ـ الصيرورة **Le devenir**

حياة الإنسان صيرورة حيّة وتفاعل مستمرّ. لكن من غير الممكن إدراك هذه الحقيقة دون النفاذ إلى أعماقها قصد تلمّس العوامل الفاعلة فيها؛ نقول العوامل وليس العامل لأنّنا نؤمن، كما بيّنا مراراً وتكراراً، بتعدّد وتنوّع عناصر الحياة البشريّة وبتفاعل هذه العناصر في تكوينها. إضافةً إلى ذلك نقول، إن إهمال بعض هذه العناصر يشكّل تبسيطاً يُخِلّ بمحتوى الحياة ويسلبها مضمونها الذي لا يتم إلاّ بتفاعل وتكامل مختلف العناصر المكوِّنة لها.

لقد سبق أن درسنا، في سياق كتابنا هذا، مختلف هذه العناصر وتبيّنا تنوّعها واختلافها فرأينا، أن هناك عوامل تنشأ عن محيط الإنسان الطبيعي

وعوامل أخر تصدر عن طبيعته الإنسانيّة ذاتها وغيرها يعود للتفاعل القائم في مجتمعه وبين مجتمعه والمجتمعات الأخرى. كما تبيّنا، أيضاً، تأثير هذه العناصر وتأثّرها بعضها ببعض بحيث تكون فاعلة ومنفعلة في آن معاً.

وممّا لا شكّ فيه أن بعض هذه العوامل يكون أفعل وأبلغ أثراً في أحيان معيّنة بينها تكون عوامل أخرى هي الأشد فاعليّة وأثراً في نواحي أخرى تبعاً للظروف والأحوال التي يمر بها الفرد والمجتمع؛ ومهمّة التاريخ الأساسية تنصب على دراسة هذه العوامل وتصنيفها وتبيُّن أثر كلٍّ منها، ومن ثمّ اتّجاه هذا الأثر: أيمتد ويتكامل خلال المراحل التاريخية المتعدّدة المتعاقبة فيشكّل ثابتةً معيّنة constante (كما قيل مثلاً بالنسبة لأثر العوامل الطبيعية وغيرها) أم يتّخذ اتّجاهات متعدّدة تختلف وتتباعد وتتناقض (كما قيل مثلاً بالنسبة لأثر العوامل المكتسبة مثل: اللغة وغيرها...)؟

في الحقيقة، يتطلّب القيام بهذه المهمّة فهماً صحيحاً لطبيعة هذه العوامل ولا يتم هذا الفهم دون الاستعانة بجهود مختلف ميادين العلم (الطبيعيّة منها والاجتماعيّة).

ثم إن الكشف عن هذه العوامل والتمييز بين ما يحفز منها إلى التقدّم والتحرّر وما يؤدّي إلى التأخّر يتم بفضل السعي الذي يقوم به المؤرّخ لتفهّم الماضي على حقيقته ممّا يُلقي ضوءاً على الحاضر ويمهّد سبيل الفكر والعمل للمستقبل. بذلك، يصبح التفكير التاريخي حيّاً فاعلاً إذ لا يكتفي بفهم ظواهر الأشياء بل يحاول النفاذ إلى بواطن الأحداث الماضية كي ينفذ إلى مضمونها الإنساني ويرى ما في هذا «المضمون من غنى وتعقّد وترابط صلات وما يجيش به من حركة وما يتّصف به من صيرورة، ثم يسعى إلى الوقوف على أسرار هذه الصيرورة من حيث اتّجاهها ومصيرها والعوامل الدافعة لها ومدى ما تتضمّنه من تراكم وتقدّم ومن وحدة وتكامل» (ق. زريق، «نحن والتاريخ»، سبق ذكره، ص ١٢٨).

ولكي يكون التفكير التاريخي حيّاً فاعلاً، على المؤرّخ وعي تاريخيّته:

فهو، كفرد، وجهٌ من وجوه الحياة القائمة في عصره، ولا بدّ له من أن يتأثّر بالمناخ الطبيعي والاجتماعي الذي يعيش ضمنه: من نظم اجتماعيّة وعلاقات سائدة وعوامل متفاعلة في تكوينها ومشاكل يواجهها الفرد والمجتمع لا بل الإنسانية بمجملها. فالإنسان، كما سبق أن ذكرنا، هو وليد للأحوال والظروف التي تكتنف وجوده ونتيجة تداخل مختلف العوامل الفاعلة فيها (في الأحوال) بمقدار ما هو وليد التفاعل القائم بين هذه العوامل وبين مختلف العناصر المكوِّنة لشخصيّته الفرديّة.

بمعنى آخر نقول، إنّه (أي الإنسان) وإن تأثّر بمحيطه (الطبيعي والاجتماعي) فهو يؤثّر فيه نظراً لكونه الكائن الوحيد، من بين كل الكائنات الحيّة، القادر على مجابهة البيئة التي يترعرع ضمنها، ومن ثمّ التأثير فيها: فهو يتميّز بشخصيّة يلعب البعد التاريخي دوراً هامّاً في تكوينها: ثمّ إن تاريخيّته تشكّل وجهاً هامّاً من وجوه كيانه الإنساني.

بالتاريخيّة نعني ارتباط ماضي الإنسان•بحاضره ومستقبله ولعلّ «حاضريّته» و«مستقبليّته» هما، كما سبق أن قلنا، أشدّ تعبيراً عن إنسانيّته وأقوى أثراً في مجهوده الواعي وفي حياته؛ صحيح أن الحنين إلى الماضي يتملّك هذا الإنسان، إنّما من خلال انشغاله بالحاضر وتوقّعه لمستقبله؛ إنّ حيويّته وفعاليّته تكمنان، أساساً، في القلق الذي يساوره والاهتمام الذي يشغله: القلق من المشاكل التي تواجهه خلال مجرى حياته الحاضرة والتي تدفعه للتفكير بالطريقة التي عليه اتّباعها كي يتمكّن من تأمين حاجاته الحاليّة المتعدّدة (المادّية والفكريّة والروحيّة) والقلق ممّا يخبّئه له الغد ومن المصير المجهول الذي ينتظره والذي يدفعه لتحدّي الظروف التي تكتنفه برسم الأطر العامّة التي من شأنها تطويع الطبيعة ودفع عواديها المستقبليّة.

تجدر الإشارة، هنا، لواقع هام يكمن في الضرورة التي تحتّم على الفرد بذل مجهود دائم ومستمر وعدم الاكتفاء بما توصّل إليه لأن الاكتفاء والاقتناع يشكّلان، بحد ذاتهما، تخلّفاً وارتداداً إلى الوراء بدلاً من التطوّر والتقدّم إلى الأمام. فالحياة، كما سبق أن قلنا، صيرورة دائمة وتفاعل مستمر ومن يقف

وسط مجراها يفرض على نفسه الجمود والتخلّف نظراً لكون سير الركب التقدّمي لا يسمح قط بالتوقّف والاكتفاء.

والفرد كالمجتمع، كلاهما يتعرّضان للموت المعنوي وللتخلّف والارتداد إذا ما توقّفا عن بذل الجهود ومتابعة الجدّ ومواصلة السّير. فالاكتفاء هو دائماً بداية الانكفاء ومقدّمة لتسلّط العوامل الرجعيّة ولبروز القوى البدائيّة التي تظل متيقّظة في أعماق لاوعي الإنسان ومتأهّبة دائماً للظهور والانقضاض على الشخصيّة (فرديّةً كانت أم جماعيّة) في أي وقت يعتريها ضعفٌ أو انحلال.

ولفهم أسرار الصيرورة الإنسانية، لا بدّ من التوقّف قليلاً عند بعض الخطوط العريضة المميّزة لنمو الكائن البشري: ينطلق الطفل، لدى ولادته، من تبعيّة كاملة dépendance totale بالنسبة للمحيط الذي يتلقّاه بالعناية والتربية. ثم تتضاءل هذه التبعيّة، تدريجيّاً، بفضل الجهود الجبّارة المزدوجة الاتّجاه: الجهود التي يبذلها المحيط العائلي (الأم ومن ثمّ الأب بشكلٍ خاص) بهدف توفير المناخ الملائم لبلورة مختلف القابليّات والقدرات الكامنة عند الطفل من جهة، والجهود التي يبذلها هذا الأخير (الطفل) كاستجابة للجهود العائليّة ممّا يمكّنه من التطوّر والنمو (بيو - فيزيولوجيّاً، نفسيّاً، عاطفيّاً، عقليّاً، ذهنيّاً، اجتماعيّاً - ثقافيّاً، أخلاقيّاً، . . .) التدريجيّين حتى يتوصّل إلى تحقيق الاستقلاليّة l'autonomie، الهدف الأسمى الذي يصبو لتحقيقه نمو كل كائن بشري.

لا يُفهمنّ من هذا التبسيط أنّ شعور الإنسان التامّ بشخصيّته، أي تحقيقه لاستقلاليّته، هو سهل المنال بل، على العكس من ذلك، لا تصبح الشخصيّة ذاتاً محقّقة الوجود بالفعل إلاّ بعد خوض الطفل البشري معركة الحياة الشاقّة، الطويلة الأمد والمتعرّجة الجوانب فيجتاز، خلالها، مختلف مراحل النمو المتنوّعة والمتعاقبة بحيث تشكّل المرحلة السابقة ركيزةً ومرجعاً أساسيّاً essor et référence de base élémentaires للمرحلة اللاحقة وهكذا دواليك. . .؛ ومع ذلك، من الممكن أن لا تحقّق الشخصيّة ذاتها: كثيرون هم الأفراد الذين بلغوا سن الرشد زمنيّاً لكن دون أن يحقّقوا النضج والتكامل المتلائمين مع بلوغ هذه السن. . . .

يشكّل نمو الشخصيّة وتطوّرها، بحد ذاتها، عمليّة معقّدة جدّاً نظراً لوفرة العناصر التي تكوّنها (أي الشخصيّة). لكن هذه العناصر، بالرغم من تعدّدها وتنوّعها تبقى، كما سبقت الإشارة، موحّدة ضمن إطار الذات الشخصيّة لأن النفس أو بالأحرى الحياة النفسيّة «ليست مركّبة من أجزاءٍ فردة ولا هي سلسلة منظّمة من حالات جزئيّة ملتصق بعضها ببعض بغراء خارجي، وإنّما هي كتلة روحانيّة، لا نستطيع أن نتبيّن أطرافها ولا أن نطّلع على أجزائها بوضوح تام. قد تزداد هذه الحياة وضوحاً بالتحليل فيكشف الباحث فيها عدداً غير متناهٍ من الألوان، إلاّ أنّها مشتبكة، يتقدّم فيها الحسّي المركّب على البسيط المجرّد» (ج. صليبا، سبق ذكره، ص ١٤٤ - ١٤٥).

وهذا ما يدعو إلى تغيّر الحياة النفسيّة من حال إلى حال تبعاً لتطوّر مختلف عناصر الشخصيّة الذي يميّز انتقال الفرد، أثناء نموّه، من مرحلة إلى مرحلة. ثم إنّ انتقال الحياة النفسيّة من حال إلى حال يساعد على بلورتها وازدياد وضوحها كحقيقة واحدة متشعّبة الوجوه.

أمّا عناصر الشخصيّة فهي متعدّدة سنذكر بعضها:

- الإحساسات أو الأساس العضوي: سبق أن بيّنا فعاليّة الطبيعة البيو- فيزيولوجيّة وأثرها الهام في تكوين شخصيّة الفرد؛ وممّا لا شكّ فيه أن فكرة الشخصيّة مبنيّة على تصوّر الإنسان لجسده أي على الإحساسات (إحساس البصر، الإحساس العضلي، الحس المشترك وما يشتمل عليه من مختلف الإحساسات العضوية المسمّاة «الحساسية العامة»). يشكّل الجسد في الواقع وحدة عضويّة، لأن الجهاز العصبي ينظّم انطباعاته؛ وهذه الوحدة العضويّة تكوّن الأساس الذي تُبنى عليه وحدة الشخصية، فإذا فقد الجهاز العصبي وحدته عند بعض الأفراد فَقَد هؤلاء شعورهم الواضح بشخصيتهم، لذا كانت وحدة الشخصية تابعة لمركزيّة الجهاز العصبي (عدد كبير من الأمراض يعود، أساساً، لاختلال شعور وإحساس الأفراد بجسدهم).

- الذكريات أو تصوّر الماضي: الذكريات هي من عناصر الشخصيّة

الرئيسيّة إذ لولا الذاكرة لما كان للإنسان عقل ولا شخصيّة ولا شعور؛ فالإنسان يعيش بالماضي كما يعيش بالحاضر والمستقبل. من هنا القول السائد «الحاضر مثقل بالماضي»؛ فلكل فرد تاريخ يسطّره بنفسه خلال مجرى حياته. وهذا التاريخ يميّز شخصيّة الفرد عن شخصيّة سواه من الأفراد (عددٌ كبير من الأمراض يعود، أساساً، لإصابة الذاكرة أو تلفها بحيث تشكّل هذه الإصابة خللاً في وحدة الشخصية وتوازنها).

ـ تصوّر الحاضر أو العامل الاجتماعي ـ الثقافي: للعامل الاجتماعي - الثقافي أثرٌ كبيرٌ في تكوين الشخصيّة لأن الفرد، كما سبق أن قلنا، لا يحقّق إنسانيّته خارج إطار المجتمع. ثم إن المرء لا يفكّر بنفسه فحسب بل يفكّر، أيضاً، بأسرته ومهنته ووطنه واسمه وشهرته وثقة الناس به وثقته بالناس ونمط معيشته وأصدقائه ومركزه الاجتماعي..؛ فهو لا يعيش منفرداً بل يعيش في وسط اجتماعي ينظّم فيه نشاطه ويوحّد فيه بين وسائله وغاياته. وكلّما كان الوسط الاجتماعي أوسع وأرقى كلما كانت الإمكانيّات المتوفّرة لإغناء وإنماء الشخصيّة الفرديّة أوفر: لقد كان الإنسان البدائي مصهوراً في البيئة ولم يكن له حرّية فكريّة ولا حرّية فرديّة؛ لكن مع تقدّم المجتمع وازدياد الكثافة السكّانيّة الذي تطلّب ازدياداً في تقسيم الأعمال والمهمّات والمسؤوليّات، تباين الأفراد ونما شعورهم بشخصيّاتهم المستقلّة.

وللحياة العائليّة في البيت أثرٌ بالغ الفعالية في نمو شخصيّة الطفل: فعلاقته بأبويه وأخوته... تؤدّي إلى اتّصافه بصفات خاصّة تصحبه حتّى الكبر؛ وكذلك، لحياته في المدرسة أثرٌ عميقٌ في شخصيّته، خصوصاً أنّها تشكّل عالماً جديداً يختلف عن عالم الأسرة وإن تكامل معه، ففيها يعيش الطفل أولى خطواته الاجتماعية نظراً لكونه يلتقي بأندادٍ له يقاسمونه اهتمام المربّي ـ المدرّس بحيث لم يعد هو وحده محور الاهتمام كما كان الحال في البيت: من هؤلاء الأنداد من هم أكثر منه ذكاءً وأقوى جسداً وأرجح تفكيراً ومنهم من هو أقل نشاطاً منه وأضعف علماً... وهو يدخل معهم بعلاقة تبارٍ وتنافس يخرج منها إمّا غالباً وإمّا مغلوباً... وكل ذلك يؤثّر في تكوين شخصيّته.

ثم إن اجتماعيّة الطفل أو بالأحرى نموّه الاجتماعي يتطلّب، شأنه شأن نمو مختلف قدراته وعوامل نموّه، اجتياز مراحل متعدّدة ومتنوّعة كي يتبلور، تدريجياً، بالتفاعل والتكامل مع باقي مظاهر النمو.

ـ تصوّر المستقبل: يعيش الإنسان في المستقبل كما يعيش في الماضي؛ فهو يتّخذ مثالاً أعلى لحياته يصبو لتحقيقه، لكنّ إمكانيّات هذا التحقيق تخضع، إلى حدّ كبير، لمميّزات نموّه خلال مختلف المراحل التي يمرّ بها: فبعد سيطرة مبدأ اللذّة على عالم الطفل الذهني خلال مراحل الطفولة الأولى (حيث يعيش الطفل نَفْسَه كمحور للكون: المحوريّة حول الذات égocentrisme complet حسب التعبير البياجي)، يبدأ مبدأ الواقع بالتغلغل، تدريجياً، في حياة الطفل بمعنى أنّه يدرك أهميّة العالم الخارجي وضرورة التقيُّد به... ممّا يؤثّر على نظرته للأشياء ويضطرّه لتبديل الواقع بحسب أحلامه وإرادته أو تعديل أحلامه وإرادته بحسب الإمكانيّات التي يوفّرها له واقعه....

يكفي، في الواقع، ملاحظة تغيير نظرة الإنسان بالنسبة للمثل العليا التي يصبو لتحقيقها كي ندرك حسّياً أهميّة هذا الأمر: فالإنسان في طور المراهقة وفي مقتبل العمر يظن أن كل شيء ممكنٌ لجهله المصاعب التي يمكن أن تواجهه بها الحياة، لذا تتّسم أحلامه بالمثاليّة والتخيّل أكثر منها بالواقعيّة، فيريد مثلاً أن يكون إنساناً عظيماً (إمّا قائداً كبيراً أو عالِماً يُغيِّر مجرى الحياة أو شاعراً فذّاً، أو مخترعاً عظيماً...)؛ ثم، مع مرور الأيّام والأعوام، يجد نفسه عاجزاً عن تحقيق جميع أحلامه فيصب اهتمامه على واحدٍ منها يقتنع بتحقيقه...، لكنّه يعود، بعد أن تُثقِل الأيّام كاهله فيدرك استحالة تحقيق الحلم كما تصوّره، فيُقبل على مهنته محاولاً النبوغ فيها...، ثم تدركه الشيخوخة وهو لا يزال في منتصف الطريق، لم يصبح شيئاً ممّا توهّم تحقيقه في عزّ شبابه... فيصبّ إذ ذاك اهتمامه على عائلته، على أولاده بشكلٍ خاص، ويعلّل نفسه بالأمل والرّجاء.

وهكذا يعيش المسنّ في المستقبل كما يعيش في الماضي، يُعبِّر المثل السائر أدّق تعبير عن هذه الحالة: في مرحلة المراهقة، يودّ الإنسان تغيير العالم؛ وفي

مرحلة البلوغ يكتفي بتغيير مجتمعه. أمّا في المراحل التي تليها فهو يكتفي، أوّلاً، بتغيير نفسه وتحقيق ذاته لكنّه إذا عجز عن ذلك، يحاول تحقيق ما يصبو إليه من خلال أولاده. . . .

لا يُفهَمنّ من كلامنا هذا أن كل أحلام الناس تؤول إلى هذا المصير؛ فنحن مقتنعون تماماً، وقد عبّرنا مراراً وتكراراً عن اقتناعنا ذاك، بأن الأحلام والمطامح تشكّل، إجمالاً، الطريق المؤدّي إلى بلوغ العظمة. . . . لكن، ما قصدنا يكمن في القول إن: هذه المثاليّة في الأحلام تميّز، مبدئيّاً، نمو كل إنسان ولا يصبح كل إنسان فرداً عظيماً قادراً على تحقيق أمانيه وأحلامه هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فإنّنا نعني أن إمكانيّة تحقيق الأحلام تعتمد على توافر عوامل متعدّدة ومتنوّعة، منها ما يعود إلى الصّفات التي تتحلّى بها شخصيّة هذا الفرد أو ذاك من قدرات وقابليّات خاصّة وقوّة عزيمة وإرادة صلبة وقدرة على احتمال الآلام وعزم على تجاوز الصعوبات و. . . ، ومنها ما يعود للظروف المتوفّرة ولنوع الأحلام وقربها أو بعدها عن إمكانيّة التنفيذ والتحقيق. . . .

إلى جانب هذه المداميك الأساسيّة في تكوين الشخصيّة هناك عناصر أخرى ترتبط بها حيناً وتنبثق عنها أحياناً مثل: القدرات العقليّة والذهنيّة والعاطفيّة والأخلاقيّة و. . .

لكن، يمكن القول بوجود ثلاثة عوامل أساسية في تكوين الشخصيّة الفرديّة وهي: العامل الحيوي ويشمل التكوين البيولوجي والوظائفيّة الفيزيولوجيّة ومجموع الإحساسات الجسديّة. . .

العامل النفسي ويشمل الجهاز: النفسي (من «أنا» Moi و«أنا» عليا Sur moi وهو Ça ووعي conscient ولا وعي inconscient. . .) والانفعالي (من مشاعر sentiments وعواطف وانفعالات affections et impultions وجنس Sexe) ومجموع الذكريات والتصوّرات والأفكار. . .

العامل الاجتماعي ـ الثقافي ويشمل النمو الاجتماعي والأخلاقي وكل ما يتّصل بالإنسان من آثار الحياة الاجتماعيّة حيث يرتبط الماضي عنده بالحاضر

والمستقبل عبر بلورة قدرته على التأقلم adaptation مع مختلف الظروف البيئية والقوانين والمفروضات التي تشكّل، بحد ذاتها، معايير ثقافية تساعده على تفتيح مغالق نموّه الأخلاقي والاجتماعي ـ الثقافي والبيو ـ فيزيولوجي والنفسي ـ العاطفي، . . . ضمن إطار تاريخيّته الخاصّة به.

لا ننسى ما سبق أن قلنا من أن الشخصيّة واحدة بالرغم من تعدّد عناصرها وتنوّعها إذ تكمن الصفة الأساسيّة المميّزة لها بالوحدة التي تعني أن العوامل التي تتألّف منها الشخصيّة لا ينضاف بعضها إلى بعض بشكلٍ تراكمي بحيث يكون لكل عاملٍ منها استقلالٌ عن غيره، بل تتفاعل وتتداخل وتؤلّف كلاً واحداً لا يتجزّأ. وكل عمل يقوم به الإنسان وكل سلوك يسلكه إنّما يصدر عن مختلف الجوانب العقلية والانفعالية ـ النفسية والبيو ـ فيزيولوجية والاجتماعية ـ الثقافية و. . . أي من نفسه: فالنفس واحدة وإن اختلفت ظواهرها والإنسان يعبّر عنها بقوله «أنا» Moi.

والصفة الثانية للشخصيّة الفرديّة هي الهويّة identité أي احتفاظ الإنسان بوحدة شخصيّته بالرغم وعبر التغيير الذي يطرأ عليها. فالإنسان السوي la personne normale يحسّ دائماً بأنّه هو هو أي أنّه لا يزال اليوم كما كان بالأمس بالرغم من تغيّر أفعاله وأحواله: فهو يعرف نفسه الحاضرة ويعرف أنّه لا يزال ذلك الشخص الذي مرض وأحبّ وشقي وفرح وهو يحفظ في نفسه ذكرى ما فعل وما مرّ به. . . ؛ كما أنّه يُسمّى دائماً بالاسم نفسه ويتحمّل مسؤوليّة ما قام به من أفعال أي يتحمّل تبعة نتائج أفعاله.

ومع ذلك فإن هويّته، كما سبق أن قلنا، ليست مطلقة جامدة بل هي الهويّة الثابتة رُغم التغيير الذي يحصل عنده في كل لحظة نتيجة الخبرات التي يجتازها والتي تُغني شخصيّته المتكاملة (المعرفية والنفسية والاجتماعية و. . .): فالصحّة والمرض وطبيعة العمل الذي يقوم به والبيئة التي يعيش ضمنها والبيت الذي يسكنه والأكل الذي يتغذّى به والملابس التي يرتديها. . . ، كل ذلك يؤثّر في هويّته ويعدّلها إنّما تبقى، مع ذلك، محافظةً على وحدتها بفضل قدرة الإنسان على التأقلم مع مختلف الوضعيّات التي يتميّز بها عن سائر الكائنات الحيّة إذ أن

شخصيّته تتميّز، إلى جانب وجود عناصر ثابتة نسبيّاً يتطلّب تغييرها فترة زمنيّة طويلة، بعناصر بديلة أي عناصر يسهل استبدالها عندما تصبح غير متلائمة مع الوضعيّة situation الحاليّة التي يعيشها الإنسان. . . .

أمّا الصفة الثالثة فهي: التلقائيّة والفاعليّة: لقد سبق أن تكلّمنا مراراً عن فعاليّة الإنسان وقدرته على توسيع نطاق شخصيّته وتجديدها وإغنائها (إمّا بفضل اختباره الشخصي وإمّا بفضل اختبارات الآخرين) دائماً وأبداً عبر تفاعله (فعله وانفعاله، تأثّره وتأثيره) مع البيئة التي يعيش ضمنها، بحيث لا يدري كيف ينبثق هذا التجديد ولا كيف يرجعه إلى أحواله النفسيّة القديمة. . . .

هذه هي الصّفات الرئيسيّة المميّزة للشخصيّة بشكلٍ عام وقد تنطبق، ضمن حدودٍ معيّنة، على المجتمع والحضارة. لكن تجدر الإشارة إلى أن لكل شخصيّة ولكل حضارة تميّز المجتمع الذي تنمو هذه الشخصيّة وتتبلور ضمن إطاره، نسقها (نظامها) الداخلي الخاص بها الذي يربط بين أجزائها وعناصرها ويُسيِّر العناصر والأجزاء المستمدّة من الخارج فيعدّلها كيما تتلاءم مع فرادتها.

هذا الفعل والتعديل، بالنسبة للعوامل المتأتّية من الخارج (من المحيط الطبيعي والاجتماعي) يختلفان قوّةً وعمقاً باختلاف درجة حيويّة الشخصيّة المتأثّرة وباختلاف درجة ترابطها الداخلي وقوّتها بالنسبة لقوّة العوامل الخارجيّة المؤثِّرة وحيويّتها: فإذا كانت الأولى (أي الشخصية) متراخية وضعيفة فإنّها تنفعل وتتأثّر أكثر ممّا تؤثّر وتفعل فتستمدّ، بالتالي، العناصر الخارجية دون تعديل أو بتعديل بسيط لا يتناسب مع المتطلّبات التي يفرضها تحقيق استقلاليّتها وذاتها الإنسانية: كلٌّ منّا يستطيع أن يلمس، في محيطه، الفارق الظاهر في أسلوب الأخذ والتفاعل بين إنسان يتمتّع بشخصيّة مستقلّة يتميّز تأثّره، إجمالاً، بكونه فاعل وحي. . . وآخر يتميّز بشخصيّة متراخية، ضعيفة يبقى تأثّره منفعلاً وسلبياً. . . ومع ذلك، فإنّنا لا نستطيع نفي الحقيقة الأساسيّة التي ينبغي تبيانها هنا وهي أن لكل شخصيّة نمطاً خاصاً يميّزها عن سواها. . . .

يظهر، من كل ما سبق، مقدار الصعوبة التي تعترض تحقيق الشخصيّة المتكاملة لوحدتها الحقيقية ولاستقلاليّتها. في الواقع، يعترض هذا التحقيق صعابٌ جسام كما يقتضي شروطاً قاسية ومطالب جمّة لا يتسنَّى لأيٍّ كان تحقيقها؛ إذا ما نظر الإنسان في نفسه وفي من حوله يدرك، في الحقيقة، مدى المتطلّبات المفروضة عليه (وعلى سواه، كي يستطيع تحقيق وحدة حياته واكتمال شخصيّته: فهو من أسرة معيّنة قد تلقّى دروسه في مدرسةٍ معيّنة، تركت أثرها الخاص فيه؛ وهو يزاول مهنةً من المهن وينتمي إلى مجموعة معيّنة أو نادي أو طائفة أو حزب... وله صداقات وعلاقات وآراء ومعتقدات ونزعات ورغبات وآمال خاصّة به، كما أنّه يتميّز بأنواع ووجوه من السّلوك في حياته الخاصّة والعامّة، ثم إن سلوكه العام يبدو، في معظم الأحيان، غير متلائم ولا منسجم مع آرائه ومعتقداته ومبادئه....

لا شك في أن الأفراد الذين استطاعوا تحقيق الانسجام مع ذاتهم Cohérence avec eux-mêmes كانوا قلّة نظراً لما يتطلّبه هذا الانسجام مع الذات من تلاؤم صحيح بين المسلك والمعتقد، بين المبدأ الذي ينادي به الإنسان والسلوك الواقعي اليومي الذي يقوم به، بين المفاهيم التي كوّنها والتقييم الذي رافق تقديره لقيم هذه المفاهيم.... فتحقيق هذا الانسجام مع الذات يُكسِب الفرد شخصيّة متكاملة تؤلّف كلاًّ متناغماً متوازناً لم يبلغه، كما سبق أن قلنا، سوى قلّة ضئيلة من مواكب البشر المتتابعة على مسرح الوجود والحياة؛ أمّا الأكثريّة الساحقة فقد اختلف تحقيقها لهذا التناغم تبعاً لمدى ما حقّقته من وحدة داخليّة: فمن اكتسب من هذه الأكثريّة نصيباً أوفر من نصيب سواه أتت شخصيّته بهذا المقدار أبين وأفعل وأرفع في مراتب الوجود. وما ينطبق على الأجيال الماضية ينطبق على الأجيال الحاضرة (المعاصرة).

إذا صحّ هذا القول عن الكيان الفردي (أي عن الشخصيّة الفرديّة) فلا بدّ أن يصحّ عن الكيانات الواسعة المدى، المركّبة والمعقّدة المدعوّة «حضارات» والمميِّزة للمجتمعات: فلكل مجتمع وحضارة شخصيّة عامّة تميّزها وقدراً من الوحدة يحقّقانها؛ ولولا ذلك لما استطاع العلماء والمؤرّخون تمييز مختلف

الحضارات بعضها عن بعض. لكن هذه الشخصية لا تكون في أيّة منها كاملة وهي تختلف في مبلغ فعلها وتأثيرها ووضوحها باختلاف طبيعتها من جهة، وباختلاف المرحلة التي تحدث خلالها من جهة أخرى. ثم إن ما تحقّقه من الوحدة والاكتمال قلّما يشمل كل عناصرها أو يبقى ثابتاً في جميع الأوضاع والأحوال. . . .

هذا وترتبط قدرة الإنسان على تحقيق وحدة شخصيّته واكتمالها بمقدار وعيه لتاريخيّته؛ نستطيع، هنا، القول مع إدوارد كارّ (سبق ذكره، ص ١٥٤): إن «الإنسان الحديث يعي ذاته إلى درجة لم يسبق لها مثيل وبالتالي فهو يعي التاريخ. وهو يمعن النظر بحماس في الفجر الذي جاء به آملاً في أن تضيء إشعاعاته الخافتة الظلمة التي يتّجه إليها. وبالعكس، فإن مطامحه وقلقه بالنسبة للطريق المنبسطة أمامه يشحذ همّته ويقوّي من عزمه. إن الماضي والحاضر والمستقبل مترابطة معاً في السلسلة التاريخيّة المتواصلة».

يمكن القول، في الواقع، إن الإمكانيّة المتوفّرة للإنسان الحديث فيما يختص بقدرته على وعي ذاته تتجاوز بكثير تلك التي كانت متوفّرة لإنسان الأجيال السابقة: لقد ارتكز التحوّل في العالم الحديث على تطوّر مفهوم «وعي الإنسان لذاته» الذي بدأ مع ديكارت القائل إن الإنسان هو في الوقت نفسه: الذات والموضوع بالنسبة للتفكير والمراقبة أي أن الإنسان ليس كائناً يستطيع التفكير فحسب بل ويمكنه التفكير بذاته «أنا أفكّر، إذاً أنا موجود» je pense, donc je suis. وبعد ديكارت اكتشف روسّو أعماقاً جديدة لفهم الذات ووعيها لدى الإنسان فأعطى هذا الأخير منحى جديداً للنظر إلى عالم الطبيعة وإلى الحضارة التقليديّة. ثم كانت الثورة الفرنسيّة التي نادت بالمساواة بين الناس فشكّلت حدثاً فريداً دفع الناس لتشكيل أنفسهم بصورة مُتعَمَّدة واعية وللسعي، فيما بعد، لتشكيل أناس آخرين. . . . وقد توصّل الإنسان، في المرحلة التالية، إلى أن يعي بصورة وافية قوّته بإزاء بيئته وإزاء نفسه وحقّه في أن يصنع القوانين التي يعيش في ظلّها.

ثم كان الانتقال من القرن الثامن عشر (الذي شهد بروز معظم بذور

هذا التطوّر) إلى العالم الحديث تدريجياً ومديداً أُصيب، أثناءه، بأنواع الارتداد والانتكاسة وإن شهد بروز عدد من الفلاسفة والعلماء. . . . ثم كان التفكير الماركسي الذي رأى في التاريخ ثلاثة أشياء لا ينفصل بعضها عن بعض وتُشكّل كلاً متماسكاً عقلانياً: حركة الأحداث بالتوافق مع قوانين موضوعيّة (إقتصادية بالدرجة الأولى) والتطوّر الموازي للفكر عبر سياق جدلي، والفعل الموازي، في صورة الصّراع الطّبقي، الذي يوفّق بين نظريّة الثورة وممارستها ويوحّدهما؛ وقد دعا ماركس إلى الفعل الثوري الواعي. . . لكن الأحداث التي جرت خلال القرن التاسع عشر جعلت الانتقال بطيئاً وشبه معدوم.

ومع القرن الحالي استكملت الحقبة التاريخيّة المعاصرة انطلاقتها بحيث لم تعد وظيفة العقل الأولى تكمن في فهم القوانين الموضوعيّة التي تحكم سلوك الإنسان في المجتمع بل تكمن، أساساً، في إعادة تشكيل المجتمع والأفراد الذين يشكّلونه عبر فعلٍ واعٍ. لقد كان للينين دورٌ هامٌّ، خلال هذه الحقبة الزمنيّة، إذ استطاع تغيير منحى النظرة الأيديولوجيّة: فبعد أن كانت الأيديولوجية، بنظر ماركس، تعبيراً سلبيّاً ـ نتاج الوعي الخاطىء لنظام المجتمع الرأسمالي ـ أصبحت، بنظر لينين، حياديّة أو إيجابيّة إذ اعتبرها بمثابة إيمان تزرعه نخبة من القادة الواعين طبقيّاً في عمّال مؤهّلين للوعي الطبقي، وهكذا تطوّر مفهوم الوعي والوظيفة التي ينبغي عليه القيام بها (أصبح الوعي الطبقي وظيفة).

رُبّ معترض على كلامنا حجّته في ذلك أنّنا لم نذكر الحدود المرافقة لمجمل وجهات النظر التي ذكرناها؛ على هذا نجيب بأنّنا لسنا بصدد مناقشة النظريّات التي تتطلّب تطويلاً يخرج عن إطار بحثنا الحالي إذ جلّ ما نبتغيه يكمن في عرض ركائز ومظاهر التحوّل الذي أدّى لقيام وترسيخ مفاهيم العالم الحديث بالنسبة لوعي الإنسان الحديث لذاته. . .

ثم جاء فرويد (مؤسّس مدرسة التحليل النفسي psychanalyse) وجاءت بعده مختلف المدارس النفسية التي انبثقت عن مدرسته أو تأثّرت بها، فكان له الفضل الكبير في توسيع إطار إمكانيّات الإنسان الحديث لوعي ذاته ووعي

الآخرين. . . وذلك بفضل تعميقه لنطاق المعرفة الإنسانية وفهمها عبر كشفه عن الجذور اللاواعية التي تدفع بالسلوك الإنساني نحو تحقيق الوعي والعقلنة: فاللاوعي l'inconscient يشكّل، بنظره، أساس حياة الإنسان النفسيّة حيث تشكّل الظواهر السلوكية الواعية والبادية للعيان مجرّد تعبير عنها (أي عن حياة الإنسان النفسية اللاواعية).

كان ذلك بمثابة توسيع لمجال تطوّر العقل البشري وبمثابة إضافة لقدرة الإنسان على فهم نفسه وعلى فهم الآخرين والبيئة المحيطة به والتحكّم بها. لذا يُعتبَر اكتشاف فرويد إنجازاً تطوّريّاً هامّاً جدّاً نظراً للآفاق الإنسانيّة المتوسّعة التي فتح مجالها بحيث قلب المفاهيم الكلاسيكيّة التي كانت سائدة قبله رأساً على عقب بفضل الاهتمام الذي أولاه للدوافع الخفيّة (اللاواعية) المسيِّرة لسلوك الفرد الظاهري. . . .

يمكن القول، كذلك، إن التقدّم الذي أحرزه علم النفس الحديث، كعلم له أسسه ومنهجيّته العلميّة الخاصة به، ساهم في ازدياد نطاق وعي الإنسان لذاته وذلك بفضل المعرفة التي وفّرها فيما يختص بالميّزات والخصائص المتعدّدة والمتنوّعة بتنوّع مراحل نموّ الكائن البشري وتطوّره. ممّا ساهم في إلقاء الضوء على حقيقة التفاعل القائم بين الإنسان وبيئته بحيث يشكّل انعدام التوازن بينهما أو داخل كلٍّ منهما سبباً من الأسباب الهامّة لنشوء الاضطراب والمرض عند الفرد. وهكذا تغيّرت النظرة اللاإنسانية التي رافقت العصور السابقة فيما يختص بالمريض العقلي والنفسي الذي كان يُعتبَر كائناً شيطانيّاً ينبغي عزله عن المجتمع تفادياً لخطره. . .

فبفضل المعرفة المعمّقة التي وفّرها علم النفس الحديث حول الإنسان وكيفيّة نموّه ومختلف المشاكل التي تعترض طريق نموّه وتطوّره. . . ، أصبح هذا المريض (العقلي والنفسي) يُعتبَر كائناً عاجزاً يحتاج لمساعدة المجتمع المحيط به بتوفير المناخ الملائم لشفائه وليس بعزله من إطاره وتعزيز مرضه واختلال توازنه. هذا الهدف السامي كان، بالواقع، السبب الرئيسي لنشوء مختلف المدارس التي أخذت على عاتقها دراسة الوسائل الكفيلة بتحقيق شفاء الإنسان من مختلف

الاضطرابات والصراعات النفسية التي يعاني منها. . . .

طبعاً، لا يعود فضل التقدّم الذي حقّقه علم النفس في هذا المضمار له وحده بل يعود، أساساً، للتقدّم الذي أحرزته مختلف ميادين العلم الأخرى والذي استفاد علم النفس منه فساعده على تحقيق هذه الوثبة الجبّارة في عالم المعرفة الشاملة والمعمَّقة حول الإنسان؛ لقد سبق أن شدّدنا على ارتباط وجوه العلم بعضها ببعض حيث يستفيد أي نوعٍ من العلم فائدةً جزيلة من الجهود والاكتشافات التي تحقّقها ميادين العلم الأخرى. . لا يتّسع المجال هنا للدخول في تفاصيل كل التطوّرات التي حصلت في مختلف الحقول العلميّة والأدبيّة و. . . والتي من شأنها الكشف عن وجوهٍ أخرى لأسرار الصيرورة الإنسانيّة le devenir humain لنمو الكائن البشري نظراً لتعدّدها وتنوّعها بتنوّع المجالات التي خاض غمارها فكر الإنسان وعقله؛ لذا نكتفي بما أظهرناه من وجوه هذه الصّيرورة. . .

ننهي قولنا في هذا المجال بما بدأناه: حياة الإنسان هي صيرورة حيّة وتفاعل مستمر. ثم إن العوامل الفاعلة فيها هي، بالحقيقة، متعدّدة ومتنوّعة: منها ما استطاع العقل البشري كشفها ومنها ما يزال خفيّاً غامضاً، وما بان له أقلّ ممّا خفي عنه لكنّ عقل الإنسان يسعى دائماً وأبداً للكشف عن مخبّآت الطبيعة الجغرافية والبيئة الاجتماعية وبالأخص طبيعته الإنسانية. هذا هو أحد الوجوه الرئيسيّة المميِّزة لحضارة القرن العشرين.

باختصار نقول: يبدأ التاريخ الإنساني الحديث حين يعمّ الوعي الحقيقي المزيد من الشعوب والأمم وحين تدخل هذه في حيّز الوعي الاجتماعي والسياسي و. . . والذاتي فتمتلك جماعاتها وعيها لذاتها ولكونها كيانات تاريخيّة لها ماضي وحاضر ومستقبل؛ أي، حين تعي أهميّة دورها الإرادي، الفاعل والمُبدِع في التأثير بالبيئة المحيطة بها وبشكلٍ خاصّ في ذاتها وفي التحكّم بنزعاتها الأنانيّة والنرجسيّة والترفّع عنها والتسامي نحو التعاضد والتعاون مع الآخرين.

الخلاصة النهائيّة

لقد حاولنا، في هذا الكتاب، تقصّي العلاقة القائمة بين التاريخ والفرد من مختلف وجوهها فبانت لنا أمور وخفيت عنّا، لا شك، أمور؛ ولعلّ ما خفي بمقدار ما بان ولعلّ بعض ما بان مشوب بالغموض ويحتاج إلى توضيح. فنحن لا ندّعي لهذه الدراسة أن تكون الكلمة الحاسمة في هذا الموضوع، أوّلاً لسعته وتعقّده وثانياً لعدم تناوله من قِبَل العلماء بالبحث العلمي الاختباري ولبعد نتائج مثل هذا البحث عن الاستقرار والثبوت وثالثاً لقصورنا شخصيّاً وقصور أي باحث، مهما بلغت درجة علميّته وموضوعيّته، عن الإحاطة بجميع النتائج وعن متابعة مختلف وقائعها وتفاصيلها.

على أنّه من الضروري، بعد أن شارفنا على نهاية هذا البحث الاستقصائي، العودة إلى الأفكار والآراء الرئيسيّة التي بدت لنا من خلاله قصد استخلاص الصورة الجامعة التي تتكوّن منها وهي صورة تقريبيّة غايتها استجلاء أثر التاريخ بالسيكولوجيا الفرديّة من مختلف جوانبه؛ كما أنّها صورة تقريبيّة قابلة للتعديل على ضوء التجديد العلمي والاختبار المتراكم اللذين يحدُثان بشكلٍ دائم.

سنسرد هذه الأفكار بشيء من التبسيط في هذه الخلاصة مع علمنا بأن تبسيط مثل هذه القضايا المعقّدة بطبيعتها والمتعدّدة الجوانب يقصر عن إيفائها حقّها من البحث إذ لا بدّ من الرجوع إلى مختلف البحوث والمراجع التي تناولتها بالدراسة المفصّلة وإلى حيث نوقِشَت في متن هذا البحث، لكنّنا نأمل بتعويض ما يضيّعه التبسيط عن طريق محاولة الجمع والرّبط والشمول خصوصاً بعد أن نوقِشَت بالتفصيل في متن الكتاب:

يتناول أثر التاريخ، كما سبق أن قلنا، حياة الفرد بأكملها إن من ناحية

فرديّته أم من ناحية اجتماعيّته. وهو ذو وجهين ينتجان عن أثرين متكاملين ومتفاعلين (أثر التاريخ في الفرد وأثر الفرد في التاريخ) بمعنى أنّه من غير الممكن فهم العلاقة القائمة بين التاريخ والسيكولوجيّة الفرديّة دون فهم هذه العلاقة المميّزة القائمة بينهما نظراً لكون الإنسان، بالرغم من تأثّره بالتاريخ، يؤثّر فيه ويكوّنه لأنّه كائنٌ حيّ فاعل يؤثّر ويتأثّر بالواقع. من هنا يُفهم عدم اكتفائه بأن يكون نتيجة التاريخ بل يطمح لأن يكون صانعاً له وتاريخيّة الإنسان ـ الفرد تتضمّن هذين المعنين أي كونه ابن التاريخ وأباً له في وقتٍ واحد.

فالتاريخ، بمعناه العلمي الصحيح، يُساهم في تكوين جوهر الإنسان وثقافته (فرداً ومجموعاً) ويتأثّر به؛ وهذان الأثران يتجلّيان عبر مظاهر متعدّدة لا حصر لها شدّدنا على أهمّها:

لقد بدت البيئة الطبيعيّة (الجغرافيّة) والوراثة الإنسانيّة، وهي عناصر جوهريّة في تكوين التاريخ، ذات أثر مباشر وهامّ في تكوين الإنسان ـ الفرد إن من ناحية تشكيل الطبائع النفسيّة الثابتة نسبيّاً أم من ناحية المساهمة في إجلاء أهميّة الطبائع المتبدّلة والمتغيّرة عنده: فهو، أي الإنسان ـ الفرد، يشابه غيره من الأفراد بفضل صفاتٍ إنسانية شاملة تميّزه عن غيره من الكائنات الحيّة الأخرى. إنّه يتكوّن، بالواقع، انطلاقاً من تركيب بيولوجي بدائي يتميّز بانتقال النواة الخلويّة البشريّة المسؤولة عن تكوينه البيو ـ فيزيولوجي (الجسدي) كما أنّه يتميّز بجهاز عصبي مسؤول عن تنظيم انطباعاته وقدراته (من إحساسات وأساس عضوي ووظائف فيزيولوجيّة...)، وبالتالي عن تأمين وحدته العضوية التي تشكّل، بدورها، الأساس الذي تُبنى عليه وحدة شخصيّته الفرديّة.

ثم إنّه (الإنسان ـ الفرد) يتميّز بنزعات إنسانيّة شاملة (كالألم والفرح والكره والحب والإيمان والشك والطموح والاكتفاء والسعي والتقاعس...) متماثلة ومتشابهة على اختلاف الأزمنة والأمكنة كما أنّه يتميّز بنظرة إلى الكون أصيلة عند الإنسان، بالرغم من تنوّعها، وبمفهوم للحقائق أسبغ على الشعوب الرائدة طابعها الحضاري المميّز لها... . ثم إنّه يتميّز: بقدرته على التذكّر وتصوّر الماضي المعبّرين، إلى حدّ بعيد، عن عقله وشخصيّته وشعوره، وبقدرته

على تصوّر الحاضر أو بالأحرى العامل الاجتماعي المسؤول، بمقدار كبير، عن تكوين شخصيّة الفرد وإمكانيّته في تحقيق ذاته إذ لا تتحقّق إنسانيّة الفرد خارج إطار المجتمع؛ كما أنّه يتميّز، أيضاً، بقدرة على تصوّر المستقبل بمعنى أن الفرد يتميّز كإنسان بسعيه الدائم لتحقيق مثالٍ أعلى يصبو لتحقيقه في حياته...

هذا التشابه يسّر للبشريّة (بمختلف مجتمعاتها وشعوبها وأممها ...) إمكانيّات الالتقاء بعضها مع بعض عبر الزمان والمكان والتفاهم فيما بينها ممّا مكّنها من التفاعل والتبادل اللذين شكّلا في الواقع نواة التاريخ الأساسيّة وركنه الأصيل.

لكن، إلى جانب هذا التشابه، يتميّز الإنسان ـ الفرد بتخصّص: إن في إرثه البيولوجي، ولقد شدّدنا، في متن هذا الكتاب، على التحوّل الذي يعتري تركيبه الكروموزومي أثناء تشكيله، أو في طبيعة إمكانيّاته وقابليّاته الخاصّة التي تساهم في تعميق خصوصيّته بالنسبة لقدرته على التعلّم والاستفادة من اختباراته ومن اختبارات الغير (الصفات المكتسبة) وبالنسبة لقدرته على صنع تاريخه الخاص الذي يشكّل، بحدّ ذاته، حلقة من حلقات تاريخ البشريّة جمعاء.

ثمّ إنّ تخصّصه الفردي يرتبط، إلى حدّ بعيد، بتخصّص المجتمع المتميّز، هو أيضاً، ببنية اجتماعيّة لها دورها الفعّال في تكوين الفرد الذي يترعرع ضمن إطارها. وهي، أي البنية الاجتماعية structure sociale، تتكوّن بفضل تشكيل مختلف النظم: الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة والدينية والأيديولوجيّة و... المتفاعلةُ والمتكاملة فيما بينها، ممّا يمكّنها من التأثير على الفرد ومساعدته على تكوين قدرته الخاصّة بالتأقلم معها لما لها من أثر في تركيب بنيته وتكوين مفاهيمه العامّة وتعريفه على أنماط السلوك المقبولة ضمن إطارها بفضل تأثير العادات والتقاليد والأعراف والأساطير والأفكار السائدة فيها والمكوّنة، تاريخيّاً، عبر التراكمات التي تتم داخل كل بنية اجتماعيّة.

إنّما، يبقى تخصّص الإنسان ـ الفرد مرتبطاً، بشكلٍ خاص، بوعيه لإمكاناته وللحدود التي ترتسم في طريق سعيه لتحقيق ذاته وكذلك بدرجة

الحريّة الذاتيّة التي يتمتّع بها داخل مجتمعه؛ ولقد شدّدنا، هنا، على واقع هام يكمن في عدم تمتّع مجمل الأفراد بمثل هذه الحرّية وهذا الوعي، بالرغم من أهميّتها القصوى الكامنة في تجسيدهما لوعي النخبة: في الواقع، رأينا سابقاً أن المجتمعات التي فرضت نفسها، تاريخيّاً، بفضل الحضارات التي ميّزتها، قد تقدّمت بفضل قلّة من أبنائها (النخبة) فكرّت وعملت وجهدت لتخطّي القيود والحدود التي تكبّلها قصد ارتياد آفاقٍ جديدة؛ لكن إبداع هذه النخبة لم يتجلَّ إلاّ بفضل الأشخاص المغمورين الذين أمّنوا الأرضيّة Back-ground التي من شأنها بلورة أهميّة الإبداع بفضل استعمالهم له في مجرى حياتهم بحيث يحدث تعديلاً هامّاً يطوّر حياتهم ويدفعها في طريق التقدّم...

يمكن القول، بشكلٍ عام، إن جوهر تطوّر الصّفات البشريّة واختلافها (من فرد لآخر ومن مجتمع لآخر عبر العصور والأمكنة) يوازي بأهميّته جوهر ثباتها واستمراريّتها؛ بمعنى آخر نقول: تكمن المميّزات التاريخيّة للشخصيّة الفرديّة، أساساً، في ثبات صفاتها الإنسانية وفي تغيّرها بآنٍ معاً.

سؤال يطرح نفسه علينا في هذا المضمار: كيف يمكن القول بوجود ميزتين متناقضتين في آنٍ معاً.

الجواب على هذا التساؤل شكّل، بالحقيقة، الهدف الأساسي لبحثنا الحالي؛ كما أنّه شكّل الموضوع المركزي للدراسة التي قمنا بها بهدف تقصّي مختلف المظاهر التي من شأنها بلورة «أثر التاريخ في سيكولوجيّة الفرد» بمختلف وجوهه أي أثر التاريخ في الفرد، أثر الفرد في التاريخ والبعد التاريخي الذي يجمع بين الاثنين:

لقد بحثنا، في الواقع، موضوع الطبائع النفسانيّة الثابتة، الطبائع المتبدّلة والمتغيّرة وقد شدّدنا بصورة خاصّة، على العلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع المتميّزة بعدد من الميزات الأساسية نظراً لأهميّة تكوين الفرد فكانت التالية:

● أثر التاريخ في تركيب البنية الاجتماعية ومفاهيم الجماعات وسلوكها الاجتماعي (تأثير العادات والتقاليد... ذات المنشأ التاريخي عبر التراكمات

المحدَثة زمنياً ومكانياً في تكوين الفرد وبلورة قدرته على التأقلم الاجتماعي adaptation sociale المعتبَرة إجمالاً، المحك المبدئي le critère fondamental للتمييز بين سوائيّة الفرد وعدم سوائيّته sa normalité et sa pathologie.

● أثر التفاعل التاريخي القائم ما بين البيئة الطبيعيّة (أثر الجغرافيا) والبيئة الاجتماعية (أثر النظم والبنى الاجتماعيّة. . .) والوراثة البشريّة من جهة وبين الفرديّة المتميّزة بإمكانات وقابليّات كامنة بالقوّة capacités en puissance من جهة أخرى، في تكوين سيكولوجيّة الفرد وبلورة خصائصه وميزاته.

أمّا العامل الذي يشمل باقي العوامل ويتعدّاها فيكمن في تغلغل التاريخ بشكلٍ عميق في فكر الإنسان وعاطفته ودوافع سلوكه والنفاذ، من ثمّ، إلى جوهره (فرداً ومجموعاً) والغوص في حقيقته ككائن فعّال ومنفعل، مؤثّر ومتأثّر.

باختصار نقول، يكمن أهم أثر للتاريخ في سيكولوجيّة الفرد في كونه أداة تحرير تساعد الفرد على التحرر: من الطبيعة ومن البيئة الاجتماعية ومن الذات وبالأخص من الوهم. . . فيرفع مستواه الكياني والذاتي ويساعده على التحرّر من حدود أنانيّته ونرجسيّته الضيّقة للانطلاق نحو الغير والاتجاه في طريق التعاضد والتعاون مع الآخرين وذلك بفضل الثقافة التأريخيّة التي يوفّرها له والتي تساهم في توسيع اختباره وتعميقه عبر التعلّم من خبراته الشخصيّة وخبرات الآخرين. . . فتساهم بالتالي في بلورة «إنسانيّته».

يُقابل هذه الحقيقة «التاريخ صانع الإنسان» التي تجلّت عبر دراسة أثر التاريخ في الفرد، حقيقة أخرى «الإنسان صانع التاريخ» لا تقلّ عنها أهميّةً وقد تجلّت عبر دراسة مختلف المظاهر التي تُبرِز أثر الفرد وشخصيّته في صنع التاريخ، وأهم هذه المظاهر هي:

● الإنسان ـ الفرد هو أساس كل تاريخ إذ لا يوجد (تاريخ) بدونه.

● يتمثّل الإنسان ـ صانع التاريخ بالعظماء (النخبة) الذين أدّت إبداعاتهم وإنجازاتهم المختلفة والمتنوّعة إلى انتشار مختلف أصناف العلم والمعرفة

التي تشكّل، في الحقيقة، محور التاريخ وعلّة وجوده، وهو يتمثّل، أيضاً، بالإنسان العامل في شتّى القطاعات الحياتية (كقطاع الزراعة وقطاع الصناعة وقطاع التجارة وقطاع العلاقات العامّة و. . .) وبكل إنسان مرّ على مسرح الحياة حتى وإن بدا مغموراً لا تاريخ له. . .

● طبع هذا الإنسان ـ الفرد التاريخ بطابعه الخاص وتلوينه بميوله وانطباعاته وآماله وأمانيه وكيفيّة تفكيره ونوعيّة استنتاجاته. . . نظراً لأثر مزايا المؤرّخ ـ الفرد وصفاته الخاصّة في كتابة التاريخ وصناعته ولأثر ميوله وأهوائه في كتابة هذا التاريخ.

باختصار نقول: تتناول قدرة الإنسان ـ الفرد على صنع التاريخ مجمل المقوّمات التي تميّزه ككائن بشري ونعني بها: تلك التي تدخل في إطار مقوّمات شخصيّته الفرديّة من إمكانات وقابليّات شخصية تمكّنه من سلوك سبيل التقدّم والتطوّر أثناء اجتيازه لمختلف مراحل حياته المتتابعة بفضل قوى العقل والروح التي تتميّز بها والتي تضم، بدورها، مجمل مكوّنات شخصيّته من: نفسيّة وانفعاليّة وبيولوجيّة وفيزيولوجيّة وعقليّة واجتماعيّة وثقافيّة. . . .

كما نعني، أيضاً، تلك التي تدخل في إطار المميّزات التي على المؤرّخ التحلّي بها لدى كتابته للتاريخ والتي تتداخل بدورها، مع قدرات الإنسان الخاصّة واختياره الواعي وحريّة القرارات التي يتّخذها. . . .

نستنتج، ممّا سبق، غنى وتعقّد وتفاعل وتداخل التاريخ والإنسان موضوعَي بحثنا الأساسيَّين إن من حيث مقوِّمات تكوينهما أو من حيث طبيعة وجودهما؛ فكلاهما تطلّب ويتطلّب بحثاً مطوّلاً لا بل بحوثاً متعدّدة ومتنوّعة، كيما نفيه حقّه من البحث نظراً لكون كلٍّ منهما يشكّل، بحدّ ذاته، المحور الأساسي لمجمل ميادين العلم والمعرفة.

لذا، لا نعجب، بعد كل ما أوردناه حول مختلف مظاهر أثر كلٍّ منهما في الآخر، إذا ما قيل إن جوهرهما يكمن، أساساً، في ميزتي «التغيّر» و«الثبات». فالتغيّر والتطوّر ساعدا البشريّة على تحقيق ما حقّقته من إنجازات وكسب

تراكمي أوصلها إلى ما هي عليه الآن ولولاهما لبقيت على بدائيّتها؛ أمّا الثبات النسبي فهو الذي وفّر لها الفرص الضرورية للمحافظة على وحدة شخصيّتها عبر تغيّر الزمان والمكان والأحوال والظروف. . . ولولا هذا الثبات لكان التغيّر الذي أصاب البشريّة عاملاً سلبيّاً يؤدّي إلى تفكّكها وانحلالها وليس عاملاً إيجابيّاً يؤدّي إلى تطوّرها وتقدّمها.

لقد سبق أن شدّدنا على قدرة الشخصيّة الفرديّة في المحافظة على وحدتها بالرغم من تغيّرها وذلك بفضل تميّزها بعناصر تبقى ثابتة خلال فترة طويلة وبعناصر بديلة يسهل استبدالها، عندما يوجد الشخص ضمن وضعيّة situation جديدة تتطلّب منه تأقلماً معها، بعناصر أخرى تكون أكثر تلاؤماً مع الوضعيّة الحاضرة. . .

لكن أهميّة ما قيل حول واقع التناقض السابق ذكره فيما يختص بالصفات البشريّة لا تتجلّى بوضوح إلاّ من خلال «البعد التاريخي» الذي يضفي على الشخصيّة الفرديّة فرادتها وأصالتها والذي من شأنه بلورة كيفيّة ونوعيّة مختلف التفاعلات القائمة بين التاريخ والسيكولوجيا الفرديّة من: تأثير وتأثّر، أخذ وعطاء، تفاعل وتبادل، . . . وبكلمة مختصرة نقول: للكشف عن حقيقة التناقض المميِّز للصفات البشريّة نحتاج لدراسة العامل الذي يجمع بين إطاري «التاريخ» و«السيكولوجيا الفرديّة» ويكشف عن تكاملهما، ألا وهو «البُعد التاريخي».

ويشتمل هذا العامل، أساساً، على عدّة معانٍ يكمن أهمّها في:

- قدرة الكائن البشري على وعي الزمن أي على الاغتناء بالخبرات الشخصيّة التي يمرّ بها خلال مجرى حياته والتي تطبعه بطابعها الخاص، بمعنى أن الإنسان لا يمكن أن يُدرك نفسه متماثلاً تماماً لما كان عليه سابقاً إذ من شأن الوضعيّات والخبرات التي يتعرّض لها إثارة طاقته الفرديّة son énergie potentielle ودفعها إلى النشاط والتفتيش عن مخارج تساعده على تجاوزها (أي تجاوز الوضعيّات والخبرات). ينتج عن ذلك اغتناء رصيده الشخصي بفضل

إعمال فكره وبفضل سعيه إلى إدراك حقائق ثقافيّة جديدة تمكّنه من التغلّب على الصعوبات التي يجبهه بها وجوده ضمن وضعيّات مُستحدَثة ومُستَجدَّة دائماً وأبداً. . . : وإذا اكتفى الإنسان بما لديه من ثقافة شخصيّة يكون قد حكم على نفسه بالجمود الفكري وبالتالي بالأرتداد والموت المعنوي لأن الحياة، كما سبق أن قلنا، سيرٌ متدفّق وتطوّرٌ نحو الأمام لا يقبل التوقّف أو الارتداد. .

ـ عمل التاريخ الفردي ضمن إطار تواريخ فرديّة أخرى وضمن إطار التفاعل الحاصل بين الأشخاص والذي يُسهم في تكوين تاريخ البشريّة جمعاء بحيث يندرج التاريخ الفردي ضمن إطار البُعد الإنساني الشامل للبشريّة.

يوضح عمل التاريخ الفردي وجود البشريّة الفعلي l'existence de l'hu-manité en acte لا وجودها بالقوّة son existence en puissance وذلك بفضل وعي كل فرد من أفراد البشريّة لوجوده وتسطيره الشخصي لوقائع تاريخه الخاص به نظراً لكون شخصيّة الفرد تشكّل تاريخاً خاصّاً ضمن إطار تاريخ أوسع وأشمل هو تاريخ البشريّة بحيث يستحيل فهمها إذا لم توضَع ضمن إطار الحركة التطوريّة للمجتمعات التي هي نفسها انبناءات ذاتيّة خُلِقت خلال تعاقب العصور والأجيال.

لكن تسطير الفرد لتاريخه الخاص يفترض، ضمناً، امتلاكه لحريّة نسبيّة تمكّنه من إدراك ووعي إمكانيّاته والحدود التي يفرضها عليه المحيط الذي يترعرع ضمنه فيُحسِن إذّاك اختيار القرارات التي يُقدِم عليها فلا تتعدّى طموحاته إمكانات التنفيذ عنده ويصبح أسير الأحلام والرؤى الموازي بسلبيّته حالة الجمود والانكفاء. . .

وهذه الحرّية تشكّل، بحدّ ذاتها، حقّاً من حقوق الإنسان وهي في الوقت نفسه، التزام وتحمّل مسؤوليّات وقبول تبعة القرارات التي يتّخذها الفرد؛ وهي (الحريّة) تستلزم، لتحقيقها، بطولة وجهاداً ومعركة وقبولاً لمأساة الحياة وصبراً على آلامها إذ لا يستطيع الفرد تحقيق وجوده المتكامل وتسطير تاريخه وهو مُستعْبَد: إن لذاته ولشهواته وأنانيته أو لأنانيّة الآخرين وشهواتهم.

ثمّ إن دراسة تاريخ البشريّة يستلزم من المؤرّخ دراسة مختلف الأحداث التاريخية في تسلسلها وتتابعها وترابطها المنطقي والمتواصل عبر الأجيال حتى يتمكّن من البحث علميّاً عن السنن والثوابت التاريخيّة قصد الكشف عن الأسباب العميقة المسيّرة لمجرى الأحداث نظراً لترابط المراحل المتعاقبة في التطوّر التاريخي بعضها لبعض ولاستحالة فصل الماضي عن الحاضر والمستقبل.

يتطلّب هذا البحث العلمي صفات علميّة على المؤرّخ أن يتحلّى بها كيما يتمكّن من تحقيق هدفه: من أسلوب علمي يضمن له بلوغ الغاية، وصناعة يتدرّب عليها ويتقيّد بقواعدها ويلتزم بحدودها، ومعرفة شاملة ومعمّقة وصفات عامّة (شعور بالمسؤولية، جدّ ومثابرة، شك ونقد علميّين، حب للحقيقة والتزام بها، نقد للذات ومحاسبتها)، وصفات خلقيّة وصفات تتعلّق بقدرات المؤرّخ وقابليّاته الخاصّة... إلى ما هنالك من خصائص ينبغي توافرها كي يتمكّن المؤرّخ من بلوغ هدفه العلمي المنشود.

ضرورة توفير هذه الخصائص والمتطلّبات تعود لسعة الموضوع وتعقّده وتشابكه وغناه نظراً لكونه يشمل حياة البشريّة بكل القوى الفاعلة فيها وتنوّع العناصر المشتركة في تكوينها ولكونه ينصبّ على دراسة التراث الحضاري البشري الذي يتوجّه إلى الإنسان في أي زمان ومكان.

أمّا المعنى الأهمّ للبعد التاريخي فيكمن في صيرورة الإنسان كفرد وكمجموعة إنسانيّة شاملة وفي تفاعل وتكامل مختلف العوامل والعناصر المكوِّنة للشخصيّة الفرديّة وللشخصيّة العامّة؛ ترتبط هذه الصيرورة بهويّته الثابتة عبر التغيير الذي يطرأ على شخصيّته وبقدرته على المحافظة على وحدة شخصيّته تلك وعلى تكاملها بفضل تجاوزه الصعوبات الجمّة التي تعترض سير هذا التحقيق وبفضل استيفائه للشروط القاسية والمطالب الجمّة التي يفترضها هذا التحقيق الذي يتطلّب، بدروه، وعي الفرد لتاريخيّته.

هكذا، وعلى ضوء ما سبق ذكره حول علاقة التاريخ بالسيكولوجيا

الفرديّة، يمكننا الإجابة بشكلٍ شبه وافٍ وموضوعي على مجمل الأسئلة التي طرحناها في البداية:

بادىء ذي بدء، نوافق الرئيس كنيدي على قوله إن إنسان اليوم يملك القدرة لجعل الجيل البشري أفضل الأجيال في تاريخ العالم أو آخر هذه الأجيال وذلك للتقدّم الذي أحرزه الإنسان في مختلف الجبهات والمجالات: الطبيعيّة والبيئيّة الاجتماعية والذاتيّة ـ الداخليّة والذي لم يعرف ما يوازيه في تاريخ البشريّة المديد؛ إنّما، بقي هذا التقدّم، وللأسف، منقوصاً خصوصاً في ما يتعلّق بالقدرة على معرفة الذات والتحكّم بشهواتها؛ يبرز هذا النقص كسمة مميّزة للمدنيّة المعاصرة. من شأن ذلك القضاء على الإنسان أينما كان وحيثما وُجِد: يكفي لإدراك ذلك معرفة ما تمتلكه الأمم الحاضرة من سلاحٍ فتّاك (كالذرّة وغيرها من الأسلحة الحديثة...) إلى جانب نقصٍ هائل فيما يختص بالقدرة على التحكّم بالأنانيّة والنزعات الشخصيّة التي تمكّن من تحقيق التعاضد والتعاون بين مختلف الأمم والأفراد لصالح البشريّة جمعاء.

يُفهَم من ذلك أهميّة الفرد ووعيه والدور الرئيسي المتوجّب عليه وعلى مجموعة أفراد الجيل الحاضر القيام به كيما يرتفعوا إلى مستوى الحاضر الجليل الرّهيب والمستقبل الأجلّ الأرهب. كما يُفهَم، أيضاً، الواجبات المترتّبة على الأفراد والمجتمعات والأمم في هذه المرحلة الفريدة من مراحل التاريخ: تكمن هذه الواجبات، أساساً، في استرشاد الماضي عبر المحاولات الجليلة والمتعدّدة التي قام بها علماء التاريخ بهدف النفاذ إلى لبّ حياة الأجداد ومن ثم استكشاف قوانينها وسننها ممّا يمكّن الإنسان من فهم الروابط التي تشدّه إلى الماضي وتشدّ ماضيه إلى حاضره فيستطيع، بالتالي، أن يستشفّ كنه المستقبل والمراحل المقبلة ممّا يمكّنه من مواجهة هذا المستقبل بثقة وعزم.

وللقيام بهذه الواجبات المترتّبة على الفرد، لا بدّ له من تبيُّن الخطوط والمعالم الحضاريّة والمجتمعيّة الصحيحة التي رافقت صيرورة البشريّة فيعي، بالتالي، معالم صيرورته الخاصّة ويدرك أهميّة نفسه كفردٍ حرّ يرتبط بواقعه

الاجتماعي والطبيعي عبر تفاعلٍ جدلي دينامي يفترض تأثّره بالواقع الذي يعيشه وتأثيره فيه أيضاً.

لقد شدّدنا، في هذا الكتاب، على أن تاريخيّة الفرد تتمّ، قبل كل شيء، في حقيقته وجوهره كإنسان أي في كونه كائناً حيّاً فاعلاً، وبهذه الصّفة لا يتأثّر بالواقع فحسب بل يؤثّر فيه ولا يقبل بأن يكون مجرّد نتيجة للتاريخ وعبده الخاضع له بل يطمح لأن يكون سبباً فاعلاً فيه ولأن يصنعه، على الأقل عبر صنعه الواعي لتاريخه الخاص به. وتاريخيّته تتضمّن، في الحقيقة، هذين المعنيين: معنى التأثّر والانفعال ومعنى التأثير والفعل.

باختصار، يمكن القول إن جدارة الفرد وصحّة أفكاره وأعماله وقيمة النتائج التي يتوصّل إليها هي عنوان تاريخيّته والمنطلق الأساسي لحكم الأجيال القادمة عليه على غرار حكمه على الأجيال السابقة.

يرتكز مفهوم هذا الحكم على معنى إنساني أصيل يكمن في: حريّة الفرد كمرء وفي اختياره الواعي؛ ـ في أثره الخاص بكل ما يُقدِم عليه من فكر وعمل؛ ـ في نوع مجابهته للمشاكل التي تعترض مجرى حياته (كفرد وكمجموعة)؛ ـ في الأهداف التي يختطّها لنفسه ويحاول، من ثمّ، تحقيقها؛ ـ في قدرته على التمييز بين ما هو إيجابي وما هو سلبي في التراث الذي آل إليه من الجدود؛ ـ في جدارته العقليّة والخلقيّة أي في القدرات والقابليّات التي تميّزه عن غيره من الأفراد والتي تمكّنه من تحقيق الإبداع الفردي الخاص به؛ ـ في طموحه وفي تحدّيه الهادفين لتحقيق عملٍ تاريخي مُبدع يتطلّب، من قِبَله، تقدير ما سيلاقيه من صعوبات وشروط جمّة في سبيل تحقيقه وتحمُّل المسؤوليّات الناجمة عنه؛ ـ في استعداده للبذل المطلوب: من جدّ وكدّ وسعي في العمل ومن شعور بالمسؤوليّة وقدرة على تحمّل الآلام والمتاعب. بكلمة مختصرة نقول: يكمن مفهوم الحكم في استعداد الفرد للارتفاع إلى مستوى التحدّي والمواجهة لصعوبات الحياة ومتطلّباتها والردّ على هذا التحدّي بما يناسبه من قدرة شخصيّة على تحمّل المسؤوليّات والتبعات الناجمة عنه.

خلاصة القول تكمن في علاقة التفاعل الإيجابي المستمر القائمة بين الفرد والتاريخ: فبمقدار ما تكون ردود فعل إنسان الجيل الحاضر رفيعة ومبدعة، يتمكّن، في هذا الظرف الرهيب المميِّز لمدنيّته الحديثة، من الردّ على التحديّات الضخمة والخطيرة التي تواجهه بفكرٍ صافٍ وعملٍ واعٍ وإبداع خلاّق حيث يحسن الموازنة بين قدراته وأمانيه فلا تثير أمانيه ما تعجز قدراته الشخصيّة عن تحقيقه نظراً لكون جدوى أيّة وسيلة من الوسائل تتوقّف، بمقدار كبير، على جدارة من يدعو إليها أو يستخدمها وعلى مدى تهيّؤ الناس لها.

ثم أن هذه الجدارة تتوقّف، بدورها، على قدرة الإنسان على محاسبة نفسه ونقدها ممّا يسمح له بتحقيق حرّيته الشخصيّة واحترام حرّية الآخرين وحقوقهم. وهذا، بالواقع، ما ينقص المدنيّة الحديثة التي، بالرغم من المكاسب وإمكانات الخير التي تضمّنتها، لا تزال ناقصة ومضطربة جدّاً.

لا بل يمكن القول إن من شأن هذه المدنيّة، إذا ما بقيت تسير في الطريق نفسه الذي اتّبعته حتى الآن، أن تؤدّي إلى إحداث مفاسد وشرور وخسارة لكل المكاسب التي حقّقتها نظراً لما يمازجها من أهواء ويداخلها من نوازع شخصيّة بعيدة كل البعد عمّا ينبغي تحقيقه من احترام للقيم الإنسانيّة وصونٍ لها وتعزيزٍ لشأنها: فالغيوم تلبّد أجواء عالم اليوم وتوازن الرعب قائم والأزمات تتوالى وتنذر بخطر متفاقم وشرٍّ مستطير يتهدّد مصير البشريّة جمعاء.

لذا، من واجب إنسان اليوم وعي هذا الخطر واستدراكه قبل فوات الأوان. ووعيه لذلك يتطلّب في الحقيقة، معرفةً معمّقة حول أوضاع البشريّة ماضياً وحاضراً وما ستؤول إليه مستقبلاً.

لقد حاولنا، ضمن طيّات هذا الكتاب، دقّ ناقوس الخطر الجاثم على صدر الإنسانيّة عسى أن تساهم محاولتنا العلميّة المتواضعة، وإن جزئيّاً، في تعزيز الفهم الصحيح ودعم العمل البنّاء في صرح البشريّة الحاضرة والمستقبليّة.

المراجع

نورد في هذا الكتاب، كما في مختلف الأجزاء التي نقدّمها للقرّاء، قائمة تتضمّن المراجع المشار إليها في الحواشي مع مختلف المراجع التي قرأناها والتي تقدّم للقارىء فكرة أكثر تفصيلاً وعمقاً للموضوعات التي وردت في هذا المؤلّف.

أ) العربية

- د. محمد علي أبو ريان، «تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام»، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٠.
- موسوعة أحمد أمين، «زعماء الاصلاح في العصر الحديث»، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩.
- جواد بولس، ـ «لبنان والبلدان المجاورة»، مؤسّسة بدران وشركاه للطباعة والنشر ١٩٧٣.
- «التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام»، دار عوّاد للطباعة والنشر، بيروت.
- «الأسس الحقيقية للبنان المعاصر»، مؤسّسة جواد بولس، لبنان.
- نيكولاس برديائيف، «العزلة والمجتمع» (نصوص فلسفية)، ترجمة فؤاد كامل، المنشورات الجامعية، لبنان، ١٩٨٥.
- أرنولد توينبي، «حرب وحضارة»، ترجمة غيّاث حجّار، منشورات دار الاتّحاد، بيروت، ١٩٦٣.
- جواهر لأل نهرو، «لمحات من تاريخ العالم». (نقله إلى العربية لجنه من الأساتذة الجامعيين)، منشورات دار الآفاق الأبجدية، بيروت، ١٩٧٩.
- عبد العزيز الدوري، «التكوين التاريخي للأمة العربية» (دراسة في الهويّة

والوعي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤.
- جون ديوي I.Dewey، «الطبيعة الإنسانية والسلوك البشري»، ترجمة د. محمد النجيحي، القاهرة، ١٩٦٢، الجزء الثاني.
- أسد رستم، «مصطلح التأريخ»، المطبعة الأميركية، بيروت، ١٩٣٩.
- جان روستان، «الوراثة البشرية»، ترجمة د. خليل الجرّ، المنشورات العربية، المطبعة البولسية، جونيه، ١٩٧٣.
- قسطنطين زريق، - «في معركة الحضارة»، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤.
- «نحن والتاريخ» (مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤.
- أوجين شرايدر، «البيولوجيا الإنسانية»، ترجمة د. خليل الجرّ، المطبعة البولسية، جونيه، ١٩٧٨.
- جميل صليبا، «علم النفس»، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢.
- د. عبدالله العروي، «العرب والفكر التاريخي»، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٣.
- حسن عثمان، «منهج البحث التأريخي»، القاهرة، ١٩٤٣.
- محمد قاسم، أحمد نجيب هاشم، «التاريخ الحديث والمعاصر»، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٥.
- ادوار كارّ، «ما هو التاريخ؟»، (ترجمة ماهر كيّالي وبيار عقل)، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (الطبعة الثانية)، ١٩٨٠.
- رالف لنتون، «دراسة الإنسان»، نيويورك، ١٩٣٦، ترجمة عبد الملك الناشف، منشورات دار الكتب العصرية، بيروت ١٩٦٤.
- لبيب النجيحي، «الأسس الاجتماعية للتربية»، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.
- وليام هاولز، «ما وراء التاريخ»، ترجمة د. أحمد أبو زيد، القاهرة، ١٩٦٥.
- كولن ولسن، «سقوط الحضارة»، ترجمة أنيس زكي حسن، منشورات دار الآداب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣.

ب) الأجنبية

- Aron (R), «Dimensions de la conscience historique», Paris 1961.
- Barraclough (G), «History in a changing world», Londres, 1957.
- Berdyaev (N.), -«The meaning of history», London, 1945.
  -«le sens de l'histoire» (Essai d'une philosophie de la destinée humaine), 1925, tr. Jankélévitch, Paris, 1948.
- Berr (H), «la synthèse en l'histoire», Paris, 1911.
- Bloch (M), -«Métier d'historien», Paris, 1946.
  -«Apologie pour l'histoire au métier d'historien», Paris, 1949, tr.
- P.Putman «The historian's craft», New york, 1954.
- Boulos (J.), «Les peuples et les civilisations du Proche-Orient» (Essai d'une histoire comparée, des origines à nos jours), 5 vol., Moutons & Cie, La Haye, Paris, Londres, 1961-1968.
- Bouvier (J), «Histoire économique et histoire sociale», Genève, 1968.
- Collingwood (E), «The idea of history», Londres, 1932.
- Damiélou (J), «Essai sur le mystère de l'histoire», Paris, 1953.
- Déscartes (R), «Discours de la méthode», Hachette, Paris, 1937.
- Encyclopedia Universalis, France, 1968.
  - Vol 2: «Arabe, langue arabe», p. 205.
  - Vol 8: «Histoire», p.423-443.
- Febvre (L), -«Combats pour l'histoire», Paris, 1954.
  -«Pour une histoire à part entière», Paris, 1962.
- Johnson (A.), «The historian and historical evidence», New York, 1926.
- Langlois (ch), seignobos (ch), «Introduction aux études historiques», Paris, 1898, tr. G.Berry (Introduction to the study of history), New York, 1898.
- Malinowski (B), «cultures», in: Encyclopaedia of social sciences, vol.17, 1936.
- Marrou (H.I), «De la connaissance historique», Paris, 1954.
- Mortet (ch et V), «Histoire de la grande Encyclopédie, T. 20.
- Planhol (Xavier de), «Les fondements géographiques de l'histoire

de l'Islam», Ed. Hérissey, France, 1968.
- Poincarré (H), «la science et l'hypothèse», Flammarion, Paris, 1903.
- Renier (G.J), «History, its purpose and method», London, 1950.
- Toynbee (A), «A study of history», 12 vol, Londres, 1934-1961.
- Vincent (J), «Historical research», New York, 1911.
- Univers de la psychologie, Ed. Lidis, Paris, 1977 et 1981.
  - Tome I, «La vie psychique des anciens Egyptiens» p. 40-53.
  - Tome II, l'homme et le milieu naturel, p. 458 et 503 (le milieu social).

١ ـ الانسان والتاريخ أثر التاريخ وتأثره بسيكولوجية الفرد
٢ ـ الانسان والجغرافيا أثر الجغرافيا وتأثرها بسيكولوجية الفرد

تأتي بعدها الكتب التالية :

٣ ـ أيها الطفل من أنت ؟ دراسة سيكولوجية تتناول الطفولة بشكل عام
٤ ـ واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل حالة خاصة : الطفل اللبناني
٥ ـ مواقف الأسرة العربية من اضطراب الطفل حالة خاصة : الأسرة اللبنانية
٦ ـ موقف الطفل من والديه كثنائي «كوبل» يجمعهما معًا
٧ ـ عُذرًا أبي
الجزء الأول : المشاكل المطروحة عن غياب الأب في الأسرة
الجزء الثاني : إمكانيات تعويض هذا الغياب
٨ ـ أمي .. أنا بحاجة إليك ، لا تتركيني
٩ ـ رفيقي .. تعالَ نكتشف العالَم معًا
١٠ ـ إيه أيها التلفزيون ، كم تثيرني !
١١ ـ واقع التربية في المجتمع الشرقي المعاصر دور المعلم في خفض حدة الاضطراب النفسي عند الطفل
١٢ ـ الطفل المعاصر والدين

منشورات جروس برس
طرابلس - لبنان